503

روايات الهلال

العار

أميل زولا

A.M.

أحمد صالح



Wed.
7/3/2018

٢٠ قرشا

هذه الرواية

اميل زولا علم من أعلام الرواية فى تاريخ الادب العالمى ، ورواياته نماذج رائعة للفن الروائى . ولهذا فقد اخترنا واحدة من أحسن رواياته لنقدمها الى هواة الرواية والفن القصصى من الشباب ..

ورواية ((العار)) تحكى قصة عائلة فرنسية - من الطبقة الوسطى المقيدة بالعادات والتقاليد وضروريات المحافظة على السمعة ومظاهر احترام الاسرة بين الناس ، ثم وقعت بنت من بناتها فى خطأ جسيم يتعلق بشرفها وكان لابد للاسرة من أن تتخذ موقفا يحمى اسمها من العار . واميل زولا يرينا ما فعلته الاسرة المتوسطة للمحافظة على سمعتها.

العار

بقلم

إميل زولا

ترجمة

محمد عبد المنعم جلال

دار الهلال

الفصل الأول

هبط جيليوم ومادلين من القطار فى محطة فونتناى ، وهبط معهما خمسة أو ستة من المسافرين من اهالى البلدة ، وخرجوا معهما من باب المحطة ثم اندفعوا كل فى طريقه ، دون ان يلقوا نظرة الى الأفق ، وذلك فى لهفتهم للعودة الى بيوتهم ، بعد عمل يوم شاق .

وعندما خرجا من المحطة قدم الشاب ذراعه للفتاة ، كما لو انهما لم يغادرا شوارع باريس، ودلفا الى اليسار ، وراحا يتمشيان فى هدوء ، فى الطريق المحفوف بالأشجار، والممتد من مدينة «سو» حتى فونتناى ، وجعلا ينظران ، وهما يتقدمان ، الى القطار الذى انطلق من جديد ، فى أسفل الوادى ، مرسلا صفيره الأصم العميق .

وعندما اختفى القطار وسط أوراق الشجر ، تحول جيليوم الى زميلته وقال مبتسما :

ــ قلت لك أننى لا أعرف هـذا البلد ، وعلى هذا فلا أدرى أين نذهب ؟ ..

أجابته مادلين فى هدوء : فلنمض من هذا الطريق لكى نتفادى السير فى شوارع « سو » .

كان كل منهما متأبطا ذراع الآخر ، ومع ذلك ، فقد كان لايزال بينهما ذلك القلق الذى يرجع مصدره الى حداثة صداقتهما والفتهما التى لم تتوطد بعد كما يجب . وعندما كان يخطر لهما انهما لم يتعارفا الا منذ ثمانية أيام على الأكثر، كانا يشعران بشىء من الضيق حين يجدان نفسيهما وحدهما وسط الحقول ، كعاشقين سعيدين .

وكانا يشعران بأنهما لايزالان غريبين ، وان كلا منهما مضطر الى معاملة الآخر كصديق ، ولهذا راحا يتبادلان النظرات فى حياء وخجل، ويترددان فى الكلام خوفا من ان يجرح أحدهما شعور الآخر دون قصد . كان كل منهما يمثل « المجهول » بالنسبة للآخر ... المجهول الذى يخيف ويستميل فى نفس الوقت . وفى حركاتهما البطيئة كعاشقين، وفى كلماتهما الجوفاء الحلوة ، وحتى فى ابتساماتهما التى كانا يتبادلانها بمجرد ان تتلاقى منهما العيون كنت تقرأ قلق وارتباك مخلوقين جمعت بينهما الصدفة فى شىء من القسوة ، وما

كان ليخطر لجيليوم أبدا انه سيتعذب بهذه الصـورة من مغامرته الأولى ، وكان ينتظر نهايتها فى قلق حقيقى .

واستأنفا السير وهما يلقيان النظر ، من وقت لآخر ، الى التل، ويقطعان الصمت بحديث متفكك لا رابط بينه ، لايضعان فيه شيئًا من افكارهما الحقيقية ، ويدور كله حول الأشجار والسماء والمناظر الجميلة التى تمتد أمامهما .

كانت مادلين قد بلغت العشرين من عمرها ، وكانت ترتدى ثوبا بسيطا من القماش الرمادى اللون ، تزينه بشرائط زرقاء ، وتضع على راسها قبعة صغيرة من القش ، تغطى بها شعرها الأشقرالجميل الذى تجمعه فى ضفيرة كبيرة خلف راسها .

كانت لمادلين سحنة غريبة حقا ، فهى مزيج من الصرامة والليونة ، فعندما كانت تفكر أو تغضب ، وتزم شفتيها ، كنت ترى القسوة والصرامة واضحتين فى جبينها العريض ، وفى نتوء انفهـا العصبى وعينيها الكامدتين . ولـكن ما ان تعلو الابتسـامة شفتيها حتى يختفى كل ذلك فترى بدلا من الصرامة والقسوة رقة ولينا ، ولا يطالعك غير وجه طلق ينطق بالسحر والفتنة ، حتى لتبدو الابتسامة وكانها ابتسامة طفلة فى وجه امرأة ناضجة .

وغالبا ما كانت ابتسامتها تعبر عن نوع من الـكبرياء الخشن ، ثم اذا بها تذوب فجأة فى نظرة رقيقة ، متناهية الرقـة ، لامرأة ضعيفة مغلوبة على أمرها ، كما لو ان جزءا من كيانها بقى طفلا . كانت وهى تقطع الطريق الضيق متأبطة ذراع جيليوم ، ذات وقار يثقل على الشـاب ثم اذا بالوقار يتلاشى فجأة ويحل محله اذعان وخضوع كانا يعيدان اليه الأمل . وكنت تدرك من خطواتها المتزنة بعض الشيء انها لم تعد فتاة .

اما جيليوم فكان يكبرها بخمس سنوات ، وكان شابا طويل القامة ، نحيف الجسم ، ارستقراطى المظهر، له وجه طويل رقيق القسمات ، ولولا نقاء بشرته ، وعلو جبينه لبدا دميما . تدل سيماء على الذكاء وضعف الارادة . وكانت تتملـكه فجأة ارتعادات عصبية ، فيبـدو خجولا كالأطفال . وكان محنى الظهر قليلا ، تصدر منه وهو يتكلم حركات مترددة ، ويسأل مادلين بعينيه قبل ان يفتح شفتيه . كان يخشى الا يروق لها ، وان تكره تصرفاته وصوته . وكان لايثق فى نفسه اطلاقا ، ويتكلم فى تواضع وتملق . وعندما يظن انها تستخف به كانت تأخذه اندفاعات من الـكبرياء . كانت الأنفة كل قوته .

ولعله كان يتوتر امام كل ما يجرح شعوره . كان من هؤلاء الشبان ذوى الحساسية المرهفة العميقة الذين يحسون بحاجة ملحة الى الحب والهدوء ، ويميلون الى الرفاهية الأبدية ، وينسـون الدنيا بسهولة لكى ياوذوا بأعماق قلوبهم فى يقين نبلهم ، بمجرد أن تشركهم الدنيا فى عارها وشقائها . واذا كان يضيع فى ابتسامات مادلين ، واذا كان يحس بفرح طاغ وهو ينظر الى بشرتها العاجية ، فقدكانت تعلو شفتيه ، أحيانا ، وعلى غير وعى منه ، ثنية من الازدراء اذا ما ألقت اليه المراة الشابة نظرة باردة تكاد تكون ساخرة .

وبلغ الشابان آخر طريق شان جيرار ، ودلفا منه الى ممرضيق يمتد بين جدارين رماديين فى رتابة مزعجة ، واسرعا الخطا لكى يخرجا من هذا الممر الضيق ، ثم استأنفا نزهتهما خلال الحقول ، عبر طرقات لم تطرقها قدم تقريبا .. ومرا بسفح التلة ، حيث تقوم اشجار القسطل الضخمة ، وبلغا اولناى . وأهاجت هـذه النزهة السريعة دمهما . واستراح ذهنهما لدفء الشمس فى الهواء الطلق الذى راح يلفح وجهيهما بنسماته القارسة . واختفت حالة الحرب المضمرة التى كانت تدور بينهما شيئا فشيئا ، وحلت محلها الفة صديقين حميمين ، ونسيا توترهما ، واصابهما الريف بحالة من الخير بحيث لم يعد احدهما يفكر فى ان يختلس النظر الى الآخر او فى مقاومته .

وصاح جيليوم عندما استردا أنفاسهما :

ــ ولكن أين نحن ؟.. هل يوجد مايؤكل فى هذه البلدةعلى الأقل؟

أجابته مادلين فى مرح : نعم . لا تخش شيئا . سوف نجلس أمام احدى الموائد بعد نصف ساعة . هلم بنا من هنا .

واخذته على الفور الى طريق يحف به سياج من القصب ويؤدى الى الهضبة ، وهناك تخلت عن ذراعه ، وراحت تجرى كما يفعل المرء السعيد المبتهج . واستيقظت فيها غريزتها الصبيانية ، وعادت طفلة صغيرة فى ظل وصمت الأشجار المهتزة . وأضاءت ابتسامتها وجهها كله ، وبثت فى عينيها الرماديتين شفافيات مثيرة ، والانت رقتها الصبيانية خطوط جبينها الصارمة . كانت تروح ثم تأتى وهى تضحك ضحكات سعيدة وتمسك جونلتها بيديها فيصدر عنها حفيف خفيف وتترك خلفها عطرا خفيفا من البنفسج . واخذ جيليوم ينظر اليها وهو فى سعادة غامرة ، وقد نسى المراة البـاردة المتكبرة ، واحس بارتياح كبير واطمأن الى حبه لهذه الطفلة الكبيرة التى تهرب

وهى تناديه ثم لا تلبث ان تستدير فجأة ، وتسرع اليه وتتعلق بكتفه وهى متعبة حانية .
وبلغا مكانا اعترضت طريقهما فيه هضبة من الرمال . وكانت الأرض فيه مغطاة بمسحوق ناعم حلا لها ان تفرز قدميها فيه . وطاب لها ان تختار اكثر الأماكن ليونة وهى تطلق صيحات صغيرة حارة حين تشعر ان حذاءيهما يغوصان ، وأخذت تحاول أن توسع خطاها وتضحك اذ لا تستطيع أن تتقدم فى الأرض المتحركة، كما لو كانت طفلة فى الثانية عشرة .
وكانت لا تزال ترتجف من اثر لهوها وضحكاتها . واستسلمت لجيليوم . وأحس هذا الأخير بذراعها الدافىء يضغط على ذراعه ، وأدرك فى هذه اللحظة ان هذه المرأة ملك له وانه على الرغم من قوتها الظاهرة فان لها قلبا ضعيفا يحتاج الى الحنان . وعندماكانت ترفع عينيها اليه كانت تنظر اليه فى خضوع حان ، وابتسامات ندية. كانت تتحرك فى رشاقة ودلال وكأنها تلتمس حب الشاب فى خجل واستحياء ، وقد أصاب التعب والتلذذ بالظلال واستيقاظ شبابها والمكان المقفر الذى تجتازه ، كل ذلك أصاب كيانها باحساس عشقى وبتلك الرغبة الملحة التى تدفع بأشد النساء كبرياء الى أحضان الرجل.
ومشى جيليوم ومادلين فى خطوات بطيئة. وكانت قدم المرأة الشابة تنزلق أحيانا فوق حجر فتتعلق بذراع زميلها . وما كان ذلك الا مزيدا من المداعبات والملاطفات ، وكانا يعرفان ذلك جيدا ، ولا يتكلمان وانما يكتفيان بتبادل الابتسامات ، فقد كانت هذه الكفة تكفيهما لترجمة الشعور الوحيد الذى يغمر قلبيهما . كان وجه مادلين فاتنا فى الظل . كان له شحوب رقيق بظلال رمادية مفضضة. وحول الفم ، كانت تنساب ومضات وردية ، وهناك فى ركن الشفتين، من ناحية جيليوم ، شبكة صغيرة من العروق الزرقاء ، كانت من الرقة بحيث كان جيليوم يشعر برغبة جبارة فى ان يطبع عليها قبلة . كان خجولا ، وظل يتردد حتى بلغ اعلا المنحدر . وهناك ، وهما يريان التلة الكبيرة التى تمتد امامهما ، خيل لهما انه لم يعد هناك ما يخفيهما عن العيان . وعلى الرغم من أن الريف كان مقفرا فقد احسا بالخوف من هذه المساحة الكبيرة ، وافترقا قلقين ، وقد تملكهما الارتباك من جديد .
ووقفت مادلين رزينة تفكر أمام غابة نريير التى لاحت لهما الآن . وكانت المرأة الشابة قد استعادت سحنتها القاسية الصامتة ، وبدا

كأنها نسيت زميلها . وراحت تنظر الى البلدة فى اهتمام عجيب ، كما لو كانت تعرفها من قبل ، ثم حدقت بعينيها فى السحب الداكنة وبدا كأنها تتخيل ذكريات لاذعة .

ووقف جيليوم على بعد خطوات منها ، ينظر اليها فاحصا ، وقد تملكه القلق . احس بأن هوة تنحفر بينهما فى كل لحظة . فيم يمكن ان تفكر هكذا ؟.. وتعذب وهو يرى انه ليس كل شىء بالنسبة لهذه المراة ، وقال لنفسه فى خوف خفى انها عاشت عشرين سنة من غيره وان هذه السنوات العشرين تبدو كسواد فظيع .

لم يكن هناك اى شك فى انها تعرف البلدة معرفة جيدة ، وانها جاءتها قبل ذلك برفقة عشيق . واحس برغبة جارفة فى ان يستجوبها ، ولكنه لم يجرؤ ان يفعل ذلك صراحة خوفا من ان يسمع ردا صادقا يجرح حبه . ومع ذلك فلم يسعه الا ان يسألها مترددا :

ــ هل اتيت هنا من قبل ؟ ..

اجابته فى ايجاز : نعم . مرارا كثيرة .. فلنسرع ، فقد تمطر .

واستأنفا السير وكل منهما يمشى بعيدا عن الآخر ، وقد ضاع فى افكاره ، وبلغا آخر المنحدر وهما كذلك . وهناك ، وفى أول الغابة ، يقوم المطعم الذى قادت مادلين زميلها اليه ، وهو مبنى غير جميل ومريع ، شققت الأمطار جدرانه وسودتها ، يقع خلفه سياج شائك يحيط بفناء زرعت به بضع أشجار .

وأطلقت صاحبة الفندق ، وهى امراة بدينة الجسم ، من عامة القوم ، صيحة تدل على الدهشة حين رات الفتاة ، وهتفت :

ــ آه .. أهذه انت ؟ حسبتك أصبحت فى عداد الأموات ، فاننى لم أرك منذ أكثر من ثلاثة شهور ... هل انت بخير ؟

ووقع بصرها عندئذ على جيليوم ، فكتمت سؤالا كانت تهم بالقائه . وبدت كما لو اضطربت لوجود ذلك الشاب الذى لا تعرفه . ورأى جيليوم دهشتها ، وقال لنفسه انها لا ريب كانت تتوقع وجها آخر غير وجهه .

وعادت المراة تقول وقد تخلت عن الفتها بعض الشىء :

ــ حسنا . لعلكما تريدان تناول العشاء .. أليس كذلك ؟ .. سأعد لكما المائدة ، فى احدى الخمائل .

وكانت مادلين قد تلقت تحية المراة بكل هدوء ، وفكت وشاحها ، وخلعت قبعتها ، ومضت فوضعتهما فى غرفة بالدور الأرضى ، وكانت تبدو وكأنها فى بيتها .

وكان جيليوم قد دخل الى الفنـــاء وراح يمشى هنا وهناك وهو يعاني من بعض الضيق ، فان أحـدا لم يحفل به في حين راحت الخادمة والكلب نفسه يحتفيان بمادلين .

وعندما عادت اليه كانت قد استعادت ابتسامتها ووقفت لحظة بالعتبة ، وتوهج شعرها العارى الطليق مع آخر شعاع للشمس ، واضفى على بشرتها بياضا كبياض الرخــام ، وبدت له بعـد ان تخلصت من الشال ، ناهدة الصـدر ، عريضة الـكتفين ، خفيفـة ورشيقة . والقى الشـاب نظرة حافلة بالاعجاب الحائر الى هـذه المخلوقة الجميلة التى تتقد حياة . لاريب ان رجلا غيره قد احتواها بين ذراعيه وهي تبتسم على عتبة هذا الباب بالذات . وامضتـه هذه الفكرة ، واحس برغبة عارمة في ان يمضي ويأخذها بين ذراعيه، ويضمها الى صدره لـكى تنسى هذا البيت ، وهذا الفناء ، وهـذه الخمائل ، ولا تفكر الا فيه هو .

وصاحت المرأة الشابة في سرور : لنسرع بتناول الطعام .. ماري اعدي لنا طبقا كبيرا من سلطة الفراولة ، فانني جائعة جدا ..

ونسيت جيليوم ، وراحت تنظر الى كل خميلة ، باحثة عن المائدة التى اعدت . وعندما رات المفرش صاحت تقول :

ـ آه ، كلا. لن أجلس على هــذا المقعد ، فانني اتذكر ان به مسامير كبيرة مزقت ثوبى .. ضعى المفرش على هذه المائدة ياماري.

وجلست قبــل ان تتمكن الخادمة من نقل المفرش والأطبـاق . وتذكرت جيليوم عندئذ ، وراته واقفا على بعد خطوات فقالت له :

ـ آه . الا تأتي وتجلس .. ؟ مالك تقف هكذا كالألف !؟ ..

وانفجرت ضاحكة . كانت العاصفة الوشيكة الوقوع قد أضفت عليها مرحا عصبيا . وكانت حركاتها جافة وكلماتها وجيزة في حين ان الجو الملبد بالغيوم كان يرهق جيليوم على العكس ، فتهالك محطم الأعصاب ، ولم يرد الا بمقاطع غير كاملة . واستمر العشاء اكثر من ساعة . وكان الشــابان وحدهما في الفناء ، فان مطاعم القرى والارياف تبقى شاغرة اثناء أيام الأسبوع ، وراحت مادلين تتحدث طوال الوقت فتكلمت عن طفولتها ، وعن اقامتهــا في المدرســـة الداخلية ، واخذت تروى كل ما مر بها من أحداث مع المدرســات وخبث البنات ، واسهبت في هذا الصدد .

واذ فرغا من العشاء واخذا يتناولان الحلوى راحت قطرات كبيرة من المطر تتساقط فوق المفرش. وكان النهار قد مال فجاة ، واخذت

العاصفة تدوى من بعيد وتقترب فى صوت أصم متتابع ، كما لوكان جيشا يتقدم ، ولمع البرق وانساب وميضه البنفسجى فوق المفرش .
قالت مادلين : هاهي‌ذى العاصفة .. اوه ، شد ما أحب البرق.
ونهضت ، ومضت الى وسط الفناء لكى يتسنى لها الرؤية بطريقة افضل . أما جيليوم فبقى تحت الخميلة .. كان يتعذب ، فان العاصفة كانت تسبب له خوفا غريبا . كان ذهنه قد بقى ثابتا ، ولم يخش أن تصرعه العاصفة ، ولكن‌جسده كله كان يثور حين يسمع الرعد ، وحين يرى وميض البرق . وعندما كان البرق يحرق عينيه كان يخيل له كأنه أصيب بضربة عنيفة فى صدره ، وكان يشعر بمغص فى معدته ، يجعله يرتعش ويضطرب .
كان هذا الشعور منه مجرد ظاهرة عصبية ، ولكنه كان اشبه بالخوف والجبن ، وقد أحزنه أن يبدو جبانا امام مادلين . وكان قد وضع يده أمام عينيه . واذ لم يستطع ان يقهر ثورة اعصابه ، نادى المرأة الشابة وسألها فى صوت حاول أن يبدو هادئا ، ان لم يكن من الحرص ان يذهبا ويفرغا من تناول الحلوى داخل المطعم .
وأجابته مادلين قائلة :
— ولكن السماء لاتمطر تقريبا .. ويمكننا ان نبقى وقتا آخر.
أجاب وهو يتردد : بل أفضل ان امضى الى الداخل ، فان منظر البرق يؤلمنى .
نظرت اليه فى دهشة ، ثم قالت فى بساطة : آه . كما تريد .
ونقلت الخادمة الأطباق‌الى‌قاعة الطعام بالمطعم ، وهى غرفة‌كبيرة، عارية اسودت جدرانها ، لم يكن بها من الأثاث غير بضع موائد وعدد من الدكك الخشبية . وجلس جيليوم موليا ظهره الى النافذة أمام طبق من الفراولة لم يمد اليه يدا . أما مادلين فقد فرغت من طبقها سريعا ثم نهضت ومضت الى النافذة ففتحتها . وكانت تطل على الفناء ، وهناك اتكأت عليها وراحت تنظر الى السماء الملتهبة.
وانفجرت العاصفة فى عنف لا نظير له ، وكانت قد توقفت فى الغابة ، محطمة الهواء ، تحت ثقل السحب الملتهبة . وكان المطر قد انقطع وراحت الرياح تصفر ، وترتطم بالأشجار فى عنف ، وتتابع البرق بسرعة مذهلة بحيث بدا كأن النهار طلع بالخارج. وكان نهارا مائلا الى الزرقة . يضفى على الريف نوعا من الديكور الميلودرامى، ولم يعد الرعد يعصف فى أصداء الفضاء والوادى وانما اتخذ حدة دوى المدافع . ومما لا شك فيه ان الصاعقة اصابت الأشجار ، حول

المطعم ، وبين كل قصف وآخر ، كان يخيم صمت عميق .
احس جيليوم بقلق شديد لمجرد معرفته بأن نافذة مفتوحة خلف ظهره . وادار راسه ، على الرغم منه ، وبحركة عصبية ، فرأى مادلين بيضاء تماما ، فى ضوء القمر البنفسجى . وكان شعرها الأشقر الذى بلله المطر ، وهى فى الفناء والذى يتهدل على كتفيهما يتأجج مع كل وميض مفاجىء .
ولم يستطع الشاب أن يقاوم رغبته الجنونية فى أن يذهب ويغلق مصراعى النافذة أكثر من ذلك ، وقال فى فروغ صبر :
ـ ولكن .. اغلقى النافذة !.. ان ما تفعلين لشديد الخطر .
وتقدم ، ولمس ذراع مادلين ، فاستدارت اليه نصف دورة ، وقالت : انت خائف اذن ؟
وضحكت ضحكة كبيرة ، ضحكة من تلك الضحكات التى يبدو فيها احتقارالمراة التي تسخر ، وخفض جيليوم راسه ، وتردد لحظة فى أن يعود مكانه أمام المائدة ثم تمتم يقول وقد غلبه قلقه :
ـ ارجوك !
وفى هذه اللحظة تساقطت الغيوم مطرا ، هطل كالسيل ، وهب اعصار دفع بموجة من المطر داخل الفرفة . واغلقت مادلين الغرفة اخيرا ، وعادت فجلست بجوار جيليوم .
وقالت بعد لحظة : عندما كنت صغيرة ، كان أبى يأخذنى بين ذراعيه فى الأيام العاصفة ، ويحملنى الى النافذة . واتذكر اننى كنت ، فى الأوقات الأولى ، أخفى وجهى بين كتفيه . ثم طاب لى أن أرى البرق بعد ذلك . ولكن ، هل انت خائف ؟ !
رفع جيليوم رأسه وقال فى هدوء : لست خائفا ، ولكننى اتعذب .
وساد الصمت من جديد . واستمرت العاصفة فى هبوبها العنيف وقصفها المخيف ، وراح الرعد يدوى قرابة ثلاث ساعات . وبقى جيليوم طوال هذا الوقت قابعا فى مقعده ، منهارا ، جامدا ، شاحب الوجه . واذ رأت مادلين رعشته العصبية ادركت اخيرا انه يتعذب حقا ، ونظرت اليه فى اهتمام مشوب بالدهشة وهى تستغرب ان ترى رجلا له اعصاب رقيقة أشبه بأعصاب النساء .
كانت هذه الساعات الثلاث طويلة ومزعجة بالنسبة للشابين ، ولم يتبادلا فيها أكثر من بضع كلمات . وانتهى عشاء العاشقين بصورة غريبة ، واخيرا سكنت العاصفة ، وخفت حدة المطر، ومضت مادلين ففتحت النافذة وقالت :

ـ لقد هدأت العاصفة .. تعال ياجيليوم .
وتنفس الشاب وقد أحس بارتياح كبير ، ودخل واتكأ بجوارها ، فوق النافذة . وبقيا هكذا لحظة ثم مدت يدها الى الخارج وقالت:
ـ لم تعد السماء تمطر . يجب ان نرحل الآن ، اذا أردنا الا يفوتنا آخر قطار .
ودخلت صاحبة الحانة وقالت : ستنامان هنا طبعا . سأعد لكما غرفتكما .
أسرعت مادلين تقول : كلا ، كلا . لن ننام هنا ، لا أريد ... اننا أتينا لتناول العشاء فحسب ، أليس كذلك يا جيليوم ؟ ..
ـ ولكن هذا محال الآن . ان الطرقات وعرة فى هذه الساعة
بدا الاضطراب الشديد على المرأة الشابة وقالت وهى تتخبط :
ـ كلا .. أننى أريد أن أنصرف . لا يجب أن نقضى الليل هنا .
قالت صاحبة الفندق : كما تشائين ، ولكن اذا جازفتما بالخروج بدلا من النوم تحت سقف يأويكما فسوف تنامان فى العراء.
لم ينطق جيليوم . اكتفى بأن راح ينظر الى مادلين متوسلا . وتحاشت هذه الأخيرة ان تلتقى عيناها بعينيه . كانت تمشى فى خطوات محمومة وهى فريسة نضال عنيف ، وعلى الرغم من اصرارها الشديد على الا تنظر اليه فقد رفعت بصرها اليه أخيرا . ورأته خاضعا ومستسلما أمامها بحيث لانت ارادتها. وتبادلا النظر فتحطمت وقامت ببضع خطوات أخرى وقد قسا جبينها ، ثم قالت فى صوت واضح وفى ايجاز ، تخاطب صاحبة الحانة :
ـ ليكن . سوف ننام هنا .
ـ سأعد لكما الغرفة الزرقاء اذن .
أتت مادلين بحركة مفاجئة وقالت : كلا . لا أريد الغرفة الزرقاء .. وانما أريد غرفة أخرى .
ـ ولكن كل الغرف الأخرى مشغولة .
ترددت الفتاة لحظة أخرى ، ودارت معركة جديدة فى داخلها وتمتمت : من الأوفق أن ننصرف .
ولكن عينيها التقتا بعينى جيليوم من جديد فانهارت .
ومضت صاحبة الحانة لاعداد الغرفة الزرقاء . وخرج الشابان من المطعم ، وجلسا فوق جذع شجرة اقتلعت من مكانها ووقعت فى مدخل الغابة .
كانت نصف صفحة السماء صافية وجميلة ، تنتشر فيها النجوم ،

ونصفها الآخر لاتزال تغطيها ستارة داكنة من السحب التى تنجاب فى بطء شديد . وجلس الشابان فوق جذع الشجرة لايستطيعان تمييز وجهيهما . كان كل منهما يرى الآخر فى غموض فى الظل الكثيف الذى تلقيه الأشجار عليهما . وبقيا بضع دقائق هكذا لا يتكلمان . كانا يصغيان الى أفكارهما ، ولم تكن بهما حاجة الى النطق بها بصوت مرتفع .

وتمتم جيليوم أخيرا يقول : انت لا تحبينني يا مادلين .

اجابت المرأة الشابة فى بطء : انت مخطىء ياصديقى . اظن اننى أحبك . ولكننى لم أجد الوقت الكافى لكى أسأل نفسي وارد عليها . كنت أود أن انتظر قليلا .

وساد صمت جديد . كانت كبرياء الشاب تتعذب . ود لو ان ترتمي حبيبته بين ذراعيه من تلقاء نفسها ، والا يدفعها الى ذلك نوم اضطرارى يدفعها اليه قدر محتوم . وقال فى صوت خافت :

ــ ان ما يحزننى هو أننى ادين بك للصدفة ، فما كنت لترضين بالبقاء أبدا ، لو ان الطريق لم يكن وعرا . أليس كذلك ؟ ..

صاحت مادلين : أوه ، انك لا تعرفني . اذا كنت قد بقيت فذلك لأننى رضيت البقاء ، فما من قوة كانت تبقينى رغم ارادتى وسط اعنف العواصف واشدها حدة .

وراحت تفكر ثم قالت فى غموض ، كما لو كانت تحدث نفسها : لا أدرى ما الذى سيحدث لى فيما بعد .. ان ارادتى قوية ، ولكن يتعذر على المرء ان يكيف حياته وفق هواه .

وأمسكت . همت ان تعترف لجيليوم وتقول له ان احساسا غريبا من الشفقة هو الذى حملها على البقاء ، فان النساء تستسلم أحيانا بدافع الشفقة وبدافع الطيبة . فقد رات الشاب يرتجف أثناء العاصفة ، وراته ينظر اليها بعينين مبتلتين بحيث لم تجد فى نفسها القوة لكى تأبى أن تستسلم له .

وادرك جيليوم انها تهب نفسها له كاحسان وصدقة تقريبا ، واستيقظت كل مشاعره ، فان مثل هذا الحب جرحه فى كرامته وكبريائه ، وعاد يقول :

ــ انك على حق . يجب أن ننتظر وقتا آخر . هل تريدين ان نرحل ؟ اننى انا الآن الذى أطلب اليك أن نعود الى باريس .

كان يتكلم فى صوت محموم . وادركت مادلين التغيير الذى طرأ فى صوته ، فسألته مشدوهة :

– ماذا دهاك ياصاحبى ؟

عاد يقول ... فلنرحل ... أرجوك .

اتت بحركة تدل على اليأس وقالت : وما الجدوى الآن ؟ سوف ينتهى بنا الأمر الى هذا ان عاجلا وان آجلا ... فانني أحس منذ اليوم الذى التقينا فيه لأول مرة اننى لك . خطر لى أن ألجأ الى الدير ، وعاهدت نفسى الا ارتكب الاثم مرة أخرى . وطالما لم يكن لى غير عشيق واحد فقد احتفظت بكبريائى . أما الآن فانني أعرف اننى أمضى فى طريق العار ... فلا تحقد على لصراحتى .

نطقت بهذه الكلمات فى حزن وأسى بحيث أن كبرياء الشاب لانت، وعاد الى ظرفه ومجاملته وقال :

– انك لاتعرفين من أنا فبثينى أشجانك . اننى لا أشبه الرجال الآخرين ، وسأحبك كزوجتى ، وسأحرص على اسعادك ، واقسم لك على ذلك .

لم تجبه مادلين، فقدكانت تظن انها خبرت الحياة بمرها وحلوها. وقالت لنفسها ان جيليوم سوف يهجرها ذات يوم . وان العار سوف يأتى بعد ذلك ، ومع ذلك فقد كانت قوية ، وكانت تعرف ان فى مقدورها ان تقاوم ، لكنها لم تشعر بأية رغبة فى المقاومة على الرغم من الحجج التى بررت به موقفها . تحطمت كل ارادتها فى ساعة حتمية . وقد دهشت هى نفسها لقبولها بكل سهولة ما كانت جديرة بأن ترفضه بالأمس رفضا باتا .

وفكر جيليوم . كانت هذه أول مرة تحدثه فيها المرأة الشابة عن ماضيها ، وتعترف له انه كان لها عشيق . وبدا له ان هذا العشيق الذى يجد ذكراه حية ماثلة فى كل حركة من حركاتها ، وفى كل كلمة من كلماتها يقوم الآن سدا بينهما بعد أن جاءت سيرته.

ولزم الشابان الصمت مدة طويلة بعد ان استقرت نيتهما على الوصال ، وانتظرا ساعة النوم فى تشكك غريب . احسا بأن الأفكار القلقة قد أرهقتهما ولم تصعد الى شفتيهما كلمة حب أو ملاطفة ، ولو أنهما تكلما لأعربا عما يجيش فى صدريهما من ضيق وقلق . وكان جيليوم يمسك يد مادلين فى يده ، وكانت يدها باردة جامدة فى يده . وما كان ليخطر له أبدا أن أول حديث غرامى له سيكون حافلا بمثل هذا القلق . وطواهما الليل هو وحبيبته بظله وسره . كانا وحدهما ، مفصولين عن العالم ، ضائعين فى سحر مرير لليلة هوجاء ، ولا يخفق قلباهما بغير الخوف وعدم الاطمئنان الى الغد .

واحست مادلين بالرعشة تسرى فى أعطافها فجأة فقالت : اننى مقرورة ، فلنعد .

وعادا دون ان يتبادلا كلمة واحدة . ورافقتهما صاحبة الحانة حتى غرفتهما ، حيث فارقتهما ، بعد أن وضعت فوق المنضدة شمعة أضاءت الجدران بنورها المتذبذب . كانت الغرفة صغيرة ، جدرانها مكسوة بورق بشع مطبوعة به زهور كبيرة زرقاء بهت لونها من تأثير الرطوبة . وفيها فراش كبير من الخشب الابيض المدهون باللون الأحمر ، يشغل مساحة الغرفة كلها تقريبا . وهب من السقف هواء بارد فى حين جاءتهما من اركان الغرفة رائحة العفن.

وارتجف الشابان وهما يدخلان . بدا كأنما تلقيا فوق كتفيهما ثيابا مبتلة . وبقيا صامتين وهما يروحان ويغدوان فى الغرفة ، وأراد جيليوم أن يغلق مصراعى الباب ، وحاول طويلا دون ان يتمكن من ذلك ، فقد بدا كأن هناك عائقا فى مكان ما .

وقالت مادلين رغما عنها : يوجد شنكل فى أعلا الباب .

حدق جيليوم فيها بحركة غير ارادية . وامتقع لون كل منهما ، وتعذبا بهذا الاعتراف اللا ارادى .. فان المرأة الشابة تعرف ان الشنكل موجود ، وهذا معناه انها نامت فى هذه الغرفة .

وفى صباح اليوم التالى كانت أول من استيقظ ، وهبطت من الفراش فى رفق ، وارتدت ثيابها وهى تتأمل جيليوم ، وكان لايزال راقدا . كانت غاضبة شيئا ما ، وبانت فىعينيها وفىجبينها الصارم امارات الندم ، ولم تخففها ابتسامة شفتيها . وكانت ترفععينيها أحيانا . وتنتقل من وجه عشيقها الىجدرانالغرفة ، والى بعض البقع التى تعرفها جيدا فى السقف. واحست بالوحدة ، ولمتشعر بأى خوف من الاستسلام لذكرياتها . وبينما هى تنظر الىالوسادة التى تستريح عليها راس جيليوم، ارتجفتكما لو كانت قد توقعت ان ترى وجها آخر فى ذلك المكان .

وبعد لحظات كان النائم قد استيقظ . وكانت عيناه ناعستين،وعلى شفتيه ابتسامة اليقظة الغامضة ،الحافلة بالامتنان فى غداة ليلة حب . وبسط يديه الى المرأة الشابة التى تقترب وقال فى صوت خافت عميق : هل تحبيننى ؟

ابتسمت مادلين بدورها ابتسامتها الحلوة الصبيانية الرقيقة . لم تعد ترى الغرفة ، وانما احست بأن هدوءا كبيرا يسرى فى كيانها بسبب سؤال الشاب . وردت لجيليوم قبلته .

الفصل الثانى

كانت مادلين ابنة مهندس ميكانيكى ، ولد أبوها فى قرية صغيرة بجبال الأوفرن ، وانتقل الى باريس ينشد الثروة . وكان حافي القدمين ، خاوى الوفاض ، ولكنه كان قوى الجسم صلب الارادة. والتحق باحدى الورش الصناعية وتمرن فيها ، وقضى عشرة أعوام يبرد الحديد ويطرقه بكل قواه ، وبيديه الخشنتين . ويضع القرش فوق القرش حتى اجتمعت له أخيرا بضعة آلاف من الفرنكات .. ومنذ أن بدأ ضربته الأولى بالمطرقة وقد عاهد نفسه على الا يكف عن عمله الا بعد أن يدخر ما يكفى من المال لكى يعمل لحسابه .

وعندما رأى انه أصبح ثريا بما يكفى استأجر عنبرا ، فى حى مونروج ، واشتغل فيه بصناعة الأدوات النحاسية . وكانت هذه هى خطوته الأولى نحو الثراء الحقيقي ونحو المصانع الكبيرة التى كان يحلم بتأسيسها فيما بعد . وقضى عشر سنوات أخرى وهو مكب على عمله دون أن يفكر فى الاستراحة ، ولو يوما واحدا ، ولم يلبث أن اتسعت أعماله والحق بمصنعه عمالا كثيرين . واستطاع اخيرا ان يشترى الأرض وأن يبنى المصانع الواسعة فى نفس المكان الذى بدأ فيه عمله . وراجت تجارته ، وأصبح يصنع الغلايات والمراجل الى جانب الأوانى النحاسية . وكانت فرنسا قد بدأت باقامة شبكة خطوط سككها الحديدية فعهدت اليه بأعمال كبيرة ، ووضعت بين يديه أرباحا طائلة ، وتحقق حلمه واصبح ثريا

وظل يعمل حتى ذلك الوقت دون أن يكون له أى هدف غيركسب اكبر قدر من المال ، ولكن من غير أن يحفل بما عساه يفعل بهذا المال فيما بعد ، فقد كان يكفيه النذر اليسير كل يوم للأود بريقه. وكان انكبابه على العمل وجهله بملذات الحياة وترفها قد جعلاه لايستفيد شخصيا من هذه الثروة ، فقد اغتنى بدافع الاصرار والعناء اكثر منه بأى دافع آخر . كان قد أقسم على أن يصبح سيد نفسه بدوره ، وقضى حياته كلها فى سبيل تحقيق هذا الهدف. وعندماجمع ما يقرب من المليون .. تساءل : ماذا يمكنه ان يفعل بهذا المبلغ ؟ ولم يكن بالرجل البخيل ابدا .

بنى له ، قبل كل شيء ، بيتا جميلا بجوار مصنعه ، فرشه بأجمل المفروشات واغلاها ثمنا ، ولكنه لم يشعر بالراحة فوق سجاجيده السميكة ، وآثر أن يقضي ايامه في مصانعه بين الحديد والنار ، ولعله كان جديرا بأن يؤجر البيت ويعود الى سكنى المسكن الذي كان يسكنه قبل ذلك ، فوق مصنعه لولا ان وقع حادث خطير غير مجرى حياته كل التغيير ، وجعل منه رجلا آخر .

كان فيرا ، على الرغم من غلظته وخشونة صوته وحركاته رقيقا كالطفل ، وما كان ليفكر في قتل ذبابة . كان كل حنان طبيعته يرقد في أعماقه، تكتمه حياته العملية ، عندما التقى بفتاة مسكينة، تبدو كما لو كانت في السادسة عشر من عمرها . وكانت حلوة ، رقيقة ، مستكينة ، تفتن بحلاوتها ورقتها أشد الرجال قوة. ومال فيرا اليها ، واثرت فيه هذه الفتاة التي كانت تبدو كالطفلة ، والتي تبتسم في شيءمن الخوف ،وفي ذلك الخضوع والاستسلام المعروفين عن الخادمات . وكان قد عاش حتى ذلك اليوم بين رجاله الفلاظ، لايدري شيئا عن سحر الجنس الضعيف وفتنته ، فراح يحب وجه مرجريت الصبياني ، ويديها الرقيقتين ، وتزوجها فجأة ، وحملها بين ذراعيه كما لو كانت طفلة صغيرة ، ومضى بها الى بيته .

واحبها حبا جنونيا ، وكانت بالنسبة له ابنته واخته وزوجته . واحب فيها شحوبها وهيئتها العليلة . وكانت من الرقة بحيث لم يكن يجرؤ على أن يلمسها بيديه الخشنتين . ولم يكن قد احب قبل ذلك ابدا ، وعندما كان يبحث في ذكرياته كان الحنان الوحيد الذي يذكره هو حنان أمه المقدس . وقدخيل اليه انه يجد ابتسامة أمه الحلوة في ابتسامة مرجريت ، فقد كانت لها نفس الابتسامة الرقيقة الهادئة الحافلة بالحنان والطيبة . ومنذ الأيام الأولى جعل من مرجريت معبودته ومليكته ... وراحت تحكم في بيته كالملكة ، ووضعت فيه عطرا من الأناقة والرفاهية جعل من البيت البورجوازي البارد الذي بناه الصانع السابق خلوة جميلة عطرة بدفئها الحب . ومضت سنة أهمل فيرا فيها المصنع ، وأولى كل اهتمامه لمحبوبته الضعيفة . وكان الشيء الوحيد الذي يفتنه فيها ويؤثر فيه حتى ليستدر منه الدموع هو الامتنان الكبير الذي كانت تبديه نحوه : فان كل نظرة من نظراتها كانت تشكره لما تلقاه من هناء وترف عنده. وبقيت متواضعة في سيطرتها عليه ، واحبته كما لو كان مولاها وسيدها ، كامرأة لا تدري كيف تسدد بكل حنانها دين سعادتها .

وكانت قد تزوجت دون ان تنظر الى وجه فيرا الملوح ودون ان تفكر فى سنيه الأربعين ، لايدفعها الى ذلك غير صداقة بنوية تقريبا . كانت قد أدركت ان هذا الرجل طيب العنصر ، وكانت أحيانا تقول له : « اننى أحبك لأنك قوى ، ولأنك لا تزدرى ضعفى . أحبك لأننى لم اك شيئا وجعلت منى زوجتك » وكان فيرا حين يسمعها تتمتم بهذه الكلمات ، يضمها الى صدره بفرح لا يوصف .

وبعد سنة من الزواج أصبحت مرجريت حاملا . وكان حملها مؤلما ، وقبل الأزمة ببضعة أيام قال له الطبيب الذى يشرف على علاجها انه غير مطمئن لحالتها ، فقد كانت من الرقة والضعف بحيث خشى على حياتها من مشاق الوضع . وجن جنون فيرا لمدة أسبوع كامل ... كان يبتسم لزوجته ، وكانت قد استلقت فى مقعد مستطيل ، ولكنه كان يمضى لينتحب فى الشارع . وقضى لياليه فى المصنع المقفر ، لايأتى الا لكى يسأل عن الانباء من ساعة لأخرى. وأحيانا ، عندما يشتد به القلق ، ولايستطيع ان يتنفس ، كان يأخذ مطرقته ، ويهوى بها فوق السندان فى غضب لكى يخفف مما به . وجاءت اللحظة الرهيبة أخيرا ، وتحققت مخاوف الطبيب، فماتت مرجريت وهى تضع طفلة .

وكان حزن فيرا فظيعا ومبرحا ، ولم يستطع ان يجد دمعة واحدة . وعندما ووريت المرأة المسكينة التراب ، اعتكف عن الجميع وراح يجتر آلامه فى اكتئاب كبير . وكانت تستولى عليه أزمات من الجنون الأعمى ، ويمضى لياليه فى أعماق مصانعه السوداء الصامتة، ويمشى حتى الصباح ، بين الآلات الساكنة والحديد المتراكم . وشيئا فشيئا سببت له هذه الآلات غضبا وحنقا شديدين ، فقد قهر البؤس والفاقة ولكنه لم يستطع أن يقهر الموت .. قضى عشرين سنة يلوى الحديد بيديه ولكن يديه بقيتا عاجزتين أمام الحبيبة العزيزة ، وكان يصيح ويقول : اننى جبان اذن ، وضعيف كالطفل . لو كنت قويا لما انتزعها الموت منى .

ومضى شهر دون أن يستطيع أحد أن يقترب منه لكى ينسيه آلامه . ولكن ذات يوم جاءته المرضع التى ترضع الوليدة ، والقت بالطفلة بين ذراعيه ، وكان فيرا قد نسى ان له ابنة ، واذ رأى هذه المخلوقة الصغيرة بكى أخيرا ... بكى أحر بكاء . وخففت الدموع من آلامه . وحدق فى مادلين طويلا وقال :

ــ انها ضعيفة ورقيقة كأمها . وستموت مثلها .

وخفت أحزانه عندئذ ، وعود نفسه على الاعتقاد بأن مرجريت لم تمت تماما . وكان قد أحب زوجته كما لو كان أبا لها ، واستطاع وهو يحب ابنته أن يخدع نفسه ، ويوهم قلبه بأنه لم يفقد شيئا. وكانت الطفلة ضعيفة جدا ، وبدا كأنها أخذت وجهها من أمها . واحس فيرا بفرح كبير وهو يرى ان الطفلة لم ترث عنه شيئا من قوته ، واستطاع ان يتوهم بهذه الصورة بأنها جاءته كلها من تلك التي ماتت . وعندما كان ينططها فوق ركبتيه ، كان يفكر في جنون أن زوجته ماتت لكي تغدو طفلة ، ولكي يحبها بحنو جديد .

وأثناء السنتين الأولتين من حياتهما بقيت الطفلة هزيلة ، وكانت بين الحياة والموت . وكان في عينيها ظل غامض نادرا ماكانت الابتسامة لتضيؤه ، كما لو كانت تعرف انها تسببت في وفاة أمها . واحبها أبوها أكثر بسبب الآلام التي تشعر بها . وكان ضعفها بالذات خير واق لهـا ، فان الأمراض لم يكن لها أى تأثير على جسدها الرقيق النحيل . وحكم الأطباء عليها بالموت ، ولكنها تحدتهم جميعا وعاشت كما يعيش آخر وميض للذبالة التي تحتضر ولا تريد أن تموت أبدا . ولكنها ما أن بلغت سنتها الثانية حتى دبت فيهـا الحياة فجأة واختفى الحداد من عينيها وصعد الدم الى شفتيها ووجنتيها ، وبدت كما لو قد عادت الى الحياة .

وكانت حتى ذلك الوقت اشبه بالميتة الصغيرة ، بيضاء ساكتة ، لا تعرف الضحك ولا اللعب ، ولكنها عندما استطاعت الوقوف على ساقيها بعد أن اشتدتا وقويتا ، ملأت البيت بثرثرتها وصراخها وخطواتها المهتزة المترنحة . وكان أبوها يناديها ويبسط لها ذراعيه فتجرى اليه وترتمى بينهما ، متأرجحة ، مترددة ، كما يفعل كل طفل في سنها . وكان فيرا يلهو مع ابنته ساعات طويلة ، ويصطحبها الى مصانعه ، وسط هدير الآلات وصخبها ، وهو يقول انه يريد أن تشب وتنمو ، شجاعة كما لو كانت ولدا .

وكبرت . وراح فيرا يفكر في أمرها . كان قد عاد لادارة مصانعه وهو مصمم على جمع الملايين ، فقد كان يريد أن يضع ثروة كبيرة عند قدمى معبودته العزيزة الصغيرة . واندفع في المضاربات الجسيمة ، غير مكتف ولا قانع بأرباح مصانعه ، مجازفا بثروته ليضاعفها ، ولكن أسعار الحديد هبطت فجأة فأفلسته .

وكانت مادلين في السادسة من عمرها عندئذ . وأبدى فيرا نشاطا عجيبا ، فلم ينهار تحت وطأة الضربة القاضية التي أصابته . وبتلك

النظرة السريعة الحكيمة التى اشتهر بها ، قدر ان ابنته صغيرة وان الوقت لايزال أمامه لـكى يجمع لها بائنة محترمة . ولكنه أدرك انه ليس فى مقدوره أن يبدأ عمله العملاق فى فرنسا من جديد ، وانه لابد له من الهجرة الى بلد آخر . فعقد النية على الرحيل الى أمريكا ، وعلى أن تنتظره مادلين فى مدرسة داخلية .

وجمع كل ما تبقى من ثروته ، واستطاع أن يوقف للطفلة دخلا قدره ألفان من الفرنكات ، حتى اذا اتفق ووقع له حادث تجد نفسها فى منأى من غائلة الأيام . أما هو فرحل وفى جيبه مائة فرنك ، وفى عشية اليوم الذى رحل فيه مضى بمادلين الى أحد مواطنيه ويدعى لوبريكون ، وأوصاه خيرا بابنته . وكان لوبريكون هذا قد قدم الى باريس فى نفس الوقت معه واتخذ من الثياب القديمة تجارة له وجنى منها ثروة كبيرة . وكان فيرا يوليه كل ثقته .

وقال لمادلين انه سيعود اليها فى المساء ، ثم ضمها بين ذراعيه المرتعشتين وخرج وهو يترنح ، كالرجل المخمور. وعانق لوبريكون فى الفرفة المجاورة وهو يقول له فى صوت مختنق :

ـ اذا دهمنى الموت فكن أبا لها .

ولكنه لم يبلغ أمريكا ، فان السفينة التي استقلها فاجأتها عاصفة عاتية ردتها الى شواطىء فرنسا حيث تحطمت ، ولم تعلم مادلين بوفاة أبيها الا بعد وقت طويل .

وفى صباح اليوم التالى لرحيل فيرا ، مضي لوبريكون بالطفلة الى مدرسة داخلية فى تيرن ، تتمتع بسمعة طيبة . وكانت الالفا فرنك تكفي عن سعة بنفقات المدرسة ، ولم يشق على تاجر الثياب أن يتخلص من طفلة كان مرحها الصاخب جديرا باقلاق راحته وازعاجه

وكانت المدرسة تقع وسط حدائق فسيحة وتعتبر خلوة مريحة، وكانت السيدات اللاتى يدرنها لايقبلن الا عددا قليلا من البنات ويتقاضين نفقات مرتفعة جدا فى حرصهن على الا يلتحق بهن الا بنات الأثرياء من الطبقة الأرستقراطية. وكن يهتممن بتعليمهن أصول الأتيكيت وآداب السلوك أكثر من اهتمامهن بتعليمهن أصول النحو واللغة ، وتتخرج البنت من مدرستهن وهى على جهل تام بكل ما له صلة بالعلوم واللغات ولكن على دراية تامة بكل ما تحتاجه المرأة الباريسية من أسلحة الحب وأساليب الغزل والدلال والغنج .

واحست مادلين بالضيق فى مثل هذا الوسط ، فقد كانت تفتقر الى الخفة والرشاقة ، وكانت تميل الى اللهو والصخب .

وكانت أن تعلمت على أيدى صديقاتها الصغيرات كيف تكون امراة. وفى الأيام الأولى لم ترق حركاتها وضحكاتها الصاخبة لهؤلاء البنات اللاتى لم تتجاوز أعمارهن العاشرة واللاتى يحرصن على اناقتهن مع ذلك الى حد كبير . كن لايلعبن الا فيما ندر ويتمشين فى الحديقة كالفتيات الكبيرات . وعرفت مادلين منهن أشياء كانت على أتم الجهل بها . وقد سمعت بعضهن فى نواح مختلفة من الحديقة يتحدثن عن الرجال . واشتركت فى هذه الأحاديث مدفوعة بفضول المرأة المضطرمة التى تستيقظ فى أعماق الطفلة. وعرفت بهذه الطريقة أسرار الحياة قبل الأوان . واسوأ ما فى الأمر ان هؤلاء البنات ، فى ايمانهن بأنهن يعرفن كل شيء كانت احـاديثهن لا تخرج عن الأوهام . وكانت كل منهن تتمنى ان يكون لها عشيق ، وتتحدث مع الأخريات عن أحلامها ومشاعرها نحو الشاب الذى التقت به فى اجازتها الأخيرة ، وتقرأ كل منهن للأخريات خطاب الحب الذى سطرته أثناء حصة اللغة الانجليزية ، ولا تخفى احداهن عن الأخرى أملها فى ان يأتى أمير أحلامها ويخطفها فى احدى الليالى . ولم يكن هناك اى خطر عليهن من مثل هذه الأحاديث لما هن عليه من خبث ومرونة . ولكن كان لها أثر آخر على مادلين ، فقد ورثت عن أبيها حزمه وصلابته ، وحاولت ، بمجرد أن بدأت تفهم الحياة ، ان تبني لنفسها فكرة نهائية عنها طبقا لما تراه وتسمعه فى المدرسة الداخلية . واستنتجت من احاديث زميلاتها وثرثرتهن انه لابأس من ان تحب رجلا ، وانه فى مقدورها ان تحب أول رجل تلتقى به .

وكانت مادلين بسيطة وعملية فى أفكارها دائما فتصورت ان فى مقدور المرأة ان تلتقى بعشيق لها فى الشارع وان تتأبط ذراعه بكل بساطة وتمضى معه الى بيته . ولم تزعجها هذه الأفكار أبدا ، فقد كانت باردة الطباع ، تتحدث عن الحب مع صديقاتها كما لو كانت تتحدث عن ثيابها . وكانت تكتفى بأن تقول : اذا حدث وأحببت رجلا فسوف أفعل كما تفعل بلانش . سأكتب اليه خطابات غرامية طويلة ، وسأحاول ارغامه على اختطافى . وكانت تراودها فى أحلامها هذه فكرة مقاومة وقتال كانت تستلب منها اللب . وكان يحلو لها ان تستمتع بها ولكنها ، فيما بعد ، وبعد ان عرفت مخازى الحياة وعارها راحت تبتسم فى حزن وهى تتذكر منطقها وهى فتاة .

وكان من الممكن لفتاة هذا طبعها ان تكون قوية الارادة الى حد بعيد ، ولكنها ، لسوء الحظ ، لم تجد من ينمى فيها الخصال

الطيبة والأخلاق الحميدة ، وهي لم تكن تريد شيئا الا اتباع طريق سهل سوى ، وكانت تميل الى الهدوء والى كل ماهو قوى وجميل. وكان يكفي تسليحها ضد ساعات الضعف التي تعتريها ، وان تشفى من رعشة الجارية العاشقة التى بثتها امها فى أعماقها . ولكنها على العكس من ذلك ، تلقت تربية ضاعفت من هذه الرعشة. كانت تبدو كولد طيب الخلق يحب اللهو والصخب . ولكنهم اكتفوا بان ارادوا أن يجعلوا منها فتاة صغيرة مخادعة ، واذا كانوا لم يفلحوا فى ذلك فذلك لأن طبيعتها أبت أن تنحنى لما يريدون ، وان تمتثل للتحيات الخفيفة الظريفة واحناءات الراس المصحوبة بالغنج والدلال واكاذيب الوجه والقلب . ولكنها شبت ، مع ذلك ، وسط البنات المدللات ، فى جو مشبع بعطور المخدع المثيرة للأعصاب . ثم ان الكلمات المعسولة التي كانت تسمعها من مدرساتها اللاتى صدرت اليهن التعليمات بأن يكن خادمات طائعات لتلميذاتهن ووصيفات لهذا الحشد من الوريثات ، أضعفت ارادتها ، فقد كانت تسمع كل يوم من تقول لها : لا تفكرى... وتخلى عن كل قوة ... تعلمى ان تكونى ضعيفة فأنت هنا من أجل ذلك ، وهكذا فقدت شيئا من اصرارها وعنادها دون أن تتمكن من أن تسن لنفسها طريقا .

وكان لحياة العزلة التى تحياها أن زادتها اغراقا فى آرائها الكاذبة التى كونتها عن الدنيا . وكان لوبريكون الذى وضعت تحت وصايته لايذهب لزيارتها الا فيما ندر ، وكان يكتفى عندئذ بأن يربت بيده على وجنتها وهو يوصيها بأن تكون عاقلة . ولو ان أمها على قيد الحياة لأطلعتها على أخطائها . وشبت وحيدة ، لا تتلقى أى نصح أو ارشاد ولا تصغى الى النصائح الأجنبية الا فى شيء من الشك. وكانت أقل التصرفات الصبيانية تغدو خطيرة بالنسبة لها ، لأنها كانت تتقبلها على انها القاعدة الوحيدة للتصرفات المستطاعة. كانت زميلاتها يمضين الى منازلهن يوم الآحاد ويتعلمن من أهلهن شيئا عن الحياة . أما هى فكانت تبقى فى المدرسة أثناء ذلك وتقنع نفسها اكثر فأكثر بصحة أخطائها . بل كانت تقضى اجازاتها حبيسة وأسيرة أفكارها . وكان لوبريكون يخشى صخبها فكان يبقيها بعيدا عنه . ومضت تسع سنوات على هذه الحال ، وبلغت مادلين الخامسة عشرة من عمرها وأصبحت امرأة تقريبا ، واحتفظت فى ذهنها بأثر لايمحى عن الأحلام التى كبرت وترعرعت فيها .

وببلوغ مادلين الخامسة عشرة من عمرها ، كان لوبريكون يذهب

لرؤيتها عندئذ كل يوم تقريبا ، وقد سألها ذات مرة ان كان يسرها ان تغادر المدرسة الداخلية . ولم تكن تتعجل الدخول الى المجهول ، ولكنها كانت قد كبرت وكرهت صوت مدرساتها المعسول والرقة التي تبديها زميلاتها ، فأجابت لوبريكون بأنها على استعداد لأن تتبعه . وفي ذلك اليوم نامت في بيت صغير يملكه صديق أبيها .

وكان تاجر الثياب القديمة يحتضن مشروعا منذ بعض الوقت . كان قد اعتزل التجارة وهو في سن الستين ، بعد أن قضى ثلاثين سنة وهو يقتر في معيشته ، ويعيش عيشة الكفاف ، حارما نفسه من النساء لكي ينمي ثروته . وكان يحب العمل ، شأنه في ذلك شأن فيرا ، ولكنه كان يجمع المال لأجل ملذاته المقبلة ، وكان ينوى ان يشبع شهيته كل الشبع بعد إن يثرى . والآن ، وقد جاءته الثروة فقد ألحق بخدمته طاهية ممتازة ، واشترى بيتا جميلا به حديقة ، وعقد النية على أن يتزوج ابنة صديقه القديم .

ولم تكن مادلين تملك ثروة ما ، ولكنها كانت طويلة القامة ، متينة البنيان ، ذات صدر ناهد ، من تلك الصدور التى يفتتن لوبريكون بها ، على انه لم يعقد نيته هذه الا بعد تفكير طويل ، فقد كانت الفتاة لاتزال صغيرة . وقال لنفسه انه يستطيع ان يربيها وفق هواه ، وان يتركها تنضج بما فيه الكفاية تحت سقف بيته ، وبذلك يستمتع مسبقا بمنظر جمالها المزدهر . ثم انها ستكون عذراء في كل شيء ، وسيستطيع أن يكيفها كما يريد . وكان يشعر بلذة كبيرة وهو يعد الفتاة في ذهنه لكي تكون زوجة له ، ولا عجب فقد حرم نفسه من النساء كل هذه السنوات الطويلة .

وعاشت مادلين في هدوء وسلام أربع سنوات ، في بيت الرجل بباريس . ولم يكن الأمر بالنسبة لها أكثر من انها انتقلت من سجن لآخر . ولكنها لم تشك ابدا في رقابة وصيها الدائمة ، ولم تشعر بأية رغبة في الخروج . وكانت تقضى كل أوقاتها في التطريز دون أن تشعر بذلك الملل الذى تشعر به من هن في مثل سنها . واخذت مشاعرها تستيقظ متأخرة . ثم ان لوبريكون كان يوليها كل عنايته . وكان يأخذ يديها الرقيقتين بين يديه أحيانا ، ويطبع على جبينها قبلة بشفتيه المحمومتين . وكانت تتقبل هذه الملاطفات بابتسامة هادئة . ولا تفطن الى نظرات الشيخ الغريبة وهى تخلع خمارها أمامه ، كما لو كانت تفعل أمام أبيها .

وكانت قد بلغت التاسعة عشرة من عمرها حين نسى التاجر القديم

نفسه وقبلها فى شفتيها . واقصته عنها بحركة غريزية ، وقد ثارت نفسها ، وحدقت فيه وهى لا تفهم الأمر بعد . ولـكن الشيخ ركع على ركبتيه وراح يتمتم بكلمات محمومة مخجلة . لم يستطع ذلك الشيخ التعس الذى تهزه رغبته المضطربة منذ شهور طويلة أن يقوم بدوره كوصي نزيه حتى النهـاية . ولعـل مادلين كانت ترضى ان تتزوجه لو انه لم يغتصبها هكذا . وانسحبت فى هدوء وهى تقول فى صوت واضح انها ستترك البيت فى صباح اليوم التالى .

واذا ألفى لوبريكون نفسه وحده ، أدرك الغلطة الـكبيرة التىأقدم عليها . وكان يعرف مادلين ، ويعرف انها ستفعل كما قالت ففقد عقله ، ولم يفكر الا فى اشباع رغبته . وقال لنفسه ان اكراها كبيرا قد يحطم الفتاة ويلقيها بين ذراعيه مقهورة مغلوبة علىأمرها ، فصعد الى غرفتها فى نحو منتصف الليل . وكان قد احتفظ بمفتاح لها معه وكثيرا ماجاء فى الليالى الحارة وتسلل الى الغرفة لـكى ينظر الى الفتاة وهى نائمة شبه عارية .

واستيقظت مادلين فجأة وهى تحس باحساس غريب محموم . ولم تكن قد أطفأت سراج الليل ، فرأت لوبريكون متمددا بجوارها، يحاول أن يضمها اليه رأت الشيخ شاحبا زائغا وهو لا يرتدى غير القميص أحست بقرف كبير لأنه لمس جسدها بجسده ، وخيل لها أنها لم تعد عذراء . فأمسكته من عنقه بكلتا يديها بكل قواها ، ودفعته عنها بعنف بحيث ارتطمت رأسه بالجدار ووقع مغمى عليه .

أسرعت الفتـاة بارتداء ثيابهـا وغادرت البيت ، وهبطت الى السين . وبينما كانت تمشي على الشاطىءسمعتالساعةتدقالواحدة. وأخذت تمشي وهى تقول لنفسها انها ستظل تمشى هكذا حتى يطلع النهار ثم تبحث عن غرفة بعد ذلك . وكانت قد هدأت ولم تعد تشعر الا بحزن عميق ، وكانت تدور برأسها فكرة واحدة وهى ان الشهوة شيء معيب وانها لن تحب أبدا ، وكانت لاتزال ترى ساقى الشيخ الهزيلتين الضاربتين الى البياض .

وعندما بلغت جسر بومدنوف دلفت الى شـارع دوفين لـكى تتفادى جماعة من الطلبة كانوا يتسكعون. وظلت تمشي وهى لاتدرى اين تقودها قدماها . ولم تلبث ان فطنت الى ان رجلا يتعقبها ، وأرادت ان تهرب ، ولـكن الرجل جرى بدوره ولحق بها . وتحولت اليه عندئذ وروت له قصتها فى بضع كلمات بصراحتها التى جبلت عليها . وقدم لها هذا الأخيرذراعه وهو ينصحها ان تقبلضيافته.

وكان شابا طويل القامة مرح المظهر وسيم الوجه . ونظرت مادلين اليه فى صمت فاحصة ، ثم قبلت ذراعه فى هدوء وقد ركنت اليه.

وكان الشاب يقيم فى غرفة فى فندق بشارع سوفلو . وعرض عليها ان تنام فى الفراش قائلا انه سينام فوق الاريكة . وراحت مادلين تفكر، وأخذت تردد البصر حولها فى الفرفة التى يقيم فيها الشاب . رأت فيها بعض السيوف والفلايين . وراحت تتابعه بعينيها . وراح هو يعاملها فى الفة وود كما لو كانت زميلة له منذ وقت طويل. ورأت قفاز امرأة فوق المنضدة ، ولكنه طمأنها ضاحكا واكد لها ان ما من امرأة ستأتى لازعاجها ، وانه لو كان متزوجا حقا لما لاحقها فى الشارع . واصطبغ وجهها .

وفى صباح اليوم التالى استيقظت بين ذراعيه . وكانت قد ارتمت بينهما من تلقاء نفسها دون أى تردد وبدون اى سبب . وما أبت أن تمنحه للوبريكون فى تمرد عنيف بذلته لرجل غريب بعد ساعتين. ولم تشعر بأى ندم...كل ما احست به لم يزد عن دهشة لاكثر.

وعندما علم عشيقها ان قصة الأمس لم تبعد عن الحقيقة عرته الدهشة ، فقد خيل اليه انه التقى بفتاة ماهرة تكذب لكى يشتهيها أكثر ، وحسب أن كل الاعداد الذى سبق النوم أعدته مسبقا ولولا ذلك لما تصرف بذلك الطيش ، ولفكر فى العواقب الخطيرة لمثل هذه العلاقة . وكان شابا شهما ، لا يرفض اللهو ولكنه يخاف كل الخوف من العلاقات الجدية . وكان يغوى استضافة الفتاة أثناء الليل على أن تنصرف فى صباح اليوم التالى ، وقد أحزنه سوء التفاهم الذى وقع فيه أشد الحزن .

وقال لها فى صوت يتهدج من الانفعال : أى فتاتى المسكينة ، اننا ارتكبنا غلطة كبيرة فاغفرى لى وانسينى ، فاننى يجب ان اغادر فرنسا بعد بضعة اسابيع ، ولا ادرى متى أعود .

تلقت الفتاة هذا النبأ فى هدوء كبير ،والواقع انها لم تشعر بأى حب نحو الشاب ابدا . كانت علاقتهما مجرد مغامرة بالنسبة له وحادثة لم تستطع أن تتقيها بسبب جهلها . وما كان رحيل عشيقها الوشك الا ليحطم قلبها ، ولكن فكرة الفراق العاجل احزنتها كل الحزن ، فقد اعتبرت نفسها فى شىء من الغموض زوجة الملك الشاب وقالت لنفسها انها لاتستطيع ان تهجره هكذا . وراحت تدور بضع لحظات فى الفرفة ساهمة ، حالمة ، بحثا عن ثيابها ثم عادت فجلست على حافة الفراش وقالت فى تردد :

ـ اسمع ، دعنى أقيم معك طوال بقائك فى باريس... فان ذلك يكون أوفق .

وكانت عبارتها الأخيرة من السذاجة بحيث أحدثت اثرها فى قلب الشاب وأدرك مبلغ الشقاء الدائم الذى الحقه بحياة هذه الطفلة الكبيرة التى بذلت له نفسها بكل هدوء واطمئنان . وأخذها الى صدره وهو يقول لها انها فى بيتها .

وفى ذلك اليوم ذهبت مادلين لكى تأتى بحوائجها . ودار بينها وبين وصيها حديث فرضت اثناءه ارادتها عليه بكل قسوة . وخشى الشيخ الفضيحة ثم انه كان لايزال يعانى من معركة الأمس وقد وقف يرتجف أمامها وحملته على ان يعدها الا يحاول رؤيتها بعد اليوم . وأخذت الأسهم التى تدر عليها الألفى فرنك كل عام وهى تشعر بكبرياء لأنها ستتيح لها البقاء مع عشيقها دون أن تبيع نفسها .

وفى المساء نفسه كانت تقوم بالتطريز فى غرفة شارع سوفلو تماما كما لو كانت تطرز فى بيت وصيها ، ولم تشعر بأن حياتها قد أصابها أى تغيير ، ولم تر فى عملها هذا ما يدعو الى الخجل ، فان احساسها بالاستقلال وصراحتها لم يجعلاها تشعر بأنها اخطأت ... انها وهبت نفسها بمطلق حريتها ، وما كانت لتدرى عندئذ العواقب الوخيمة التى سيجرها عليها عملها هذا ، فما كانت لتستطيع ان تخمن ما يخبئه لها المستقبل .

كان عشيقها لايشعر باحترام كبير نحو النساء . وكان رجلا قويا طيب القلب ، يستمتع بأطايب الحياة وملذاتها . وسرعان مانسى تبكيت ضميره ، ولم يعد يهتم بمصير مادلين . ولم يلبث أن أحبها بطريقته ، فقد رآها جميلة ، وراح يقدمها لأصدقائه ، ويعاملها كعشيقة له ، ويصطحبها أيام الآحاد الى فريير أو الى أى مكان آخر، ويدعوها الى العشاء مع أصدقائه خلال الأسبوع ، وتقبلها هؤلاء الأصدقاء ، واخذوا يعاملونها كما لو كانت زوجته .

ولعلها كانت تثور وتتمرد لو ان عشيقها لم يكن ظريفا معها . ولكنه كان مرحا بطبيعته ، وكان يثير ضحكها كما لو كان طفلا ، حتى من الأشياء التى تجرحها ، وشيئا فشيئا رضيت بمصيرها ، وتدنس ذهنها على غير وعى منها ، واعتادت على العار .

وكان الشاب قد تخرج حديثا ، وعين جراحا فى الجيش ، قبل التقائهما بيوم واحد . وكان ينتظر من يوم لآخر الأمر بالرحيل ، ولكن تأخر صدور هذا الأمر ، وتتابعت الشهور ومادلين تقول

لنفسها انها قد تعود أرملة فى اليوم التالى . ولم تكن تأمل البقاء فى شارع سوفلو أكثر من بضعة أسابيع ، ولـكنها أقامت فيه سنة . وكانت فى الأيام الأولى تشعر بمجرد صداقة الرجل الذى تعيش معه ، ولـكن بعد انقضاء شهرين أخذت تعيش فى قلق مستمر فى انتظار رحيله . وعانت فى حياتها هزات كثيرة جعلتها تتعلق به . ولو انه كان قد رحل لفوره لما احست بأى حزن أو يأس ، ولـكن الخوف من ان تفقده كل يوم ، والا تجده أمامها فجأة جعلها تزداد تعلقا به . ولم تحبه ، ولـكنها تلقت بصمته على جسدها ، واحست بأنه امتلـكها جسدا وروحا ، واصبحت لا تستطيع الاستغناء عنه.

وذات يوم ، رافقت صديقة جديدة لها فى رحلة صغيرة . وكانت هذه الصديقة تدعى لويز، وعشيقة لطالب فى الحقوق، وكانت ذاهبة لـكى تزور طفلا لها عهدت به الي مربية فى قرية صغيرة تبعد عن باريس بنحو عشرين فرسخا . وكان المفروض ألا تعود الصديقتان الا فى اليوم التالى ، ولـكن سوء الحالة الجوية اضطرتهما الى العودة مبكرين . وفى عربة القطار العائد بهما ، راحت مادلين تستعرض فى ذهنها المنظر الذى رأته ، فى شيء من الحزن ... حنان الأم نحو ابنها وعطفها عليه ، وثرثرة الطفل وضحكاته ... كل ذلك كشف لها دنيا من الانفعالات المجهولة . واستولى عليها قلق مفاجيء عندما خطر لها انها هى الأخرى قد تصبح أما . وعندئذ أفزعتها فكرة رحيل الرجل الذى تعيش معه ككارثة كبيرة لم يسبق ان فكرت فيها . ورات زلتها وموقفها الـكاذب الأليم ، وتلهفت على الاسراع بالعودة لكى تضم عشيقها بين ذراعيها وتتوسل اليه الا يتركها ابدا.

وبلغت شارع سوفلو وهى محمومة ، ونسيت الوشيجة الهشة التى تربطها بعشيقها والتى تهدد بالانقطاع والتى رضيت بها ، وارادت ان تمتلك بدورها ذلك الذى يمتلك كل فكرها وحياتها . وعندما فتحت باب غرفة الفندق تسمرت فى غياء على عتبة الباب .

فقد كان عشيقها منحنيا أمام النافذة يحزم احدى الحقائب وبجواره شنطة سفر وحقيبة أخرى كان قد فرغ من حزمها. وكانت ثياب مادلين وحوائجها مكدسة فوق الفراش فى غير ترتيب. وكان الشاب قد تلقى امرا بالرحيل فى نفس اليوم فأسرع بحزم حقائبه ، وكان ينوى ان يرحل قبل مجيء عشيقته مقتنعا بأن ذلك افضل، وانه يكفى أن يترك لها رسالة يخبرها فيها بما حدث .

ولـكنه عندما التفت ورأى المراة الشابة لم يسعه الا ان يبدى

استياءه ، وتقدم اليها وهو يغتصب تنهيدة وقال وهو يعانقها :
ـ اى فتاتي المسكينة . لقد حلت ساعة الوداع . وكنت ارجو أن أرحل دون أن أراك ، فقد كان ذلك يوفر على كل منا منظرا أليما ، وهأنت ذا ترين انني وضعت حوائجك فوق الفراش .

وخارت قواها فجلست فوق مقعده دون أن تفكر فى أن تنضو عنها قبعتها . وكانت شاحبة جدا ولم يسعفها النظر . وراحت عيناها انجافتان المحمومتان تتنقلان من الحقائب الى حوائجها التى فوق الفراش ، ورات فى عزل حوائجه قسوة الفراق وفظاعته ، فلم يعد يضمها دولاب واحد ، ولم تعد هى شيئا حيويا بالنسبة لعشيقها .

وتمكنت من النطق أخيرا فقالت : حسنا .. سأرافقك الى المحطة.

ولم تر لها أى حق فى ان توجه اليه كلمة عتاب واحدة ، فقد سبق ان أنذرها ، وهى التى أرادت البقاء ، ولكن أحشاءها ثارت ، وأحست برغبة جنونية فى ان تتعلق بعنقه وأن تتوسل اليه الا يرحل. ولكن كبرياءها جمدها فى مكانها . أرادت أن تبدو هادئة والا تظهر للشاب الذى راح يصفر فى هدوء الى أى حد يمزق رحيله قلبها .

واقبل بعض الرفاق قبيل المساء وذهبوا جميعا الى المحطة .وكانت مادلين تبتسم . وراح عشيقها يمزح في مرح ، وقد استراح الى ابتسامتها فلم يشعر أبدا من ناحيتها بشيء أكثر من الصداقة . وأحس بالغبطة وهو يراها هادئة ازاء رحيله . ولكنه كان قاسيا رغما عنه عندما دخل غرفة الانتظار فقد قال لها : أى فتاتى ... لن أطلب منك أن تنتظريني ... انسينى وانشدى السلوى .

ورحل . وكانت مادلين قد احتفظت على شفتيها بابتسامة غريبة واليمة ، فخرجت من المحطة وراحت تمشي فى حركات آلية . ولم تحس بالأرض تحت قدميها ، ولم تشعر بأن طالبا ، صديقا للجراح الشاب قد أخذ يدها ورافقها . وكانت تمشي منذ ربع ساعة وهى مذهولة ، لاترى ولا تسمع شيئا ، عندماانتهى الى اذنيها شيء جعلها ترهف السمع . كان الطالب يعرض عليها صراحة ان تعيش معه ، الآن بعد أن أصبحت حرة . وعندما أدركت ما يقول نظرت اليه مرتاعة ثم تخلصت من ذراعه فى اشمئزار ، وراحت تجرى ، واغلقت باب غرفتها فى الفندق ، وهناك راحت تبكي وحدها ماشاء لها البكاء .

بكت من العار واليأس ، فقد أصبحت أرملة . وقد دنس ألم الهجران عرض بدا لها فظيعا ، ولم تفهم بؤس موقفها وقسوته كما فهمته الآن فلم يعترفوا لها حتى بحق البكاء ، وبدوا كانهم يعتقدون

انها استطاعت أن تمسح قبلات عشيقها الأول بكل سهولة . ولـكنها كانت تحس بهذه القبلات في أعمق أعماقها ، وكانت تقول انها ستظل تحرقها الى الأبد . وعندئذ ، وفي وسط دموعها أقسمت ان تظل ارملة ، فقد أدركت معنى خلود روابط الجسد وعرفت ان كل حب جديد سيدفعها الى العهر ، ويلقى بها في ذكريات انتقامية .

ولم تنم في شارع سوفلو وانما ذهبت في نفس الليلة وأقامت في فندق آخر ، وعاشت فيه شهرين وحيدة ، نافرة . ومر بها وقت فكرت فيه أن تدخل الدير، ولـكنها لم تكن قوية الايمان فلم تلبث أن عدلت عن هذا الراى . لتلتقى بجيليوم فى ذلك الوقت .

الفصل الثالث

فيتوى مدينة صغيرة تضم عشرة آلاف نسمة ، وتقع فى حدود نورمانديا . شوارعها نظيفة وهادئة ، وتكاد تكون ميتة ، ومحطتها تقع على بعد خمسة أميال منها ، والوادى ، حول المدينة ، خصب ويمتد فى مراع واسعة ، تقطعها هنا وهناك غابات من الأشجار .

فى هذه البلدة الصغيرة ولد جيليوم لأبيه الكونت دى فيارج ، وهذا الأخير آخر سلالة من نبلاء المدينة ، ولد فى المانيا اثناء الهجرة ، وجاء الى فرنسا مع آل بوربون ، لكى يجد ارض اجداده أرضا غريبة معادية . وكانت أمه قد طردت منها شر طردة ، وهى ترقد الآن فى احدى مقابر برلين . أما أبوه فقد مات فوق المقصلة . ولم يستطع الكونت دى فيارج الا أن يحقد كل الحقد على البلد التى تسببت فى موت أمه والتى ذبحت اباه . وعلى الرغم من انالاصلاح أعاد اليه لقبه واملاكه الا ان ذلك لم يخفف من حدة عدائه لفرنسا الملعونة التى لم يعد يعتبرها وطناله ، واعتكف فى فيتوى ، ودفن نفسه فيها ، ورفض الوظيفة التي قدمها له لويس الثامن عشر ومن بعده شارل العاشر ، لأنه لم يرض ان يدين بأى شيء للشعب الذى قتل ذويه . وكان كثيرا ما يقول انه ليس فرنسيا ، ويدعو الألمان مواطنيه ، ويتحدث عن نفسه كما لو كان منفيا حقيقيا .

كان لايزال شابا عندما عاد الى فرنسا ، وكان طويل القامة ، متين الجسم ، يتميز بنشاط عجيب ، ولم يلبث ان أحس بضجر كبير بسبب الجمود الذى فرضه على نفسه . أراد أن يعيش وحده بعيدا عن كل أحداث العالم ، ولكنه كان متوقد الذكاء ويتمتع بطبع حاد بحيث لاتكفيه ملذات الصيد والقنص ، ولهذا بحث عن وسيلة يشغل بها وقته . وكان شغوفا بالعلوم الى حد كبير ، فأولىاهتمامه للأبحاث الكيماوية ، وكان أمره غريبا حقا ، فقد راح يعمل فى سبيل حبه للعلم ، وحول قاعة الرقص الكبيرة بقصر نوارود الذى ورثه عن أجداده ، والذى يقيم فيه على مسافة خمس دقائق من فيتوى الى معمل كيمائى حديث ، جهزه بجميع المعدات والأجهزة الخاصة بأبحاثه . وأقام فى هذا المعمل أياما بلياليها وهو مكب فوق

اوراقه ، لا يشغله أى شيء آخر .

ولكنه لم يلبث ان حدث شيء هز حياته الهادئة ، فان امراة طائشة ، هى زوجة موثق العقود بالمدينة جاءت وارتمت فى أحضانه ، وكان قد بلغ الأربعين من عمره فى ذلك الوقت . وكان لايزال يعامل جيرانه بكل شدة وصرامة . وابقى الكونت المراة فى القصر واتخذ منها عشيقة له . وكانت فضيحة كبيرة فى المدينة الصغيرة . وكان الأهالى قد اثارتهم تصرفات الكونت الغريبة بحيث أخذوا يشيرون اليه بأصابعهم ، وحين عاش مع زوجة موثق العقود علانية أوشكوا ان يفتكوا به . اما الزوج فكان رجلا مسكينا كان يخشى ان يفقد عمله فالتزم الهدوء طوال السنتين اللتين استمرت فيهما هذه العلاقة . واطبق عينيه واصم اذنيه وبدا كأنه يعتقد ان زوجته تصطاف فى قصر مسيو دى فيارج . وحملت هذه الأخيرة من الكونت، ووضعت طفلها فى القصر بالذات . وبعد بضعة شهور اخرى ملت عشيقها ، وكان قد عاد للاهتمام بمعمله حيث راح يقضى فيه كل اوقاته ، وعادت ذات يوم الى زوجها بعد ان حرصت على ان تنس ابنها ولم يلاحقها الكونت فى حين استردها موثق العقود فى هدوء كما لو كانت قد عادت من رحلة عادية .

اما جيليوم ، ثمرة هذه العلاقة الغريبة فقد تربى فى قصرنواروود، وكان ابوه قد احب عشيقته حبا عابرا يشوبه شيء من الاحتقار، وقد تقبل الطفل الذى جاءه صدفة فى غير اكتراث ، وابقاه بجواره لكى لايتهمه احد بانه يريد اخفاء الدليل على حماقته . ولكنه لم يبد به اى اهتمام ، خاصة وان ذكرى زوجة موثق العقود كانت بغيضة اليه . وشب الطفل فى عزلة تكاد تكون تامة ، ولم تحاول امه ان تراه ، فقد ادركت مبلغ طيشها ، وراحت ترتجف وهى تفكر فى العواقب التى كان يمكن أن تنتج من زلتها هذه . اما الأم الحقيقية لجيليوم ، فكانت امراة عجوزاكانت تقوم بالخدمة فى القصر ، ورات مستر دى فيارج وهو يولد ، فقد كانت اختا لأمه فى الرضاعة ، وكانت هذه الأخيرة قد أصطحبتها معها الى المانيا اثناء الهجرة . وعندما عاد مستر دى فيارج الى فرنسا ، بعد موت امه ، أعادها معه ، واسكنها قصره بفيتوى . وكانت فلاحة بروتستانتية العقيدة شديدة الايمان والتعصب . وكانت طويلة القامة جافة ، ذات عينين غائرتين وأنف ضخم حاد ، وتبدو اشبه باحدى الساحرات اللاتى كانوا يلقون بهن فى النار .

كانت وهي في السبعين ، تقوم بأعمال قوية ضخمة . وكان هناك عدد كبير من الخدم يعملون تحت ادارتها ، ومع ذلك فقد كانت تفخر بأنها تفرض على نفسها أكثر الأعمال غلظة وخشونة . كانت تشرف على كل شيء في نوارود ، فتصحو مع طلوع النهار ، وتقدم للجميع المثل الأعلى للنشاط الذى لا يعرف التعب ولا الكلل ، وتقوم بعملها بغلظة وخشونة المرأة التى لا تعرف للنصب معنى أبدا .

ولكن كان الشيء الوحيد الذى آساها وأحزنها فى حياتها هو شغف سيدها بالعلوم ، وحين رأته يغلق باب معمله على نفسه أياما طويلة ، ويقضيها بين الأجهزة الغريبة حسبته قد أصبح ساحراً . وعندما كانت تمر أمام الباب ، وتسمع صوت المنفاخ كانت تضم يديها لفرط رعبها لاعتقادها بأنه ينفخ فى النار بأنفاسه . وتشجعت ذات يوم ودخلت المعمل ، وأهابت بالكونت ، باسم أمه ، ان ينقذ روحه فيكف عن هذا العمل اللعين . ودفعها مسيو دى فيارج نحو الباب فى هدوء وهو يبتسم ووعدها بأن يتصالح مع ربه يوم ان يموت . وعندئذ راحت تصلى من أجله صباحا ومساء . واعتبرت جنفييف علاقة الكونت بزوجة موثق العقود كأول انذار لغضب الله .

وعندما أقامت تلك المرأة فى القصر استولى على الخادمة العجوز الغضب ، وقالت لسيدها أنها لا تستطيع أن تقيم مع تلك المخلوقة تحت سقف واحد ، وانها ستترك لها البيت . وفعلت كما قالت ، وانتقلت للاقامة فى كشك صغير ملحق بالقصر فى آخر الحديقة . ولم تضع قدمها فى البيت طوال السنتين .

وتركها الكونت تفعل ماتريد ، وزارها مرارا ، ولكنه أوشك ان يغضب ذات مرة ، فقد التقت به المرأة العجوز المتعصبة وهو يتمشى فى الحديقة برفقة عشيقته . ونسيت جنفييف نفسها فصبت جام غضبها على المرأة ، ونعتتها بأقبح الصفات ، واستولى الذعر على زوجة موثق العقود ، ومما لاشك فيه ان احتقار المرأة البروتستانتية المتعصبة ، وغضبها كان لهما أكبر الأثر فى رحيلها المفاجيء .

وما أن عرفت جنفييف ان العار لم يعد يسكن البيت حتى عادت بكل هدوء ، واستردت دورها كسيدة القصر ، ولم تجد غير طفل صغير هو جيليوم ، وكانت حين تفكر فى ذلك الطفل وهى فى الكوخ ، يتملكها رعب مقدس ، فقد كان ابن الخطيئة ، وما كان ليأتى معه الا بالشقاء ، ولعل الله المنتقم قد بعث به لكى يعاقب أباه على معصيته . ولكنها عندما رأت الطفل المسكين فى مهده الأبيض والوردى

تملكها احساس رقيق لم تكن تعرفه ... هذه المرأة التى جف قلبها وجسدها فى عذرية متعصبة مضطرمة احست بعاطفة الأمومة والزوجة التى ترقد فى أعماق كل عذراء ، وحسبت ان الشيطان يريد غوايتها ، وأرادت ان تقاوم الضعف الذى يتملكها ولكنها لم تلبث ان تخلت عن فكرتها هذه ، وقبلت جيليوم وفى نيتها ان تتوسل الى الله أن يصونها من هذا الطفل الملعون :

وشيئا فشيئا أصبحت أما له . ولكنها كانت أما غريبة ، فقد كان حنانها له مشوبا بخوف غامض . كانت تصده عنها أحيانا ، ثم تعود فتضمه الى صدرها بهذه اللذة الفظة الغريبة للأتقياء الذين يحسون ببراثن الشيطان تتغلغل فى أجسادهم .

وما ان تم فطامه حتى استغنت عن المرضعة واولته هى كل اهتمامها. وتركه مسيو دى فيارج لها وسمح لها وهو يبتسم فى سخرية بأن تربيه التربية الدينية التى تروق لها . وربته على المبادىء البروتستانتية على أمل ان تنقذه من النار الخالدة ، وأبقته معها فى مسكنها الذى تقيم به فى الدور الثانى من قصر نوارود .

وكبر جيليوم فى جو من الهوس الدينى ، وتنفس منذ المهد هواء التعصب البروتستانتى والورع الرهيب الذى تشيعه جنفييف حولها، فلم يك يرى حين يصحو من نومه الا وجهها المضطرم الصامت ، ولم يك يسمع غير صوتها الحاد وهى تردد احد مزامير التوبة السابعة بلهجتها الكئيبة قبل ان ينام ، وحطمه حنان أمه بالتبنى ، وكانت تضمه اليها اعتباطا حتى لتكاد ان تخنقه وهى تذرف دموعا كانت تثيره وتسبب له أزمات من الحنان المرضى . وكان لابد له من ان يكتسب حساسية امراة وان تغدو أعصابه من الرقة بحيث تغير اقل آلامه الصبيانية الى عذاب حقيقى . وكان يبكى ساعات طويلة بدون غضب كما لو كان شخصا كبيرا .

وعندما بلغ السابعة من عمره علمته جنفييف الحروف من كتاب التوراة الضخم . وقد تسبب هذا الكتاب الكبير فى رعبه...كان الطفل شديد الحساسية ، متوقد الذكاء ، وكان يعيش فى خوف دائم وهو يرى نفسه حبيسا مع المراة المتعصبة التى لاتنفك تحدثه عن الشيطان وعن الجحيم وعن غضب الله . وكانت جنفييف تكرر له كل صباح بصوتها الحاد الذى يتغلغل فى كيانه كالخناجر الحادة ان الدنيا مكان مشين للهلاك الأبدى ، وان من الأفضل له أن يموت من

في أن يرى ضوء الشمس ، وكانت تظن انها بدروسها هذه تنقذه من الشيطان .

وقصر نوارود عبارة عن مبنى كبير مربع من ثلاثة ادوار. وهو بيت دميم اسود يشبه الاصلاحية كثيرا . وقد أهمله مسيو دى فيارج بحيث أخذ يتحول الى اطلال . ولم يكن هو نفسه يشغل منه غير جزء صغير ... جناح بالدور الأول ، وقاعة الرقص التى حولها الى معمل له بالدور الأرضي وقاعة الطعام وغرفة الصالون . اما الغرف الأخرى فكانت مهجورة عدا الغرف التى تشغلها جنفييف وباقى الخدم.

وكان جيليوم حين يجتاز الممرات الهادئة المظلمة التى يزخر بها قصر نوارود يشعر بخوف خفى . كان يسرع الخطا أمام الغرف المهجورة وقد امتلأ ذهنه بالأفكار الرهيبة التى تبثها جنفييف فى رأسه.

وكان يلتقى أحيانا بأبيه ، فكان منظره يجعله يرتجف ، وحتى سن الخامسة لم يكن قد رآها كثيرا ، ولكنه التقى به ، ذات يوم ، وهو يهبط الى الحديقة ، وكان الصبى يمشي ويده فى يد جنفييف ، ودهش الكونت اذ رآه قد كبر. وتوقف الأب فى شيء من الانفعال ، لأول مرة. وأخذ ابنه ورفعه حتى مستوى وجهه ، ونظر اليه مليا ، وكان جيليوم يشبه أم الكونت بصورة غريبة ، وأحدث هذا الشبه اثره فى نفس الرجل ، فطبع قبلة على جبين الطفل الذى كان يرتجف .

ومنذ ذلك اليوم ، كان لايلتقى بابنه الا ويقبله . وأحبه على طريقته ، بقدر ما كان يمكنه ان يحب . ولكنه كان باردا فى عواطفه ، والقبلة السريعة التى كان يطبعها على جبينه لم تكن تكفى لاكتساب قلب الطفل ، وكان جيليوم يشعر بسعادة كبيرة اذا استطاع ان يتفادى لقاء الكونت دون ان يدرى هذا الأخير ، فقد كان الكونت يثير خوفه أكثر من احساسه بالحب من نحوه ، وكان المسيو دى فيارج قد أصدر أوامره لجنفييف على أن تربى الطفل على انه ابنه علانية ، فكانت تتكلم عنه مع جيليوم على انه السيد المهول القادر على كل شيء ، وكانت كلمة « أب » لا توقظ فى ذهن الغلام الا الرعب .

وعاش جيليوم على هذه الصورة أعوامه الثمانية الأولى ، يدفعه كل شيء الى الضعف والليونة : تربية العجوز البروتستانتية الغريبة ، والخوف الذى كان يبعثه الكونت فى نفسه . وعندما بلغ الثامنة من عمره ، أدخله مسيو دى فيارج مدرسة فيتوى الداخلية ، ولا ريب انه رأى الطريقة القاسية التى تربيه جنفييف بها فأراد أن ينقذه من سيطرة هذه المرأة المختلة العقل . وبدأ جيليوم يتمرن فى المدرسة

على صروف الحياة فى العذاب والآلام ، وكان لابد من أن تصاب مشاعره بجرح فى كل خطوة .

كانت السنوات التى قضاها ، المدرسة عبارة عن عذاب طويل ، عذاب روح يتحمله وهو لا يعرف ما هى الجريمة التى ارتكبها ، فان أهالى فيتوى كانوا يكنون نحو مسيو دى فيارج حقدا شديدا سببه الغيرة والاحتشام المتطرف ، ولم يغفروا له ثراءه الفاحش وتصرفه وفق هواه ، وكانت أحاديثهم واغتياباتهم تدور كلها حول الفضيحة التى أحاطت بمولد جيليوم . وعلى الرغم من انهم كانوا يحيون الكونت فى خشوع واحترام ظاهرين فانهم راحوا ينتقمون من احتقاره لهم وعدم اكتراثه بهم فى شخص الطفل المسكين الضعيف مدركين ان فى مقدورهم تحطيم قلبه دون ما خوف أو خطر. وكان أطفال القرية الذين يبلغون الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من أعمارهم يعرفون قصة الطفل لأنهم طالما سمعوها من أهاليهم ، فقد كان هؤلاء لا يتحدثون عن الوالد الا وينعتونه بابن الزنا ، بحيث رأى الأولاد ان من الطبيعى أن يضربوا الطفل المفضوح عندما وجدوه زميلا لهم .

ومنذ الفترة الأولى من فترات الاستراحة أحس جيليوم بسخرية زملائه الجدد ، وأدرك انه بين أعداء . واقترب منه غلامان كبيران بلغ كل منهما الخامسة عشرة من عمره وسألوه عن اسمه . وعندما أجابهما فى تردد وخجل ان اسمه جيليوم ضحك الجميع ساخرين ، وصاح به أحدهم يقول بين هتاف الآخرين وضحكاتهم :

ــ انما اسمك ابن الزنا ، فهل تفهم ؟

وأصبح الأمر عادة عندهم ، فما ان تأتى فترة الاستراحة حتى تتوالى عليه الضربات ويدعونه بابن الزنا ، فيصعد الدم الى وجنتيه دون أن يدرى لذلك سببا . وجعله خوفه من الضرب جبانا ، وعاش فى الزوايا ، لا يجرؤ على الحركة كالمنبوذ لايحاول أن يفكر أو يثور . واتحد أساتذته مع زملائه سرا ، فقد رأوا من الحكمة مشاركة أبناء كبار فيتوى ولاحقوا الطفل بجزاءاتهم ، وهم يتذوقون لذة شريرة فى تعذيب مخلوق ضعيف . واستسلم جيليوم للأمر الواقع ، واصبح تلميذا مكروها ، وبلد الضرب والسباب والعقوبات ذهنه ، واصبح بطيئا ، عليلا ، غبيا ، وراح يبكى ليالى طويلة فى فراشه .

وتعذب بقدر ما كان بحاجة الى الحب ، خصوصا وانه كان لا يجد حوله غير الكراهية والحقد . وكانت حساسيته العصبية تحمله على ان يصرخ قلقا عند كل اهانة ، وكان يحدث نفسه احيانا فيقول :

يا الهى ! اية غلطة ارتكبت ؟.. ويبحث فى عدالته كطفل عن السبب الذى يحملهم على تعذيبه بهذه الصورة ، واذ لايجد شيئا يتملكه رعب شديد ، ويتذكر دروس جنفييف المخيفة ، ويتصور ان الشياطين تعذبه لأخطاء مجهولة منه .

ولم يجرؤ على اطلاع أبيه بما يتحمله من اضطهاد ، واكتفى بأن اشتكى لجنفييف ، وسألها عن معنى عبارة « ابن الزنا » التى كانت تبدو له كما لو كانت اهانة بالغة . وأصفت المراة العجوز اليه فى اكتئاب . كانت قد استاءت حين أخذوا منها تلميذها ، وكانت تعرف ان مشرف المدرسة حمل مسيو دى فيارج على تعميد الغلام، ورأت ان هذا الأخير قد قدر له ان يلقى نهائيا فى نيران جهنم . وعندما بثها جيليوم همومه صاحت تقول دون ان ترد عليه مباشرة : « انت ابن الخطيئة ، وانت تكفر عن اثم الخاطئين » . ولم يفهم الطفل ماتعنيه طبعا ، ولكن لهجتها المتعصبة كانت تفيض غضبا بحيث لم يطلعها على شيء مما يكابده بعد ذلك .

وعندما بلغ الخامسة عشرة من عمره حدث شيء ظل يذكره طوال حياته ، ففى ذات يوم ، خرج التلاميذ من المدرسة فى نزهة الى الخلاء ، واجتازوا الشارع الرئيسى ، وسمع أحد زملائه يقول له مزمجرا : ايه يا ابن الزنا ... ها هى ذى أمك .

ورفع رأسه ورآها .

كانت هناك ، تمشى فوق الرصيف ، متأبطة ذراع رجل هادىء ، رخو الملامح. ونظرت المراة اليه نظرة غريبة فاحصة ، ولامست ثيابها نيابة تقريبا وهى تمشى بجواره . ولكنها لم تبتسم ، وانما لوت شفتيها فى تكشيرة وتقطيبة ، فى حين احتفظ الرجل الذى يرافقها بهدوئه وصفائه .

وخارت قوى جيليوم ، ولم يسمع تهكمات زملائه الذين راحوا يضحكون ، كما لو ان هذا اللقاء كان مدعاة للتهكم والسخرية . وابتعد عنهم نافرا ، ولزم الصمت فقدصعقته هذه الرؤية السريعة ، وشعر بأنه أشد تعاسة وبؤسا من الطفل اليتيم . وظل يستعرض فى ذهنه طوال حياته صورة هذه المراة التى كشرت عندما رأته وهى تمشى متأبطة ذراع زوجها المخدوع المسرور .

ولولا ان كبرياءه كانت له السند الكبير لكان من المحتمل أن يألف الجبن ويعتاده ، ولكن لحسن حظه ان دم آل دى فيارج كان يجرى فى عروقه ، وكان أقوى من الضعف الشديد والحماقة

البورجوازية اللذين ورثهما عن أمه . احس بأنه أفضل وأحسن من جلاديه ، واذا كان يخشاهم فانه كان يشعر من نحوهم بازدراء كبير ، وبقى فخورا أبيا تحت ضرباتهم ، الأمر الذى كان يثير سخطهم وحنقهم ازاء احتقار فريستهم لهم .

ومع ذلك فقد وقع على صديق فى المدرسة ، فعندما انتقل الى دراسته الثانوية ، دخل تلميذ جديد معه فى نفس الفصل ، وكان شابا طويل القامة ، قوى الجسم ، يكبره بسنتين أو ثلاث . وكان يدعى جاك برتيبه . وكان يتيما ليس له فى الدنيا غير عم يشتغل بالمحاماة ويقيم فى فيتوى . وقد التحق بمدرسة فيتوى ليتم علومه التى كان قد بداها فى باريس ، لأن عمه أراد أن يراقبه عن كثب بعد أن نمى الى علمه ان ابن اخيه ، نضج قبل الأوان ، راح يلاحق آنسات الحى اللاتينى وهو فى السابعة عشرة من عمره .

وتحمل جاك منفاه فى مرح . وكان دمث الأخلاق ، طيب القلب ، راح يكفر عن أخطائه الخفيفة باخلاص وتفان حقيقيين . وكان التحاقه بالمدرسة حدثا مثيرا ، فهو قد قدم من باريس ، وراح يتحدث عن حياته هناك كشاب ذاق طعم الفاكهة المحرمة . وشعر التلاميذ نحوه باحترام مفاجىء حين عرفوا انه عاشر النساء ، وجعلت منه شمائله الحلوة وقوته ، ودماثة أخلاقه ملك المدرسة . وكان يضحك بصوت مرتفع ، ويحمى الضعفاء بسذاجة الأمراء .

وفى أول يوم له فى المدرسة رأى تلميذا كبيرا يدفع جيليوم ويضربه ، فأسرع اليهما وأمسك بالتلميذ ونهره قائلا له انه سيكون له معه شأن آخر اذا حدث وتحرش بأى صبى بعد ذلك ، ثم أخذ بذراع جيليوم ، وراح يتمشى معه فترة الاستراحة وتسببا فى دهشة التلاميذ الذين لم يفهموا كيف يقع اختيار الباريسى على مثل هذا الصديق .

وتأثر جيليوم كل التأثر من نجدة جاك له ومن الصداقة التى عرضها عليه . وكان هذا الأخير قد أحس بميل مفاجىء لوجه صديقه الجديد الذى ينطق بكل معانى الألم ، وعندما سأله أدرك انه سيتعين عليه ان يقوم بحماية فعالة له ، وكان ان صمم على رأى ، فقال وهو يبسط له يده : هل تريد أن تكون صديقى ؟

أوشك الفتى المسكين ان يبكى وهو يشد على اليد الممدودة اليه ، وقال فى شىء من الخجل : سوف احبك كثيرا .

وفى فترة الاستراحة التالية التف بعض التلاميذ حول الباريسى ،

ورووا له قصة جيليوم وهم يحسبون انه سيشترك معهم فيالتنكيل بابن الزنا اذا أطلعوه على فضيحة مولده . وأصغى جاك اليهم ، وعندما فرغوا هز كتفيه وقال : انكم اغبياء .. لو جرؤ احدكم على أن يعيد على ما قلتموه الآن فسوف أصفعه .

ومضى جاك فتأبط ذراع جيليوم وقال له :

ـ ما أغبى هؤلاء الأولاد . انهم أغبياء وأشرار... انني اعرف كل شيء ولكن لاتراع ... لا تخش شيئا . اذا حاول أحدهم التحرش بك ، فيكفى ان تخبرنى وسوف ترى ...

ومنذ ذلك احترم الجميع « ابن الزنا » . وقد نعته أحد زملائه بهذه الصفة فلم يسلم من « علقة ساخنة » من جاك ، بحيث ان المدرسة كلها أدركت انه لم يعد هناك بعد اليوم مجال للمزاح ، وبحثوا لهم عن فريسة أخرى لدعاباتهم . واتم جيليوم علومه الثانوية فى جو من الهدوء التام ، وأحس بصداقة كبيرة نحو جاك . واحبه كما يحب المرء أول عشيقة له فى وفاء واخلاص كبيرين . ولم يدر كيف يفيه دينه ، وبقى متواضعا ومتملقا فى معاملته له ، وأحس باعجاب كبير نحوه وباحترام اكبر وهو يقارن بينه وبين طبيعته الضعيفة الخائفة . وكان قد اقتنع وهو يرى مرح صديقه ويسمع القصص التى يرويها له عن حياته فى باريس انه أمام رجل خارق تدخر له الأقدار أفضل المصائر .

وعندما أتما دراستهما الثانوية ، انتقل جاك الى باريس لكى يلتحق بكلية الطب ، وبقى جيليوم فى فيتوى ، وهو حزين لفراق صديقه .

وانصياعا لتعليمات أبيه ، بقى ثلاث سنوات فى نوأرود ، قضاها فى الصيد والقنص والتجوال فى البلد والاهتمام بكل ما يعترضه فيها . وأعدته هذه السنوات الثلاث للأفراح والأتراح التى يدخرها له المستقبل ، ولكن أهم ما هناك هو ان أحدا لم يعد يضطهده .

وعاد جاك الى فيتوى بعد سنتين لقضاء اجازته مع عمه ، وكانت أياما سعيدة بالنسبة لجيليوم لم يفترق الصديقان أثناءها ، وراحا يقضيان أياما بطولها فى القنص أو صيد جراد البحر فىالبحيرة الصغيرة التى تقطع المدينة . وكانا يجلسان أحيانا فى مكان ما ويتحدثان عن باريس ، وعن النساء على وجه الخصوص . وكان جاك يتكلم عنهن فى استخفاف وبلهجة الرجل الذى لايحترمهن ، والذى تدفعه المجاملة والكياسة الىعدم ابداء سخريته بهن. وكان

جيليوم يعتب عليه خشونته وقسوته عليهن ، لأنه كان شديد الاعجاب بالمرأة ويرى انها معشوقة يجب ان يتغنى امامها بأغنية الحب .

وصاح به جاك يقول : انك لا تعرف ماذا تقول ، وسوف تتسبب في ضجر عشيقاتك لو انك بقيت جاثيا امامهن دائما . ولكنك سوف تفعل كما يفعل غيرك . ستخون المرأة وستخونك هي بدورها .

اجابه جيليوم في اصرار : كلا . لن افعل كما يفعل غيرى . لن احب الا امرأة واحدة ، وسأبقى على حبها طالما بقيت اتحدى القدر بأن يفسد ما بيننا .

ــ اوه ، سوف ترى .

وراح جاك يضحك لسذاجة صديقه القروى ، وصدم شعوره تقريبا بقصة غرامياته العديدة .

وتوثقت أواصر الصداقة بين الشابين اثناء هذه الاجازة بحيث راحا يتراسلان بعد ذلك ... وتبادلا رسائل طويلة مسهبة ، ولكن رسائل جاك تباعدت شيئا فشيئا ، وانقطعت اخباره نهائيا في السنة الثالثة . واحزن هذا الصمت جيليوم كل الحزن .

واستقي أنباء صديقه من عمه فعرف ان جاك سيغادر فرنسا ، وود لو أن يودعه قبل رحيله . وبدأ يشعر بالملل في نوارود . ويعرف أبوه ما يعتمل في صدر ابنه فقال له :

ــ انني أعرف انك تريد أن تمضى الى باريس ، وانني أصرح لك بأن تقيم فيها سنة . واتوقع ان تأتى ببعض الحماقات . وسأفتح لك اعتمادا غير محدود ، ويمكنك ان ترحل غدا .

وفي صباح اليوم التالى ، حين بلغ جيليوم باريس علم ان جاك بارحها بالأمس ، فقد بعث له برسالة وداع الى فيتوى وارسلتها جنفييف اليه . وكانت رسالة مرحة جدا قال له فيها انه عين ملحقا طبيا بالرحلة المسافرة الى الصين الهندية ، وانه سيبقي فترة كبيرة بعيدا عن فرنسا دون أى شك . وعاد جيليوم الى فيتوى وهو آس محزون ومذعور لفكرة بقائه وحده في هذه المدينة المجهولة ، وغرق في أعماق عزلته العزيزة . ولكن ، بعد شهرين ، أخرجه أبوه من هذه العزلة وأمره ان يمضى الى باريس وأن يقيم فيها سنة .

ومضى جيليوم ، واقام في شارع ليست ، في نفس الفندق الذى تقيم فيه مادلين .

الفصل الرابع

عندما التقت مادلين بجيليوم كانت تفكر فى مغادرة الفنـــــدق والبحث عن مسكن صغير تقوم هي نفسها بفرشه وتأثيثه ، لأنها لم تكن تشعر بالارتياح فى ذلك الفندق المفتوح لـكل وافد والذى يقيم به حشد من الطلبة والطالبات ، فقد كانت معرضة فيه لسمـــاع عروض فظة كانت تعيد الى ذهنها هجران عشيقها لهـــا . وكانت تنوى بعد انتقالها من الفندق أن تبحث لها عن عمل أو أن تستخدم موهبتها فى التطريز. وكانت الألفا فرنك التى تدرها عليها أسهمها كل عام تغطى احتياجاتها تماما ، ولهذا لم تك تشعر بأى قلق فيما يتعلق بالمستقبل .

وفى الليلة التى اقبل فيها جيليوم والتقت به على السلم ، تنحى بجوار الحائط فى احترام أثارانتباهها ودهشتها ، فان نزلاء الفندق كانوا يحاولون التحرش بها فى العادة ، وينفثون دخان سجائرهم فى وجهها . ودخل الشاب غرفة تجاور غرفتها ، وكان يفصـــل بين الغرفتين فاصل دقيق من الخشب . ونامت مادلين وهى تسمع على الرغم منهـــا خطوات الشاب المجهول وهو يمشى فى غرفته .

وكان جيليوم ، على الرغم مما أبداه من احتـــرام ، قـــد لاحظ بشرتها العاجية ، وشعرها الأشقر الجميل . وإذا كان قد تمشى كثيرا فى تلك الليلة فذلك لأن مجرد وجود امرأة بجواره تسبب له فى نوع من الحمى ، وكان يسمع صرير فراشها كلما تقلبت .

وفى الصباح ،كان من الطبيعى أن يبتسم كل من الشابين للآخر. وسرعان ماتآلفا . واستسلمت مادلين فى شيء من الارتياح الى ميلها لهذا الشاب الهادىء الوديع ، بحيث أحست بأنها فى أمان معه ... اعتبرته كالطفل شيئا ما . وخطر لها أنه اذا حدث واستولى عليه الجنون بحيث يحدثها عن الحب فان فى مقدورها ان تزجره ، وان تعيده الى عقله بسهولة . كانت تؤمن بقوتها وتريد ان تبر بوعدها بالبقاء ارملة . وفى الأيام التالية ، قبلت ذراعه ورضيت ان تخرج معه فى نزهة . وعند عودتهمـــا مضت الى غرفته كما مضى هو الى غرفتها ، ولم يتبادلا كلمة حب واحدة ، ولا اية ابتسامة مغرضة.

والواقع ان كلا منهما كان يشعر بالارتباك فى أعماقه ، بعد أن تضمهما غرفتاهما . كان كل منهما ينصت الى الآخر وهو يمشى جيئة وذهابا ، وتراوده الأحلام دون ان يدرى حقيقة المشاعر التى تؤرقه . وأحست مادلين بأنه يحبها ، واستسلمت لهذا الاحساس الحلو الجميل وهى تقول لنفسها انها لا تحبه . والواقع انها كانت لا تعرف ما هو الحب ، فان علاقتها الأولى كانت من العنف بحيث راحت تتذوق فى استمتاع كبير اهتمام جيليوم بها . كان قلبهـا ينطلق نحوه رغما عنها ، وشيئا فشيئا ، متـأثرا بميل يتحول الى حنان . واذا اتفق وفكرت فى جراحها فانهاكانت تقصى عنها ذكرياتها القاسية بالتفكير فى صديقها الجديد . أما جيليوم فكان يعيش فى حلم ، كان يعبد المرأة الأولى التى التقى بها ، وكان ذلك أمرا محتوما، بل انه لم يسأل نفسه ، فى البداية ، من اين جاءت هذه المرأة ، فقد بدأته بالابتسام ، وكانت هـذه البسمة كافية لكى يجثو عنـد قدميها ويقدم لها حياته . وأسعده انه التقى بمعشوقة بمثل هذه السرعة . وكان يتلهف لأن يفتح قلبـه الذى بقى مغلقا الى هـذا الوقت والذى يفيض بحب مكبوت ، واذا كان لم يقبل مادلين فذلك لأنه لم يجرؤ على ذلك ، ولكنه كان يعتقد ، انها ملك له .

ومر بالشابين اسبوع على هذه الحال . كان جيليوم لايكاد يخرج فقد أخافته باريس ، وقد حرص على الا ينزل فى أحد الفنادق الـكبيرة التى أعطاه أبوه عناوينها ، وقد هنأ نفسه لأنه نزل بهـذا الفندق الصغير ، فى ذلك الحى الهادىء حيث ينتظره الحب ، وود لو ان يستطيع اصطحاب مادلين الى الريف ، بعيدا ، ولم يكن ذلك استهدافا منه لأن يوقعها فى أحضانه ، وانما لأنه كان يحب الأشجار، ولأنه كان يريد أن يتنزه معها تحت ظلالها ، ولكنها ظلت تقاومه فى شىء من الاستشعار ، وأخـيرا ، قبلت دعوته للعشـاء فى احـدى الضواحى ، وهناك ، فى ذلك المطعم ، بغابة فريير ، استسلمت له .

وفى صباح اليوم التالى ، عندما عاد العاشقان الى باريس ، كانا لايزالان مذهولين من جراء مغامرتهما بحيث راحا يتكلمان فى ارتباك، وأحسا بشىء من الضيق لم يحسا به وهما مجرد صديقين . وبشعور غريب من الخجل رفضـا المبيت فى الفنـدق الذى كانا فيه حتى الأمس القريب وكل منهما يكاد يكون غريبا عن الآخر . وادرك جيليوم ان مادلين ستعذبها ابتسامات موظفى الفندق وخدمه اذا هى انتقلت للاقامة فى غرفته . ومضى فى مساء اليوم ان تكون له وحده ، فى

أعماق خلوة بعيدة مجهولة .

وتصرف كما لو كان موشكا علي الزواج ، فان صاحب البنك الذى فتح أبوه له حسابا فيه دله على بيت صغير معروض للبيع بشارع بولونيا . واسرع جيليوم اليه وتفرج عليه ثم اشتراه على الفور . وذات مساء اخذ يدى مادلين ، وسألها ان كانت تريد ان تتزوجه .

وعاشا فى ذلك البيت الصغير ستة شهور ، بعيدين عن العالم ؛ وهما لايكادان يخرجان ، وكان حلما حقيقيا من أحلام السعادة ، واستغرقا فى حبهما ونسيا الأحداث التى مرت بهما قبل ذلك ، ولم يعبأ أى منهما بما يدخره له المستقبل .

وحسبت مادلين انها انما ولدت بالأمس . لم تكن تعرف اذا كانت تحب جيليوم ، وانما كل الذى كانت تعرفه هو ان هذا الرجل اتاها بهدوء كبير ، وانه يحلو لها ان تستكين فى هذا الهدوء ، فقد التأمت كل جراحها ، ولم تعد تشعر بتلك الهزات او بتلك الحروق الملتهبة التى تأكل صدرها . أحست بحرارة وبدفء كبيرين وهدأ قلبها ، ولم تعد تسأل نفسها ، وكالمريض الذى يخرج محطما من حمى شديدة ،راحت تستسلم لبرئها فى خدر لذيذ وهى تشكر فى أعماق نفسها ذلك الذى جاء وانقذها من قلقها .

أما جيليوم ، فكان يعيش فى السماء ، فقد تحقق أعز حلم له كان يتمناه وهو طفل ، ثم وهو حدث ، فعندما كان فى المدرسة ، تثخنه ضربات زملائه ، كان يحلم بعزلة سعيدة ، فى مكان بعيد مجهول ، يقضى فيه أياما طويلة دون ان يقوم بأى عمل أو يتلقى اية ضربات ، وانما تهدهده حورية مجهولة ، حلوة ، تبقى الى جواره دائما .

كان كل منهما ينشد العزاء والأمان الى جوار الآخر اكثر مما ينشد الحب نفسه . وكان الصدفة دفعت بأحدهما نحو الآخر لكى يستطيعا مسح جراحهما . وأحسا بحاجة متساوية من الراحة . وكان حبهما امتنانا يحس به كل منهما نحو الآخر، لما اضفاه عليهما من سعادة وهدوء أخذا يتذوقانها معا ، واستمتعا بالأيام الحاضرة فى انانية ملهوف ، وبدا لهما انهما يعيشان منذ ان التقيا فحسب . ولم تعترض احاديثهما الغرامية الطويلة اية ذكرى . ولم يعد جيليوم يحفل بالسنوات التى عاشتها مادلين قبل ان تعرفه . ولم تفكر المرأة الشابة فى ان تستجوبه عن حياته السابقة ، كما تفعل كل عشيقة مع حبيبها . كان كل منهما قانعا بحياته مع الآخر، يضحك ويبتسم

فى سعادة كالأطفال الذين لايعرفون ندم الأمس ولا هم الغد .
ففى ذات صباح ، وكان جيليوم قد مضى الى البنك الذى يتعامل معه . ولم تجد مادلين ما تفعله فراحت تقلب فى ألبوم للصور كان فوق الطاولة ، ولم تكن قد رأته قبـل ذلك ، وكان عشيقها قـد اخرجه بالأمس من احدى الحقائب ، ولم يكن يضم غير ثلاث صور : صورة لأبيه ، واخرى لجنفييف ، وثالثة لصديقه جاك .
وما ان رأت المرأة الشابة هذه الصورة الأخيرة حتى أطلقت صرخة حادة ، وراحت تنظر الى وجه جاك الضاحك وهى ترتجف مذعورة ، كما لو كان شبحا انتصب امامها فجأة ، فقد كان هو عشيق الليلة الذى غدا عشيق سنة ... هو الذى استيقظت ذكراه الهاجعـة فى قلبها وفتته بكل قسوة بظهوره هكذا فجأة .
كانت ضربة عنيفة اصابها بها القدر فى سمائها الهادئة ، فقـد نسيت هذا الشاب ، واصبحت الزوجة المخلصة لجيليوم ، فلماذا يقوم الآن بينهما ؟ .. لماذا يأتى هنا ، فى هذه الغرفة ، حيث كان عشيقها يضمها بين ذراعيه منذ لحظات ، ومن الذى اتى به اليهـا لـكى يزعج هدوءها الى الأبد ؟ ..
كان جاك ينظر اليها بطريقته الساخرة ، وكأنه يسخر منها ومن حبها الجديد ويقول لها : يا الهى ! لاريب انك تشـعرين بسـأم لايطاق هنا ... لماذا لاتأتين الى شاتو ، حيث الناس والصخب ؟..
وخيل لها انها تسمع رنة صوته وقهقهة ضحكته ، وتصورت انه سيمد اليها يديه فى تلك الحركة التى ألفتها منه . وفى لمح البصر رأت الماضى ، وغرفة شارع سوفلو ، وكل الحياة التى حسبتها بعيدة والتى تفصل بينها بضعة شهور . انها حلمت اذن ، ولا تستحق سعادة الأمس . كانت تكذب وتسرق ، وكل الوحـل الذى مشت فوقه صعد الى قلبها ، وكاد ان يكتم أنفاسها .
كان هناك اطار ، فوق الأريكة يضم صورة جيليوم ، وكان يبتسم لها فى رفق ، وامتقع لونها تحت نظرة حبه ، فى وسط هذا الهدوء ، وهى تحس بجاك يمارس معها الجنس ويتغلغل فى احشائها .
وتذكرت ان الجراح الشاب كان قد أعطاها صورته قبل رحيله ، وهى صورة طبق الأصل لتلك التى القاها القدر القاسى تحت عينيها الآن . ولـكنها فى عشية دخولها هذا البيت الصغير ، رأت ان من واجبها ان تحرق هذه الصورة لأنها لم تشأ ان تدخل صورة عشيقها الأول فى بيت جيليوم . ولـكن هاهى ذى الصورة تعود ، وهاهو ذا

جاك يدخل البيت رغما عنها . ونهضت واقفة ، واخذت الالبوم ، وقرات فى ظهر الصورة هذه العبارة : « الى صديقى الحميم واخى جيليوم » .. جيليوم ، صديق جاك واخوه ! واصفر لون مادلين وبدا وجهها أشبه بوجوه الموتى واطبقت الألبوم ، وعادت فجلست مكانها شارد العينين وقد تدلت ذراعاها وغرقت فى تفكير عميق .

حدثت نفسها وقالت لاريب انها ارتكبت غلطة كبيرة لكى يعاقبها القدر هذا العقاب القاسي بعد ستة شهور من السعادة الكاملة . انها تنقلت بين ذراعى رجلين ، وهذان الرجلان يتحابان حبا اخويا، ورأت انها فى حبها المزدوج قد ارتكبت المحارم ، وأحست الآن بأن شبح جاك سيمارس معها الجنس فى نفس الوقت الذى تبذل فيه نفسها لجيليوم ، وانها قد تتذوق لذة بشعة فى عناق عشيقيها اللذين ستخلط بينهما فى ذهنها ، وبدا لها مستقبلها المرير من الوضوح بحيث خطر لها أن تهرب وأن تختفى الى الأبد .

ولكن الجبن أبقاها .كانت ، بالأمس ، سعيدة فى هذا الجو الدافىء الهادىء الذى أتاحه لها حب جيليوم ، أفلا تستطيع أن تسكن تحت عناق الشاب وان تنسى من جديد وتؤمن بأنها فاضلة وامينة ؟.. ثم تساءلت اذا لم يكن من الأفضل ان تطلع عشيقها على كل شيء وان تبوح له بماضيها وتلتمس صفحه وغفرانه . ولكن هذه الفكرة لم تلبث ان أفزعتها ، اذ كيف تعترف لجيليوم بأنها كانت العشيقة السابقة لصديقه وأخيه ؟ سوف يطردها من فراشه ، ولن يرضى أبدا بمثل هذه القسمة الفظيعة ... كانت تفكر كما لوان جاك لا يزال يمارس معها الجنس اذ كانت تحس بأنه يعيش فى كيانها .

كلا . انها لن تقول شيئا . ستحتفظ لنفسها بكل العار ، ولكنها لم تستطع ان تستقر عند هذا الرأى ، فقد ثارت طبيعتها المستقيمة ازاء هذه الكذبة الخالدة . وادركت انها لن تجد أبدا القوة لكى تعيش مدة طويلة باسمة فى عارها وكربها.كان من الأفضل ان تعترف على الفور او أن تبادر بالفرار . وراحت هذه الأفكار المضطربة تصطرع فى راسها الخاوية بصخب مؤلم ، وراحت تتساءل دون ان تستطيع اتخاذ قرار حاسم . وفجأة سمعت الباب الخارجى يفتح وصعدت السلم خطوات مسرعة ودخل جيليوم .

كانت سحنته مقلوبة ، وارتمى على الأريكة واجهش بالبكاء . ودهشت مادلين ، واستولى عليها الذعر وخطر لها انه عرف كل شيء . ونهضت واقفة وهى ترتعد .

وراح الشاب يبكي وقد دفن راسه بين يديه ، تهزه أزمات من اليأس ، وأخيرا مد يديه الى عشيقته وقال لها فى صوت مكتوم :

ـ واسينى وعزينى ... آه . شد ما أتألم !

ومضت مادلين فجلست بجواره وهى لا تفهم ، وتتساءل فى نفس الوقت ان كانت هى سبب بكائه ، ونسيت عذابها أمام عذابه ، وقالت وهى تأخذ يديه : ماذا بك ؟ أجبنى ؟ ..

نظر اليها وبه لوعة ثم قال خلال دموعه : لم اشأ ان ابكى وأنا فى الشارع فرحت أجرى .. كنت اختنق وأتلهف على المجىء هنا .. دعينى ابكى فان البكاء يخفف عنى .

وجففت دموعه ، ولـكنه لم يلبث ان اهتز وراح يبكى من جديد ، وتمتم يقول : يا الهى !.. يا الهى !.. اننى لن أراه بعد الآن .

خيل للمراة الشابة انها فهمت ، ورثت له من كل قلبهـــا ، واجتذبته بين ذراعيها ، وقبلت جبينه ، وكفكفت دموعه ، وحاولت مواساته بنظرتها الحزينة . وسألته : هل مات ابوك ؟ ..

اشار بالنفى ثم ضم يديه وقال فى صوت مفعم باليأس : اى صديقى المسكين جاك ... لن تحبنى بعد اليوم كما أحببتنى من قبل ... اننى نسيتك هنا ، لم أعد أفكر فيك ، فى حين خطفك الموت منى .

وكانت مادلين لاتزال تجفف دموع جاك ، ولـكنها ما ان سمعت اسم جاك حتى هبت واقفة وراحت ترتجف ... مات جاك !.. وقعت هذه الكلمات فى كيانها وقع الصاعقة ، ووقفت مذهولة تتساءل ان لم تكن هى التى قتلت هذا الشاب لـكى تنبذه من حياتها .

وعاد جيليوم يقول : انك لم تعرفينه ، واظن اننى لم أحدثك عنه أبدا . اننى كنت جاحدا ونسيته فى فيض سعادتى ... انه كان قلبا من ذهب ، وكان صديقا وفيا . لم يكن لى صديق غيره فى هذه الدنيا ، ولم اكن اعرف ، قبل ان التقى بك ، حبا غير حبه ...

كان الم مادلين لايطاق ، فقد ملاها عذاب جيليوم وآلامه باحساس غريب من التمرد ، فانها لم تستطع ان تسمعه يثنى على جاك كل هذا الثناء ، وأحست برغبـــة جامحة فى أن تصرخ به وتقول : اسكت . ان هذا الرجل سلبك سعادتك ، وانت لا تدين له بشىء .

وودت لو ان تستطيع ان تطبق شفتيه ، وان تعترف له بـكل شىء ، ولـكنها لم تجرؤ ازاء رباط الصداقة القوى الذى جمع بين عشيقيها ... راحت تصغى الى يأس جيليوم كما لو كانت تستمع الى هدير موجة تندفع نحوها لـكى تطويها . ووقفت صامتة ساكنة

تحتفظ ببرودة عجيبة لم تجد لديها غير الغضب ، فقد احنقها موت جاك . احست في بادىء الأمر بحزن شديد ، ولكنها ثارت عندما رأت ان هذا الرجل لايمكن ان يموت بالنسبة لها . بأى حق يأتي ويزعجها في هدوئها وأمنها مادام قد مات .

ودفعها الفضول اخيرا الى ان تسأله قائلة : ولكن كيف مات ؟

قال لها جيليوم عندئذ انه أثناء انتظاره في غرفة مدير البنك اخذ الجريدة بحركة آلية ، ووقعت عيناه عندئذ على نبأ صغير عن غرق الباخرة بروفيت ، وقالت الجريدة ان الأمواج قذفت بها الىالشاطىء الصخرى وحطمتها على مقربة من الكاب ، وان جميع الركاب قد غرقوا . وكان جاك ضمن الركاب ، وكان في طريقه الى الهند الصينية .

وعندما هدأ كرب العاشقين ، اثناء الليلة التالية فكرت مادلين في احداث اليوم في هدوء . كان غضبها قد انفثأ ، واحست بالاعياء والحزن . ولو انها علمت بموت جاك في ظروف أخرى غير هذه فما من شك في انها ما كانت تبكيه ، وما كانت تشعر الا بحزن عابر. ولكنها الآن ، وهي راقدة بجوار جيليوم ، راحت تفكر في الميت ،في تلك الجثة التي أخذت الأمواج تتقاذفها وتدفع بها نحو الصخور. لعله نطق باسمها وهو يقع في البحر. وتذكرت أنه أصيب بجرح ، ذات يوم ، في شارع سوفلو ، وان الجرح كان عميقا ، وانها أوشكت ان تقع مغمى عليها عند رؤية الدم الذى يسيل. كانت تحبه في ذلك الوقت ، وكانت جديرة بأن تسهر عليه وأن تمرضه الشهور الطويلة لكي تنقذه من الموت . ولكنه غرق الآن وساءها ذلك منه لأنها أدركت انه لم يعد غريبا عنها كما كانت تعتقد . وانها ، على العكس ، لا تزال تجده في صدرها ، وفي كل عضو من أعضائها ، وانه يمتلكها الى حد انها تحس بأنفاسه تجرى على بشرتها . وسرت في بدنها عندئذ تلك الرعشة التي كانت تحرقها فيما سبق ، عندما يعقد الشاب ذراعيه حول جسدها . واحست برعدة شديدة كما لو أن جزءا من كيانها قد انتزع منها . وراحت تبكي وهي تدفن رأسها في الوسادة حتى لايسمعها جيليوم . وعاد اليها كل ضعفها كامرأة ، وخيل انها أصبحت وحدها على هذه الأرض . واستبدت بها فجأة رغبة ملحة لم تحاول أن تقاومها ، فنهضت في حذر شديد ، ولكي لا توقظ جيليوم . وعندما وطئت السجادة بقدميها راحت تنظر اليه في قلق وهي تخشى أن يسألها أين تمضي . ولكنه كان غارقا في النوم والدموع لا تزال تملأ عينيه ،

وعندئذ اخذت سراج الليل ومضت الى الصالون وقد تملكها القلق عندما راحت ارضية الغرفة الخشبية تصر تحت قدميها .

ومضت قدما الى الألبوم وفتحته فوق الطاولة ، وجلست امام صورة جاك مليا ، على ضوء النور الأصفر المتذبذب المنبعث من السراج . وكان الصمت مطبقا حولها لا يتخلله غير صوت تنفس جيليوم فى الغرفة المجاورة .

وذرفت دموعا رقيقة ، ونسيت نفسها وهى تتأمل ذلك الذى لم يعد له وجود ، وأصبحت الصورة مجرد ذكرى لا تثير لديها اى خوف. وتذكرت عندئذ صراع النهار. وحيرتها وقلقها فى اتخاذ قرار، فان جاك المسكين ، فى الوقت الذى خشيت فيه ان ينهض حائلا بينها وبين عشيقها بدا كأنه يرسل اليها نبأ موته لكى يقول لها انها تستطيع ان تعيش فى هدوء ، وانه لن يأتى لازعاجها فى حبها الجديد . وخيل لها ان صورته تقول لها : لا تخافى يا فتاتى ، وحاولى ان تكونى سعيدة ، فأنا لم أعد موجودا ، ولن اظهر ابدا أمامك ، كعارك الحى . ان حبيبك طفل ، وقد سبق ان ساعدته، فأرجوك ان تساعديه انت أيضا بدورك ، وكل ما اطلبه هو ان تتذكرينى أحيانا .

وقبلت الصورة .

وكان الفجر قد بزغ عندما عادت الى الفراش. وكان جيليوم لايزال غارقا فى النوم ، يرزح تحت وطأة احزانه . وانتهى بها الأمر الى انها غفت هى الأخرى ، ونامت فى هدوء ، يهدهدها أمل بعيد ... سوف ينسيان هذا اليوم العصيب ، وسوف يستردان هدوءهما وحبهما الغالى .

ولكن حلمهما كان قد انتهى ، وتبدد هدوء الساعات الأولى... ذلك الهدوء الذى نعما به فى خلوتهما بشارع بولونيا ، فان شبح الغريق سكن البيت معهما ، وجاءهما بحزن عميق . ونسيا قبلاتهما، وبقيا ساعات طويلة جنبا الى جنب دون ان يتكلما تقريبا ، يعيشان ذكرياتهما الحزينة . ومر موت جاك فى وحدتهما الدافئة كنسمة باردة ، واخذا يرتجفان الآن ، وخيل لهما ان الغرفة الضيقة التى كانا يعيشان فيها بالأمس ، احدهما فوق ركبتى الآخر، قد أصبحت فسيحة واصابها الخراب وتعرضت للتيارات من كل ناحية . وأصبح الصمت الذى كانا يتوقان اليه يسبب لهما احساسا من الرعب ، واحسا بأنهما وحيدين ، ولم يسع جيليوم الا ان يقول فى قسوة

بالغة : ان هذا البيت يبدو أشبه بالقبر ، ونكاد نختنق فيه .
ولكنه لم يلبث ان ندم على هذا القول ، واخذ يد مادلين وقال:
- اغفرى لى ... سوف أنسى ... وساعود اليك .
وكان حسن النية ، لأنه لم يكن يعرف ان من النادر أن يرى المرء نفس الحلم مرتين ... وعندما تغلبا على ضناهما ، كانا قد فقدا ثقتهما العمياء التي عرفاها في أيامهما الأولى . وتغير الحال بمادلين بالذات ، فقد استعادت الماضى ، ولم يعد في مقدورها ان تستسلم بين ذراعى جيليوم ، فقد جرحتها الحياة ، وسوف تجرحها من جديد ، وكان لابد لها من أن تصون نفسها ضد هذه الجراح التى تهدد حياتها . لم تفكر قبل ذلك في العار الذى يلاحق كلمة عشيقة، فقد كانت تجد من الطبيعى ان يحبها جيليوم ، وان تحبه هى نفسها ، باسمة ، ناسية الدنيا وما فيها . ولكن كرامتها الآن بدات تتعذب ، وعادت اليها هموم شارع سوفلو ، واخذت تنظر الى عشيقها كما لو كان عدوا يسرق منها كبرياءها واحترامها . وكان يكفى أتفه الأمور لكى تحس بأنها ليست في بيتها في شارع بولونيا ، وانها خليلة تعيش على نفقة عشيقها . وأحرقتها هذه الفكرة ، فجرت واغلقت ابواب عليها وراحت تبكى أحر بكاء ، متقززة من نفسها .
وكان جيليوم يقدم لها بعض الهدايا من وقت لآخر. وكان يروق له ان يفعل ذلك . وكانت تتلقى هداياه بسرور الطفل حين يتلقى لعبة ، وكانت قيمة الهدية لا تهمها في شيء ، وانما كان يسعدها ان ترى عشيقها دائم التفكير فيها ، وكانت تقبل المجوهرات كمجرد ذكريات . ولكن بعد الهزة التى ايقظتها من حلمها تملكها الانزعاج فراحت تنظر الى كل ما يحيط بها كما لو كان ثمن عارها . وكانت تقول لنفسها أحيانا وهي منقبضة الصدر : اننى أبيع نفسى .
وجاءها جيليوم في أيام حزنها بسوار ، فامتقع لونها وهى تراه ، وبقيت على صمتها . ودهش الرجل وهو يراها لاترتمى على عنقه كما كانت تفعل ، وسألها في رفق : الا يروق لك هذا السوار ؟
ولزمت الصمت لحظة أخرى ثم قالت في اضطراب : انك تنفق من أجلى نقودا كثيرة ياصديقى ، وانت مخطىء . اننى لست بحاجة الى كل هذه الهدايا ، وسأحبك نفس الحب اذا انت لم تقدم لى شيئا .
وكتمت زفرة ، فجذبها جيليوم اليه مشدوها وغاضبا وهو لايريد أن يفهم سبب شحوبها وقال : ماذا دهاك يا مادلين ؟ .. ما هذه الأفكار

الفظيعة . ألست زوجتي ؟ ..

نظرت اليه مليا . وكانت نظرتها الصادقة والقاسية تقول له في وضوح : كلا . انا لست زوجتك . ولو انها جرؤت لعرضت على عشيقها عندئذ ان تدفع ثمن طعامها وزينتها من حر مالها ، فمنذ هفوتها أحست بكبريائها تثور ، وشعرت ان كل شيء يجرحها ، وساءها ذلك أكثر من ذي قبل .

وجاءها جيليوم بعد بضعة أيام بثوب فقالت وهي تضحك في عصبية : انني أشكرك ، ولكن دعني أشتري هذه الأشياء بنفسي في المستقبل . انك لا تفهم فيها شيئا ، والباعة يسرقونك .

ومنذ ذلك اليوم وهي تشتري حوائجها بنفسها ، وعندما كان عشيقها يريد ان يرد لها النقود التي أنفقتها كانت تقوم بمهزلة تتيح لها ان ترفض . وظلت منذ ذلك الوقت على حذر ، تتعارك معارك حقيقية لكي تنقذ كبرياءها التي يجرحها أقل شيء ، والواقع انها بدأت لا تطيق حياتها في شارع بولونيا . كانت تحب جيليوم ولكنها أشقت نفسها بتمردها وثورتها كل يوم ، بحيث انها كانت تعتقد احيانا انها لم تعد تحبه . ولكن لم يمنعها ذلك من الاحساس بأكبر الذعر حين يخطر لها انه قد يهجرها كما فعل جاك . وكانت تبكي الساعات الطويلة وهي تتساءل في اي عار جديد ستهوى .

وكان جيليوم يرى في بعض الأحيان ان عينيها حمراوان لفرط بكائها ، وكان يدرك ما يعتمل في نفسها ويود أن يترفق بها وأن يواسيها ، ويزداد رقة في معاملته لها . ويغدو رغما عنه أكثر قلقا وأشد اضطرابا ، ويتساءل لماذا تبكي هكذا ؟.. أليست سعيدة معه ؟ هل تبكي عاشقا ؟ وكان هذا الافتراض الأخير يسبب شقاءه ، فيفقد هو الآخر ايمانه واحساسه الأعمى بسعادة الأيام الأولى ، ويفكر في ماضي مادلين الذي لايعرفه ، والذي لايريد معرفته ، ولا يسعه مع ذلك الا التفكير فيه بدون انقطاع . وتعود اليه شكوكه القاتلة التي راودته يوم نزهتهما في غابة فريير ، ويتساءل عن السنين الميتة ، ويراقب زوجته لكي يقرأ اعترافا في حركاتها أو في نظراتها ، ثم ، عندما يخيل اليه انه اكتشف فيها فكرة غريبة عنه بحزنه انه لا يكفيها ولا تقنع به ، فانها الآن ، وقد أصبحت ملكه ، يجب ان تكون ملكا خالصا له . كان يقول لنفسه انه يحبها بما يكفي لكي تقنع بحبه . كان لايقرأ احلامها ، ويشعر بجرح بالغ لبرودها العابر . وكانت كثيرا ما تتركه يتكلم

وهي لا تصغى اليه ، ضائعة فى أفكارها الخفية ، وكان يسكت عندئذ ، فيظن انها لا تحبه ويستولى عليه الكبرياء فجاة ، ويتحول حبه الى احتقار ويفكر قائلا : ان قلبى اخطأ ، وهذه المرأة ليست جديرة بى ، وقد خبرت الحياة بحيث لا تقنع بحبى .

ولم يبلغ بها الأمر الى حد الخصام الحقيقي ، بل بقيا فى حالة من الحرب المضمرة ، ولكن الكلمات المريرة التى كانا يتبادلانها أحيانا كانت تملأ حياتها يأسا وحزنا . وكان جيليوم يقول لها فى بعض الأحيان : ان عينيك حمراوان ... لماذا تبكين سرا ؟

فتجيب وهى تحاول الابتسام : اننى لاابكى... وانك لمخطىء.

ــ كلا. كلا. اننى لست مخطئا . اننى اسمعك أثناء الليل فى بعض الأحيان ، ألست سعيدة معى ؟

وكانت ترد عليه فتقول انها سعيدة ، وتضحك ضحكة مغتصبة، ويأخذ الشاب يديها عندئذ ويحاول ان يدفئهما بين يديه ، ولكنه حين يرى انهما بقيتا باردتين ، جامدتين يتخلى عنها وهو يصيح :

ــ اننى عاشق مسكين ... لا أستطيع ان أظفر بحبك ... ولاريب ان هناك حبيبا لا تستطيعين نسيانه .

وتجرحها هذه الاشارة فى الصميم ، فترد عليه فى لهجة مريرة :

ــ انك قاس . اننى لم أنس من أنا ، ولهذا السبب أبكى ، فماذا تظن غير ذلك ياجيليوم ؟

فيطرق براسه عندئذ ، وتعود هى فتقول فى قوة : لعل من الأوفق ان تعرف ماضى . وسوف تدرك موقفى عندئذ فلا تتصور أمورا لاوجود لها .

ولكنه كان يرفض ذلك فى حدة . ويضم عشيقته الى صدره ، ويتوسل اليها ان تغفر له . وكان هذا المنظر يتكرر مرارا ، ولا يتجاوز اكثر من هذه النقطة ... ولكن الوضع لايلبث ان يعود الىماكان عليه . ويحس هو ، عندئذ ، بيأس عظيم لأنه لايستطيع امتلاكها كلية ، ويتملكها الندم لكرامتها الضائعة وخوفها من ان يجرحها من جديد .

ولكن الأحداث انقذتهما . فقد اتت لجيليوم رسالة من فيتوى تدعوه الى الاسراع بالعودة لأن أباه كان يحتضر . وتأثرت مادلين لحزنه وضمته الى صدرها فى حرارة وود كبيرين . ومرت بهما ساعة وكل منهما يده فوق الآخر . ورحل أخيرا ، مضطربا وهو يقول للمرأة الشابة انه سوف يكتب لها ويطلب منها أن تنتظره .

الفصل الخامس

كان مسيو دى فيارج قد مات ، وقد أخفوا الحقيقة عن جيليوم فى الخطاب الذى أرسلوه اليه وذلك للتخفيف من وقع المصاب عليه.

وقد أثارت الظروف التى واكبت هذا الموت رعدة الخدم مدة طويلة ، فقد أغلق الكونت باب معمله عليه فى اليوم السابق كعادته . واذ لم تره جنفييف يهبط فى المساء لم تبد أية دهشة ، فقد كان معه عندئذ بعض الشطائر ، بحيث لم تكن المراة العجوز لتزعجه وقت العشاء . ولكنها فى تلك الليلة بالذات استشعرت كارثة ما فان نافذة المعمل التى تسطع بالنور كل ليلة عادة ، وينفذ نورها الى الخارج ظلت مظلمة طوال الليل .

وفى صباح اليوم التالى تملكها القلق ، فمضت الى البـــاب وارهفت أذنيها ، ولكنها لم تسمع شيئا ... ولا حتى نسمة واحدة . وافزعها هذا الصمت فصاحت تنادى الكونت ، ولكنه لم يرد ، ورات عندئذ ان الباب غير موصد ، وانه موارب فحسب، فى حين ان الكونت كان يوصده بالمفتاح عادة ، فدفعته ودخلت ، ووجدت جثة مسيو دى فيارج ممددة وسط الغرفة ، وكان ملقى على ظهره ، وقد توترت ساقاه وبسط ذراعيه المتصلبتين، والراس مكشرة تغطيها بقع شاحبة ، ومطوحة الى الخلف ، كاشفة العنق ، وكانت تغطيه هو الآخر بقع كبيرة صفراء. وكانت راسه قد ارتطمت بالأرض ، وسال منـها خيط من الدم راح يجرى حتى المدفاة ، حيث تكوم فى بركة صغيرة .

ارتدت جنفييف الى الخلف ، امام هذه الجثة وهى تصرخ ، ثم راحت تتلو صلاة قصيرة . وقد اخافها ، قبل كل شىء آخر ، تلك البقع الغريبة التى ظهـرت على وجهـه وعنقـه والتى بدت أشبه بالرضوض والكدمات ... لقد خنق الشيطان سيدها أخيرا ، وهاهى ذى علامات أصابعه خير دليل على ذلك . وكانت ، حين ترى الكونت يغلق باب المعمل عليه تقول لنفسها أنه سيستدعى الشيطان مرة أخرى ، وان هذا الأخير سوف يلقنه درسا ذات مرة . وهاهى نبؤتها قد تحققت ، وراحت ترتجف وهى تفكر فى

المعركة الرهيبة التى تسببت فى موت الملحد .

وكان صراخها قد اجتذب الخدم ، وكان مسيو دى فيارج قد اختارهم من اشد الفلاحين جهلا ، فاقتنعوا بأن سيدهم مات وهو يصارع الشيطان ، وحملوه ، وأرقدوه فى فراشه وهم يرتعدون ذعرا وخوفا ، ويخشون ان يخرج من فمه المفتوح الأسود وحشا بغيضا ينفث سمومه فيهم واعتقد الكثيرون ان الكونت كان ساحرا وان الشيطان انتزع روحه . أما الطبيب الذى جاء للتحقق من الوفاة فقد كان له رأى آخر... أدرك من منظر البقع التى على اللوح والعنق انه مات مسموما . واثارت هذه البقع الصفراء فضوله لأنها لم تكن من الأعراض التى يعرفها ، ولم يستطع ان يعرف منها نوع السم الذى ازدرده الكونت . وادرك ان الكيمائى الشيخ قد تسمم عن طريق عنصر جديد اكتشفه بنفسه ، بعد تجاربه وابحاثه الطويلة . وكان هذا الطبيب رجلا شديد الحرص فرسم البقع حبا للعلم ، واحتفظ لنفسه بسر هذه الميتة العنيفة . ونسب الوفاة الى السكتة القلبية ، متفاديا بذلك الفضيحة التى لن تنبث ان تقع ، اذا عرف الناس ان الكونت دى فيارج انتحر . والناس يحرصون دائما على صون سمعة الأثرياء والعظماء .

ووصل جيليوم قبل الدفن بساعة ، وكان ألمه كبيرا . كان الكونت قد عامله ببرود دائما ، ولم يستطع ان يشعر بحزن عميق لفقده ، خاصة وانه لم تكن بينهما وشائج قوية . ولكن الشاب المسكين كان فى حالة ذهنية محمومة بحيث ذرف دموعا غزيرة ، لاسيما ، وانه عاش الأيام الأخيرة فى قلق وعذاب هو ومادلين بحيث ان أقل حزن كان يستدر دموعه .

وبعد ان انتهت الجنازة اصطحبته جنفييف الى غرفتها ، وهناك بقسوة المتعصبة الهادئة ، قالت له الها أقدمت على اثم كبير اذ رضيت أن يدفن الكونت فى أرض مقدسة . وروت له فى غلظة كيف مات الكونت ، ونسبت موته الى الشيطان ، وراحت تعظ الشاب وطلبت منه ان يقسم لها الا يتعاهد أبدا مع الشيطان ، وعاهدها جيليوم بكل ما أرادت ، وكان يصغى اليها فى ذهول ، وهو يهتز لفرط ألمه ، ولايستطيع ان يفهم لماذا تحدثه عن الشيطان ، ويخيل له انه سيجن بسبب القصة التى ترويها له عن صراع أبيه مع الشيطان بصوتها الحاد . ولم يفهم منها اكثر من ان الجثة كانت بها بقع صفراء ، على الوجه والعنق . وامتقع وجهه امتقاعا

شديدا وهو لايجرؤ بعد على تقبل الفكرة التي راودته .

وجاء أحد الخدم فى هذه اللحظة بالذات وقال له ان زائرا اقبل ويطلب مقابلته . وعندما هبط الى الصالون ، عرف ان الزائر هو هو الطبيب الذى وقع على شهادة الوفاة . واطلعه هذا الأخير، فى كثير من التحفظ على الحقيقة البشعة ، وأردف يقول انه آثر اخفاء هذه الحقيقة عن الأهالى ، ولكنه يرى الآن ان واجبه يملى عليه ان يذكر له كل شيء . وريع الشاب وشكره على الكذبة التى أقدم عليها ، وكان قد كف عن البكاء ، وراح ينظر أمامه فى اكتئاب ، وقد خيل له ان هوة سحيقة قد انفتحت تحت قدميه.

وتحول يريد الانصراف ، وهو يترنح كالمخمور عندما استوقفه الطبيب ، فهو لم يكن قد أتى فى الواقع لكى يخبره بالحقيقة كما قال ، وانما يدفعه الفضول ، وهو يقول لنفسه انه لن يجد فرصة مناسبة كهذه ، وان الابن سيدفعه امتنانه وعرفانه بالجميل الى ان يفتح له باب المعمل الذى اغلقه أبوه فى وجهه مرتين .

وطلب جيليوم مفتاح المعمل وصعد مع الطبيب . ولو ان هذا الأخير طلب منه ان يريه أى مكان آخر، حتى ولو كان هذا المكان هو الأسطبل أو القبو لتقدمه دون ان يدرى ماذا يفعل .

ولكنه ما ان وضع قدميه داخل المعمل حتى وقف مبهوتا امام المنظر الذى يطالعه ، فقد تغير منظر الغرفة الكبيرة ، ولم يعد يعرفها . وكان ، عندما دخل اليها قبل ذلك بثلاث سنوات ، وكان أبوه قد نصحه عندئذ الا يشتغل بالأبحاث الكيمائية ، والا يمارس اى عمل اذا استطاع ، لأنه سيترك له ثروة ضخمة تمكنه من العيش فى رغد وترف ... فى ذلك اليوم كانت الغرفة نظيفة جدا ، وكل مافيها مرتب ومنسق أما الآن، فقد كانت الفوضى فى كل مكان من الغرفة، كما لو ان اعصارا شديدا قد اجتاحها ، وحطم كل ما فيها ودمره .

وامتلأ قلب جيليوم بالحسرة وهو يرى الخراب الذى حل بالغرفة، وعرف الآن لماذا فعل أبوه كل هذا ، ففى احدى المرات الثلاث التى كان الكونت يخلو فيها الى ابنه ، ويحدثه بقلب مفتوح، تكلم عن عمله بمرارة قائلا ان هذا العمل استلب من حياته كل الغرائز البشرية ، هذا بالاضافة الى كراهيته للعالم الخارجى ، وقد دفعه حبه للعزلة الى تحطيم كل الأدلة التى تؤدى الى اكتشافاته ، مفضلا ان يحمل اسراره معه الى القبر .

وراح يمشى فى الغرفة وهو مذهول . ورأى اخيرا شيئا احترمته

يد أبيه ، ولم تمتد اليه بالتخريب ، وهو دولاب زجاجي به قوارير مملوءة بسوائل مختلفة الألوان . وكان الكونت شديد الاهتمام بالسموم ، وقد وضع فى هذا الدولاب بعض السموم الفتاكة التى لم يستطيع أحد غيره ان يكتشفها أو يعرفها بعد . وكان الدولاب نفسه عبارة عن تحفة فنية ثمينة ،وارتد جيليوم نحو الباب . . . يدفعه الذعر والتقزز الى الخارج .

وتنفس الصعداء أخيرا حين وجد نفسه هو والطبيب خارج الغرفة. واغلق الباب وقد عقد العزم على أن يفى بالوعد الذى قطعه لأبيه بألا يضع قدمه فى هذه القاعة ابدا .

وعندما هبط ، وجد فى الصالون بالدور الأرضى ، أحد قضاة الصلح بفيتوى ، وقال له هذا الأخير فى لهجة مهذبة انه اقبل لوضع الأختام على أوراق الميت اذا لم يعثروا على وصيته وفقا للقانون ، وكان من المجاملة بحيث قال للشاب انه يعرف علاقته الابوية بالفقيد وانه لايشك فى وجود وصية لصالحه ، واختتم حديثه وهو يقول مبتسما انه لابد ان تكون هناك وصية فى أحد الأدراج ، ولكن القانون هو القانون ، وانه قد تكون هناك هبات خاصة ، ولابد له من الانتظار. واسكته جيليوم وهو يريه وصية الكونت وفيها يوصى له بكل ثروته ، فقد انتظر الكونت حتى كبر جيليوم وبلغ سن الرشد لكى يتبناه ويورثه اسمه . وأسرع القاضى بالاعتذار قائلا : ان القانون هو القانون ثم انصرف .

ووجد الشاب نفسه فى الأيام التالية مثقلا بالعمل ، ولم يجد ساعة واحدة لكى يفكر فى موقفه الجديد ، فقد أرهقوه من كل جانب بالعزاءات والالتماسات والاشتراك فى الأعمال الخيرية ، وفى طلب خدمات من اناس لم يستطيعوا ابدا دخول القصر طوال حياة الكونت . ولم يتركوا له ساعة واحدة لكى يفكر فى وضعه الجديد. وانتهى به الأمر الى الاعتكاف فى غرفته بعد أن كلف جنفييف بالنظر فى كل هذه الأمور . وكان الكونت قد اوصى لها بمبلغ لابأس به يتيح لها العيش حتى آخر أيامها فى بحبوحة تامة. ولكنها أخذت ، لفرط الغضب ، ورفضت المبلغ قائلة انها سوف تموت وهى تزاول عملها . والواقع ان قرارها هذا قد ارضى الشاب لأنها ستوفر عليه بذلك متاعب ومشاكل الحياة المادية ، فان ذهنه البطىء والضعيف كان يكره الحركة ، واقل مصائب الحياة كانت بالنسبة له عراقيل ضخمة من الغضب والتقزز .

وعندما استطاع ان يخلو بنفسه اخيرا استولى عليه حزن كبير ، واحس بارهاق أكبر. وكان قد نسي انتحار أبيه بضعة أيام ، فعاد يفكر فيه من جديد ، وراح يرى فى كل لحظة العمل الذى امتد اليه الدمار وتلوث بالدم . واعادت اليه ذكرى هذه القاعة القاسية ذكريات حياته الأليمة ، وبدا له ان هذه المأساة الجديدة مرتبطة بسلسلة الآلام الطويلة التى عذبته قبل اليوم . وتذكر فى قلق الظروف التى احاطت بمولده ، وحداثته المحمومة ، وخوفه وذعره ، وعذاب طفولته ، وحياته كلها التى حفلت بالآلام .

واحس بانه تعيس جدا ، وضاعف من احساسه هذا حبه لمادلين ، وراح يفكر فيها فى شيء من التعبد الدينى ، ورأى انها تعرف هى وحدها قيمته ، وانها تحبه لنفسه . ولو انه سأل نفسه بطريقة أفضل لاكتشف فى نفسه مع ذلك خوفا خفيا من هذه العلاقة بامراة لايعرف ماضيها ولقال لنفسه ان هذا قدره أيضا ، وانه عاقبة من عواقب الأحداث التي تمر بها حياته . بل لعله كان يتراجع وهو يتذكر قصة أبيه هو بالذات ، ولكنه كان بحاجة قصوى الى شخص يحبه بحيث ارتمى كالأعمى فى حب الشخص الوحيد الذى منحه بضعة شهور من الحنان والهدوء . وكان يكتب كل يوم لمادلين خطابات طويلة يشكو لها فيها وحدته ، ويقسم لها ان فراقهما لن يطول . وفكر لحظة فى ان يمضي ويعتزل العالم مع عشيقته فى البيت الصغير بشارع بولونيا ، ثم تذكر الأيام التعيسة التى قضياها فيه ، وخشي الا يجدا فيه سعادتهما السابقة ، فكتب للمرأة الشابة يدعوها الى المجيء توا والانضمام اليه فى فيتوى .

وسعدت مادلين بهذا الاقتراح ، وسرها أن تغادر بيت شارع بولونيا المشحون بذكرى جاك ، فقد كانت تعيش فيه وحدها منذ خمسة عشر يوما ، وتملكها اليأس . واحست بسرور حقيقي وهى تغلق باب البيت ، فقد خيل لها انها سجنت فيه شبح جاك .

وكان جيليوم فى انتظارها فى مانت ، ووقف معها خارج المحطة بضع لحظات ، وعرض عليها الخطة التى رسمها فى ذهنه . قال لها ان تبحث عن بيت صغير على مقربة من قصر نواروود. وان تستقل هى عربة الركاب التى تصل الى فيتوى بصفتها غريبة عن المدينة ، وان تخطره بمجرد أن تجد بيتا تقيم فيه .

واهتدت مادلين ، لحسن حظها ، الى ما تبحث عنه على الفور تقريبا ، فان صاحب الفندق الذى نزلت به كان يملك على بعد

نحو ربع فرسخ من قصر نوارود مزرعة صغيرة بنى فيها بيتا بورجوازيا ، واصطحبها فى اليوم التالى لكى تتفرج عليه . وكان البيت صغيرا به اربع غرف ، أحالت أمطار الشتاء الأخير جدرانه البيضاء الى لون اصفر باهت ، وتحوط به حديقة مسورة . وراق البيت لمادلين ، خصوصا وان صاحبه عرض تأجيره مفروشا الأمر الذى أتاح لها أن تقيم فيه على الفور. وتم الاتفاق بينهما على أن يؤجره لها لمدة ستة شهور نظير خمسمائة فرنك، وبذلك يتبقى لها الف وخمسمائة فرنك أخرى من دخلها ،وهومبلغ تستطيع ان تغطى به نفقاتها اليومية.

وزارها جيليوم فى نحو الساعة التاسعة مساء ، وكانت قد كتبت له فى صباح اليوم نفسه ، واستقبلته فى بيتها الجديد ، فى مرح صبيانى تقريبا . وطافت به كلّ مكان بالبيت ، واصرت على ان تريه الحديقة ، على الرغم من ان الليلة كانت مظلمة ، وهى تقول فى هدوء وكبرياء ان بها أشجار فراولة وبنفسج ، واظن ان بها فجلا كذلك. ولم يستطع جيليوم ان يميز شيئا فى الظلام طبعا ، ولكنه كان يطوق مادلين من خصرها ، ويقبل ذراعيها العاريتين ، ويضحك من سويداء قلبه . وعندما بلغا آخر الحديقة قالت له الفتاة فى لهجة خطيرة : اننى رأيت فتحة كبيرة فى السور ، وتستطيع ان تتسلل منها كل يوم ياسيدى ، حتى لاتورط سمعتى ، وتعرضها للشبهة. واصرت المرأة الشابة على ان يكون دخوله البيت من هذه الفتحة ، وكان قد مضت مدة طويلة لم يذق فيها العاشقان مثل هذه الساعات الحلوة الهادئة .

ولم تخطىء مادلين، فقد كان لابد لها من أن تكون سعيدة فى هذا المكان البعيد ، وقد خيل لها ان حبا جديدا غزا قلبها ... حبا صادقا ، صريحا ، خاليا من كل زيف . كانت صورة جاك ترقد فى بيت شارع بولونيا ، حيث دفنتها مع كل الذكريات الشاقة التى مرت بها . وكانت لا تخرج من بيتها الا نادرا لفرط سعادتها وسرورها . وكان الشىء الوحيد الذى يبهجها هو انها كانت تقول : بيتى .. بيتى .. فى مرح صبيانى ، وكانت تقوم بالطهى ، وتحسب حساب الأطباق التى تأكلها ، وتشعر بالقلق لارتفاع سعر البيض والزبد ، ولم تكن تشعر بسعادة حقيقية الا فى الأيام التى يزورها جيليوم فيها ، وكانت قد أبت أن يأتيها بأية فاكهة من قصر نوارود، فقد كانت تريد أن تتكفل هى بكل النفقات . أسعدها الا تأخذ وان تعطى بدورها . واستطاعت منذ ذلك الوقت ان تحب عشيقها كما

لو كان ندا لها ... حبا حقيقيا لاشائبة فيه ، ولم تعد تشعر بأى خجل ، لأنها لم تعد عشيقة لرجل ينفق عليها لكى تعيش. وكانت ترتمى على عنق جيليوم وهى تقول لنفسها : اننى أبذل له نفسى ولا أبيعها .

فى هذه الكلمات كان يكمن تفسير الحب الحقيقى للعاشقين . وقد دهش جيليوم وافتتن فى نفس الوقت وهو يكتشف فى مادلين ، بهذه الصورة ، امرأة جديدة لم يكن يعرفها ، فقد كانت حتى ذلك الوقت عشيقة له ، اما الآن فقد أصبحت عاشقة ، اى انه كان قد احبها.

وكان يجد فى هذا البيت عطرا جديدا من الأناقة والرقة ، وجوا دافئا لم يتنفسه فى نواروود . ثم انه كان لابد له ان يدخله متسللا ، خوفا من ألسنة السوء ، وكان يأتى خلال الحقول ويجتاز أراض مزروعة ويبلل قدميه فى ظل المروج وهو سعيد ، كتلميذ هارب من المدرسة. وعندما كان يخيل له ان هناك من يراه كان يتظاهر بأنه يتنزه ، ويجمع بعض الأزهار والأعشاب ثم يجرى من جديد ، قلقا . لاهثا ، سعيدا بمتعته المقبلة . وعندما يصل ويتسلل كأحد اللصوص ، من فتحة السور . كان يلقى بأزهاره وأعشابه فى جونلة مادلين التى تنتظره فتسرع باصطحابه الى البيت حيث تقدم له شفتيها ووجنتيها ، بعيدا عن الفضوليين . وكان هذا الهروب ، وهذا العدو ، وقبلات الترحيب ، كان كل ذلك يفتنه يوما بعد يوم. ولو انه كان أكثر انطلاقا وحرية فلعله كان يمل سريعا.

ونسى جيليوم تماما تلك الشهور التى قضاها فى شارع بولونيا ، ثم ان مادلين كانت امرأة أخرى ، فلم تعد تحلم ، وأصبحت تعيش مستيقظة ، وكانت فوق ذلك تحبه. كانت تحبه فى الخفاء ، كالمرأة التى تحافظ على اعتباراتها وسمعتها .

واستمرت هذه الحياة الحلوة فصل الربيع كله ، ومضت الأيام ، هادئة سعيدة ، وراح كل من العاشقين يشكر الآخر لحبه وهنائه الذى راح يتمتع به .

وكانت مادلين قد استأجرت البيت شهر ابريل ، ولم تكن تعرف من الريف الا بضعة أماكن من ضواحى باريس . وكانت اقامتها فى الريف هذه المرة مصدر سرور عظيم ، وتحسنت صحتها وازدهرت ازدهارا كبيرا .

كانت بحاجة الى الهواء النقى والسماء الصافية التى تجعلها تعشق النزهات الطويلة . وكانت تخرج كل يوم تقريبا ، وتمشى فراسخ طويلة ، دون أن تشكو من التعب . وكانت تتواعد على اللقاء

مع جيليوم عادة في غابة صغيرة يقطعها جدول ، كان عشيقهــا يصطاد فيه جراد البحر فيما سبق . وما أن يتلاقيا حتى يتمشيان فوق العشب الندى ، فى هدوء ، تحجبهما الأشجار النامية على الجانبين ، ويتسكعان فىالوادى. وكان الجدول يجرى عندقدميهما ، ويبدو كالخيط الفضى الذى ينساب فوق الرمال ، فى هدوء ، وكان هناك ، من مكان لآخر، شلالات صغيرة يبدو صوتها البللورى كأنه خارج من نادى أحد الرعاة .

كان جيليوم ومادلين يمشيان الســاعات الطويلة تضللهما برودة الماء وصمت الأشجار بلذة رائعة . وكان كل منهمــا يتــأبط ذراع الآخر، ويزدادان اقترابا ، بعضهما ببعض فى الأماكن التى يتكثف فيها الظل . وكانا يلهوان ويمرحان كالأطفال أحيانا ، فيطارد كل منهما الآخر ويلاحقه ، ويتسلقــان السور . وفجأة تختفى المراة الشــابة فى دغل صغير ، ويرى عشيقها طرفا من جونلتها الفاتحة اللون ، ويتظاهر عندئذ بأنه يبحث عنها فى قلق ، ثم يعدو فجأة ويمسك بها ، ويقعان ، ضاحكين ، فوق العشب ، وهى بين ذراعيه.

وكان جيليوم ومادلين يجلسان فى ذلك المكان ويصغيان الى صوت قطرات الماء الرتيب وهى تتساقط وكان فى هذا الصوت هدهدة لانهاية لها ، واحساس غامض بالنعاس والأبدية اللذين يروقان لحبهما السعيد، وشيئا فشيئا يكفان عن الكلام ، وقد غلبتهما رتابة الأغنية المستمرة لقطرات الماء المتساقطة ، ويحسبان انهما يسمعان خفقات قلبيهما ، فيستغرقان فى الأحلام ، ويبتسمان ، ويد كل منهما فى يد الآخر.

وكانت المراة الشابة تأتى ببعض الفاكهة ، فكانت تستيقظ من حلمها ، وتأكل بشهية مفتوحة وتقدم بعضا منها لجيليوم . وكان هذا الأخير يشعر بافتنان كبير وهو يراها جالسة بجواره ، وكانت تبدو له كل يوم أجمل بكثير من سابقه ، وكان يتابع بدهشة تألق صحتها والقوة التى يمدها بها الهواء النقى . وكان يبدو انها كبرت ثانية وتتدفق قوة ونشاطا ، وانها أصبحت فتــاة قوية ، ناهــدة الصدر ، صافية الضحكة . وكانت بشرتها قد اسمرت قليــــلا واحتفظت بشفافيتها ، وأخذ شعرها الأشقر يتهدل على كتفيها ، ويتموج فى انعكاسات مضطرمة. كان كل كيانها ينطق بالصحة والعافية.

وكان جيليوم قد فكر فى الأيام الأخيرة فى ان يعرض على مادلين الزواج ، وقد واتته هذه الفكرة فى احدى المزارع وهو يرى مادلين تداعب أحد الأطفال الذين تعبدهم . وكان قد خطر له انها اذا

حدث وحملت فسوف تنجب له ولدا غير شرعي ، وان ابنه سيكون ابن زنا . . . وكانت ذكريات طفولته تملاه ذعرا ورعبا من هذه العبارة.

ثم ان كل شيء كان يدفعه حتما الى الزواج . وكما قال لجاك فيما سبق فقد كان لابد له أن يحب امراة وحيدة ، وهي أول امراة يلتقي بها وكان لابد له من ان يحبها بكل لباقة وان يقتصر على هذا الحب ، كرها من التغيير وخوفا من المجهول ، وكان قد غفا في حنان مادلين . والآن وقد احس بالدفء ، واطمأن الى هذا الحب ، فقد عقد النية على أن يحتفظ به الى الأبد . كان يروق له ، بذهنه البطيء ، ونعومته ، ان يفكر ويقول ان لدى ملاذا ألوذ به طوال الحياة ... فان الزواج من شأنه ان يبرر ارتباطا كبيرا كان يعتبره منذ وقت طويل أبديا وخالدا .

ولكن مجرد فكرة ان يكون له ولد جعلته يعجل بنهاية متوقعة ومقدرة ثم أقبل الشتاء ، ورأى انه سيحس بالبرد وهو وحده في قصره الكبير المقفر، وانه لن يعيش بعد تلك الأيام الدافئة في احضان عشيقته . وانه لابد له طوال هذه الشهور الطويلة من ان يجري تحت المطر لكي يلتقي بمادلين . ولكن ما أشد سروره ، على العكس اذا ماضمهما سقف واحد . سوف يمضيان الأيام الباردة بجوار المدفأة ، وسيعرفان شهر عسل جديد في مخدع مغلق لايغادراه الا في الربيع التالي لكي يعودا الى الشمس . وكانت رغبته هذه تقوم أيضا على انه يريد ان يحب مادلين في النهار الساطع ويمحنها الاحترام الذى سيحدث فيها اثره ، فقد خيل له انهما لن يتألما بعد ذلك من الفتهما ، ولن يستطيع أحدهما ان يجرح الآخر اذا ما ارتبطا الرباط الدائم الخالد .

ومع ذلك ، فقد كان يرقد في أعماق المشروع الذى يعلل النفس به احساس غامض كان يثير قلقه وتردده . فانه في أثناء الشهور الطويلة التى انقضت لم يستسلم ابدا لمخاوف المستقبل التى ايقظها في نفسه انتحار ابيه . لم تعد الاحداث تثقل عليه ، فان حبه ، بعد كل تلك الهزات بدا له كما لو كان راحة كبيرة ، وتهدئة لآلامه ومخاوفه . ذلك انه كان يعيش عندئذ لحاضره ، تأتيه كل ساعة وتمضي ببهجتها وسرورها . ولكنه ما ان راح يفكر في الغد حتى اعطاه مجهول هذا الغد حمى كادت ان تخنقه . ولعله كان يرتجف على غير وعى منه امام ارتباط ابدى بامراة لايزال يجهل قصتها . ومهما يكن من أمر فقد كان ذهنه مضطربا ، ولم

تكن ترداداته قد تشكلت بعد ، انما كان قلبه هو الذى يدفعه .

وكان قد جاء الى الينبوع وقد عقد العزم على أن يتكلم . وعرض جيليوم عليها مشروعه . وكان صوته يرتجف بعض الشيء ، وبدا كأنه يطلب منها معروفا .

واصغت المراة الشابة اليه مشدوهة وفى شبه ارتياع. وعندما فرغ من حديثه قالت :

ــ لماذا لانبقى كما نحن ؟.. انني لا اشكو، وانا سعيدة ... لن يشعر كل منا بالحب نحو الآخر أكثر مما نشعر به الآن اذا ما تزوجنا . بل ربما نفسد سعادتنا .

واذ فتح فمه لكي يبدى اصراره ، اردفت تقول فى ايجاز:كلا ، حقا ... ان ذلك يخيفني .

وراحت تضحك فى محاولة للتخفيف من حدة كلماتها وغرابتها ، وقد دهشت هى نفسها اذ نطقت بها ، وبكل هذه القوة. والحقيقة ان اقتراح جيليوم سبب لها تمردا غريبا ، فقد خيل لها انه يطلب منها شيئا محالا كما لو انها ليست ملكه هو وانما ملك لرجل آخر غيره . تكلمت وتصرفت كما لو كانت امراة متزوجة ، يطلب منها عشيقها ان تعيش معه كزوجة .

وصدم الشاب فى شعوره ، ولعله كان يسحب اقتراحه ثانية لو أنه لم يحسب انه مضطر الى الدفاع عن قضية حبهما . وتحمس وهو يتكلم ، وشيئا فشيئا نسي انقباض الصدر الذى انتابه عندما رفضت عشيقته طلبه ذلك الرفض البات . وأفاض فى كلماته الحلوة الرقيقة يشير الى الحياة الناعمة الهادئة التى سيعيشانها عندما يتزوجان . وترك قلبه ينساب من بين شفتيه مدة طويلة وهومنحن نصف انحناءة ، فى وضع كله توسل وتدله ، وقال :

ــ اننى يتيم ، وليس لى فى الدنيا غيرك فلا ترفضى ان تربطى حياتك بحياتي والا فسأعتقد ان السماء مازالت تلاحقنى بغضبها ، وسأعتقد عندئذ انك لا تحبينني بما فيه الكفاية لكى تؤمنى هنائى. لو تعرفين كم انا بحاجة الى حبك ، فأنت وحدك التى بعثت فى نفسى الهدوء ، وانت وحدك فتحت لى ملاذا بين ذراعيك ، ولا ادرى اليوم كيف اشكرك . اننى اعرض عليك كل ما لدى ، وهو لا شيء بالقياس الى الساعات الطيبة التي منحتنى وستمنحينني اياها . ولكنني اعرف اننى سأبقى مدينا لك الى الأبد . اننا متحابان ، ولن يزيد الزواج حبنا ، ولكنه سيتيح لنا ان نتحاب علانية . وأية حياة تلك التى

ستكون حياتنا .. ستكون حياة سلام وكبرياء ، وثقة فى المستقبل لا حدود لها ... أرجوك يا مادلين !

كانت الشابة تصغى اليه كما لو كان قد استولى عليها ضيق عجيب ، وفى فروغ صبر مكبوت ، وعلى شفتيها ابتسامة غريبة . وعندما نضب معين عشيقها ، وتوقف وقد جف ريقه لفرط انفعاله لزمت الصمت لحظة ثم قالت فى لهجة لاذعة :

ــ ولكنك لا تستطيع ، مع ذلك ، ان تتزوج امراة لاتعرف قصتها . يجب ان أقول لك من انا ومن أين أتيت ، وماذا فعلت قبل أن اعرفك .

ولكن جيليوم نهض ووضع يده على شفتيها قائلا : اسكتى. اننى أحبك ، ولا أريد أن أعرف المزيد . اننى أعرفك جيدا . ولعلك خيرا منى لأنك أكثر منى ارادة واصلب رايا واشد قوة ، ولايمكن ان تقدم على أى شر . ان الماضي مات ، وانا اتحدث معك عن المستقبل .

وراحت مادلين تناضل حبها العظيم وايمانها القوى ، وعندما استطاعت ان تتكلم اخيرا قالت :

ــ اصغي الى . انك طفل . ويجب ان أتكلم بحكمة وعقل نيابة عنك . انك ثرى وشاب . وستلومنى ذات يوم لأننى تسرعت وقبلت عرضك . وانا لا أملك شيئا . اننى فقيرة ولكننى أحب ان أحتفظ بكرامتى ، ولا اريد أن تأتى فيما بعد وتتهمنى بأننى دخلت بيتك بالدسيسة والخداع . هانت ترى اننى صريحة ... اننى اذا غدوت زوجتك فسوف تقول لي فى اليوم التالىانه كان خيرا لك أن تتزوج فتاة ثرية ، جديرة بك ، تأتيك ببائنة .

ولو أن مادلين ارادت ان تلهب الشاب وتثير حماسه لما وجدت طريقة أفضل ، فان الأسباب التي ذكرتها دفعت الدموع الىعينيه تقريبا . ولم يلبث ان استولي عليه غضب صبيانى ، واقسم أن يقهر مقاومة عشيقته ، وصاح :

ــ انك لاتفهميننى ، وانك لتسيئين الى كثيرا يا مادلين . لماذا تتكلمين هكذا . الا تعرفين فيم أفكر، وما الذى اتمناه منذ سنة.. منذ أن عرفتك . اننى أريد أن أغفو على صدرك ، والا اصحو ابدا . وانت تعرفين تماما ان هذه هى أمنية حياتى ، وتخطئين اذ تنسبين لى آراء غيرى . تقولين اننى طفل ... حسنا ، هذا أفضل ، فانه لايمكن ان تخافى من طفل يسلم قياده اليك .

واستمر يتكلم فى صوت رقيق . واستأنف توسلاته ، وراح يتكلم بقدر ماطاوعه قلبه . وضعفت مادلين ، وخارت قواها ، وتأثرت بذلك الصوت المتهدج الذى يقدم لها ، بهذا التواضع ، الغفران وتقدير العالم . ومع ذلك فقدكان لايزال فى أعماقها شيء من التمرد. وعندما فرغ عشيقها من قوله وهو يقول : « أنك حرة ، فلماذا ترفضين السعادة ؟ » انتفضت وقالت فى لهجة غريبة :

— نعم . اننى حرة .

قال جيليوم : آه ... حسنا . لاتتكلمى عن الماضى بعد الآن . اذا كان فى حياتك حب آخر فان هذا الحب قد مات ... اننى اتزوج أرملة .

وصدمت كلمة أرملة شعورها ، وامتقع لونها شيئا ما ، وارتسم على جبينها القاسى وفى عينيها الرماديتين امارات القلق الشديد وقالت : هلم بنا نعود . ان الليل يهبط . سأرد عليك غدا .

وعادا ، وكانت السماء قد اكفهرت ، وراحت الرياح تصفر فى حزن بين الأشجار ، وعندما غادر جيليوم المرأة الشابة ، ضمها الى صدره فى صمت وهو لايجد ما يقول . وكأنه أراد أن يمتلك كيانها بهذا العناق الأخير .

وقضت مادلين ليلة مسهدة . وعندما الفت نفسها وحدها راحت تفكر فى العرض الذى عرضه عليها عشيقها ... غرتها فكرة الزواج، وان كانت قد اثارت خوفها بعض الشيء . وعندما فكرت فى الحياة الهادئة الكريمة التى عرضها عليها جيليوم استغربت لتمردها كل الاستغراب . وعندما تذكرت كلماته الرقيقة احست بالخجل، لأنها قست عليه وتساءلت أى شعور خفى ذلك الذى دفعها الى أن ترفض زواجا كان يجب أن تقبله شاكرة ، ممتنة وخاضعة . لماذا هذا الخوف ، وهذا التردد . اليست حرة كما قال جيليوم ؟ وما هى تلك الضرورة التى تدفعها الى الازدراء بالسعادة التى لم تكن تحلم بها والتى سعت اليها . وتاهت فى هذه الأسئلة ، ولم تجد فى كبريائها غير شعور مبهم بالضيق. وكان الرد حاضرا ، ولكنه بدا لها سخيفا، ومضحكا ، وراحت تتفاداه ، ولكن الحقيقة انها كانت تفكر فى جاك ، فقد أحست بأن ذكرى ذلك الرجل تستيقظ فى كيانها فى غموض بينما كان عشيقها يحدثها . ولكن لم يكن فى الامكان ان تزعجها هذه الذكرى فان جاك مات ، وهى لاتدين له بشيء ، ولا حتى بأى ندم ، فبأى حق تنبعث فى أعماقها لكى يذكرها بأنه ملكه هو ، والظنون

التي ارتقت اليها فى هذه اللحظة فيما يتعلق بحريتها اثارتها واغضبتها كل الغضب . والآن ، وقد قام شبح حبها الأول راحت تقاومه بكل قواها ، وأرادت ان تقهره لكى تثبت لنفسها انها لم تعد ملكه ، وأدركت على الرغم من ضحكاتها المزدرية ان جاك وحده هو الرجل جعلها تقسو على جيليوم . وكان هذا فى حد ذاته فظيعا ، ولايمكن تفسيره . وعندما بدت لها افكارها بوضوح فى كوابيس أرقها ، قررت بكل عنف طبيعتها ، ان تسكت الميت بأن تتزوج الحى . وغلبها النوم عند الفجر ورأت فى المنام ان الفريق يخرج من الأمواج الهادرة ويأتى لينتزعها من بين ذراعى زوجها .

وعندما جاء جيليوم فى الصباح مضطربا ، وقلقا ، وجد مادلين لاتزال نائمة ، فأخذها بين ذراعيه فى رفق واستيقظت المرأة الشابة مفزوعة ، وارتمت على صدره لتلوذ به وتقول له أننى لك . وكانت قبلات طويلة وعناقا مشبوبا ، وبدا كأن كلا منهما بحاجة الى الاستسلام للآخر ، والى ممارسة الحب معه لكى يؤمن بقوة ارتباطهما .

واهتم جيليوم بعد ظهر اليوم باجراءات الزواج ، وعندما اخبر جنفييف فى المساء بانه سيتزوج سيدة شابة تقيم فى أطراف المدينة نظرت البروتستانتية اليه بعينيها الشريرتين وقالت : ان هذا افضل .

وادرك عندئذ انها كانت على علم بكل شيء ، ولاريب ان هناك من رآه مع مادلين ، ودارت الشائعات فى كل مكان . وجعلته عبارة جنفييف ، هي الأخرى ، يعجل بالزواج .

وكانت بضعة أسابيع كافية ، وتزوج العاشقان فى بداية الشتاء ، وفى شبه تكتم . ورآهما خمسة أو ستة من الفضوليين ، من أهالى فيتوى ، يصعدان المركبة عند خروجهما من دار البلدية ومن الكنيسة ، وعندما عادا الى نوارود ، اعتكفا بعد أن شكرا شهودهما ، وأصبحا فى بيتهما وقد ارتبطا الى الأبد .

الفصل السادس

كانت السنوات الأربع التي تلت هادئة وسعيدة قضاها الزوجان في نواروود . وأقاما في السنة الأولى مشاريع عديدة للسفر ، فقد أرادا أن ينعما بحبهما في ايطاليا ، أوعلى شواطىء الريف ، ولكنهما كانا يؤجلان السفر دائما في آخر لحظة ويتحققان انه لا جدوى من البحث عن السعادة وهي في متناول أيديهما ، ولم ينتقلا الى باريس لأن الذكريات التي خلفاها في بيت شارع بولونيا كانت تثير جزعهما. وكانا يحسبان ، وهما في عزلتهما العزيزة انهما في حمى من شقاء الدنيا ، وتحديا العذاب والألم .

كان جيليوم في منتهى السعادة ، فقد حقق الزواج حلم حداثته، واصبح يعيش الآن في هدوء تام لاتشوبه اية شائبة ... هدوء كله امان وحنان ، فمنذ أن اقامت مادلين في نواروود ، وقد ملاه الأمل وراح يفكر في المستقبل بدون أية رعدة . سيكون المستقبل كما كان الحاضر... رقاد طويل من الحب ... ايام متتابعة ، متشابهة ، حافلة بالسعادة .

وكانت مادلين هي الأخرى تستريح متلذذة من مشاكل حياتها السابقة في هدوء حياتها الحاضرة . لم يعد يجرحها أى شيء . واصبح في مقدورها ان تحترم نفسها وان تنسي عار الماضي ، فقد اصبحت الآن تقاسم زوجها بيته وماله دون ان يبكتها ضميرها ، واصبحت تهيمن على البيت بصفتها زوجة شرعية ، وراقت لها عزلة نواروود ، في ذلك القصر الكبير الأسود الخرب ، ولم تشأ ان يقوم جيليوم باصلاحه وادخال تعديلات حديثة عليه : وانما رضيت فقط أن يقوم بأصلاح مسكن لهما في الدور الاول ، وقاعة الطعام وغرفة الصالون بالدور الأرضي . اما باقى الغرف ، فقد ظلت مغلقة كما كانت ، وانقضت السنوات الاربع دون ان يصعد الزوجان ، حتى ولو مرة واحدة الى الغرف العلوية . كان يحلو للمراة الشابة أن تحس بكل هذا الفراغ حولها ، فقد خيل لها ان ذلك يزيد من عزلتها ويقيها من جراح العالم الخارجي . كانت تنسى نفسها طواعية في القاعة الكبيرة بالدور الأرضي، وكان يسقط من اعلا السقف صمت

يبعث في نفسها الهدوء ، وزوايا هذه القاعة المليئة بالظلال كانت تجعلها تحلم بمساحات كبيرة من الظلمات الهادئة . وفي المساء ، وعلى ضوء المصباح ، كانت تشعر بهدوءكبيرحين تجد نفسها وحدها وسط هذه المساحة اللانهائية . وكانت تفكر أحيانا في احدى هذه الليالي الصاخبة التي قضتها مع جاك ، بشارع سوفلو. كانت تسمع ضجيج العربات الذي لاينقطع ، وترى اضواء المصابيح الغازية التي لاتكاد تبدد الظلام ، وكانت تعيش من جديد ولمدة لحظة في تلك الغرفة الصغيرة بفندق شارع سوفلو التي تعبق بدخان التبغ وبصوت ارتطام الكئوس والضحكات والقبلات. ولم يكن ذلك اكثر من ومضة كنفحة من الهواء الساخن الذي يبعث على التقزز تتلقاها على وجهها ، فكانت تنظر حولها وقد استولى عليها الذعر ثم تتنفس من جديد ، في القاعة الكبرى المظلمة والمقفرة ، وتستيقظ من حلمها الردىء ، آمنة ، متأثرة ثم تعود فتغرق في لذة أكبر في أعماق الظلام والصمت الضاربين حولها . ما احلى هذه الحياة الميتة لطبيعتها المستقيمة الباردة ، بعد هزات الجسد التي القاها القدر فيها . كانت تشكر السقف البارد والجدران الصامتة ، وكل هذا البيت الذي يضمها ، كما لو كان كفنا ، وتمد يديها لجيليوم كما لوكانت تريد ان تشكره ، فقد شفاها اذ أعاد اليها كرامتها المفقودة ، وهو منقذها الحبيب .

وهكذا قضى الزوجان فصول الشتاء في عزلة تكاد تكون تامة ، لا يغادران الدور الارضى ، ويبقيان فيه أياما بأكملها ، يجلسان أمام نار المدفأة ، يفعلان اليوم ما قد فعلاه بالأمس . وعاشا عيشة منتظمة كالساعة ، متمسكين بعاداتهما . باصرار القوم السعداء الذين يخشون أقل هزة ، لايهتمان بشىء ولايشعران بأى ملل ، أو على الأقل يبدو لهما شعور الملل الذى يهدهدهما كأنه سعادتهما بالذات.

ثم ما ان تأتى الأيام الجميلة حتي يفتحان النوافذ ويهبطان الى الحديقة وبدلا من أن ينفردا في القاعة الكبيرة كانا يختفيان في أعماق دغل من الأدغال ، لا تتغير حياتهما . وعاشا هكذا خلال الفصول الجميلة ، وحيدين ، منعزلين ، هاربين من كل ضجة . وكان جيليوم يؤثر الشتاء وجو البيت الدافىء الرطب ، أما مادلين فكانت تعبد الشمس الساطعة التي تكوى قفاها وتمنح دمها خفقات هادئة وقوية.

وهكذا تعاقبت الفصول . وفي أول سنة من زواجهما أصابهما سرور كبير، فقد انجبت مادلين طفلة ، استقبلها جيليوم بامتنان كبير وهو يشكر الله على انه وهبه هذه الطفلة من زوجته لا من عشيقته.

ورأى فى تأخير امومة مادلين نية حسنة من السماء ، وملأت لوسى الصغيرة حياتهما ووحدتهما ، ورغم ان مادلين كانت قوية الا انها لم تستطع ان تغذيها فاختارت لها مرضعة شابة كانت تعمل فى خدمتها قبل زواجها . وكانت ابنة لرجل يدير احدى المزارع المجاورة للبيت الصغير ، فأخذت الطفلة معها لكى تقوم بارضاعها . وكان أبواها يذهبان لرؤيتها كل يوم . وفيما بعد ، بعد أن كبرت لوسى ، كانا يتركانها فى المزرعة فى بعض الأحيان وقد راق للطفلة ان تعيش هناك حياة صحيحة سليمة . وكانا يريانها فى كل أصيل ، عندما يأتيان الى البيت الصغير ، فيأخذانها معهما ، وكانا يحسان بمتعة كبيرة فى وضع هذه الرأس الشقراء العزيزة وسط ذكرياتهما . كانت الطفلة الصغيرة تضفى رائحة الطفولة على الغرفة الضيقة التى تحابا فيها ، وكانا يستمعان فى غبطة ونشوة الى ثرثرتها وهذرها وهما يستعيدان الماضى . وعندما كانوا يجتمعون ثلاثتهم فى عزلتهم ، كان جيليوم يأخذ لوسى على ركبتيه ، ويحلو له أن يتأملها وهى تضحك ، بشفتيها الورديتين ، وعينيها الزرقاوين ، وكان يقول فى هدوء : مادلين... هذا هو الحاضر ... وهذا هو المستقبل .

وكانت مادلين تبادله الابتسام فى هدوء ، فان الأمومة أتمت اتزانها الطبيعى . فحتى ذلك الوقت كان قد بقيت لها خشونة فتاة وتصرفات جنونية لعاشقة . وهكذا تركت الفتاة المكان للأم وللمرأة المخصبة فى تمام جمالها . أما الشىء الذى أكسب مادلين مشيتها المتزنة ، وشعورها بالأمان والصحة ، وصفاء بشرتها انما هو الارتياح الداخلى لكيانها ، فقد احست بأنها أصبحت حرة ، وانها تعيش كريمة معززة ، وراضية عن نفسها ، فحياتها الجديدة كانت وسطا مناسبا تنمو فيه بازدهار .

كان جيليوم يجد راحة كبيرة فى قوة مادلين الباسمة . عندما كانت تضمه الى صدرها ، كانت تعطيه من قوتها . كان يحلو له أن يضع رأسه على صدرها وأن يسمع دقات قلبها المنتظمة . كانت هذه الدقات هى التى تنظم حياته . وان امرأة مضطربة وعصبية كانت حرية بأن تلقيه فى كرب وهم شديدين ، هو الذى يرتعد جسده وذهنه عند أقل صدمة . أما نفس مادلين المنتظم فكان يزوده بالقوة ، على العكس من ذلك ، فقد غدا رجلا ، ولم يعد ضعفه الا رقة ، فقد امتصت المرأة هذا الضعف ، وأصبحت تحمله الآن فى نفسها .
وكما يحدث عادة فى كل زواج فان القوى يمتلك الضعيف ، وقد

اصبح جيليوم منذ ذلك اليوم ملكا لتلك التى تهيمن عليه... اصبح ملكا لها بطريقة غريبة وعميقة . كان يتلقى منها تأثيرا مستمرا له افراحه واتراحه ، ويتغير كلما تغيرت طبيعتها . اما هو، فكان يتلاشى ولا يفرض نفسه ابدا ، واصبح هدوءه فى المستقبل رهن بهذه المراة التى اصبحت حياتها حياته قسرا ، فاذا عاشت فى سلام ، عاش فى سلام الى جوارها بدوره . اما اذا ربعت فانه يجن رعبا مثلها ، فقد تداخل جسداهما وقلباهما تداخلا تاما .

على ان الحياة كانت تتفتح امامهما فى يسر وهدوء ، وكان الزوجان ينظران امامهما دون خوف ، فقد طمأنتهما اربع سنوات من السعادة ضد كروب الحياة وصروفها ، واحس جيليوم بالأمان لاستسلامه ولاحساسه بانه يتنفس ويكبر فى ارادات زوجته .

وخلال السنوات الأولى ، زارهما عدد قليل من الناس ، فقد كانا لايعرفان احدا ،، ويتصادقان بكل صعوبة ، ولا يحبان الوجوه الجديدة . وكان من بين ضيوفهما المثابرين مسيو دى ريو وزوجته، فقد كانا يقضيان الشتاء فى باريس ويأتيان لقضاء الصيف فى فيتوى. وكان مسيو دى ريو فيما سبق صديقا للكونت وكان رجلا مسنا ، ارستقراطى الهيئة ، جاف الطباع ، شديد السخرية ، تنبسط شفتاه الشاحبتان فى بعض الاحايين فى ابتسامة رقيقة ، حادة كحد السيف. وكان مصابا بصمم يكاد يكون كليا ، ولكنه وضع فى نظرته كل مضاء الحاسة التى تنقصه ، فكان يرى اتفه الأشياء ، حتى تلك التى تقع خلف ظهره ، على انه كان يتظاهر بانه لايرى شيئا محتفظا بمجرفته ، وتكاد ثنية شفتيه تنم على ما يرى ويسمع .. عندما كان يدخل فى مكان ما ، كان يجلس فى مقعد ، ويبقى جالسا فيه ساعات باكملها ، كما لو كان ضائعا فى عمق صمته الأبدى . وكان يلقى براسه على مسند المقعد ، ويظل جامد الاسارير ، ويغمض عينيه نصف اغماضة ، ويبدو كما لو كان نائما ، ولكنه كان ، فى الواقع، يتابع الحديث ويدرس سحنة المتحدثين . وكان هذا يطربه بصورة غريبة ، ويجد فى هذه التسلية اغتباطا كبيرا ، ملاحظا الأفكار الشريرة القذرة التى يخيل له انه يراها على جبين هؤلاء الناس الذين يعتبرونه كملامة يستطيعون امامها تبادل اخطر الأسرار دون خوف . لم يكن هناك بالنسبة له ابتسامات ولا تعبيرات رقيقة وجميلة ، وانما كانت هناك تكشيرات . ولما كان لايسمع الأصوات فقد كان يجد التوترات الفاجئة وهيئة الوجوه الجنونية شيئا فظيعا. وعندما

يتكلم شخصان امامه ، كان ينظر اليهما فاحصا ، مدققا كما لو كان ينظر الى وحشين كشرا عن أنيابهما ، وكان يقول لنفسه : من منهما سيأكل الآخر . وقد أكسبته هذه الدراسة الدائمة والملاحظات والتكشيرات التى كان يراها فجأة على وجوه الرجال ازدراء واحتقارا كبيرين . وكان يقول أحيانا انه سعيد لأنه أصم ، ولأنه يستطيع ان يعتزل الجميع فى ركن ما ، وتحولت كبرياء جنسه الى سخرية لاترحم ، فقد كان يبدو انه يعتقد انه يعيش وسط قوم من الدمى التى تتخبط فى الأوحال كالكلاب الضارية التى تزحف فى جبن أمام السياط ، وتنهش بعضها البعض من أجل عظمة تجدها بين النفايات وكانت قسمات وجهه الميتة المترفعة تحتج ازاء تكشيرات الوجوه الأخرى ، وضحكاته الحادة كانت زمجرة رجل تطربه الخسة والنذالة ويأنف من أن يغضب من وحوش تجردت من العقل .

ولكنه كان يشعر مع ذلك بشىء من الصداقة نحو الزوجين الشابين ،بيد أن صداقته منهما لم تجرده من حبه للسخرية . فعندما كان يأتى الى قصر نوارود ، كان ينظر الى صديقه جيليوم فى شىء من الرثاء ، فلم يكن يفوته أبدا افتتانه بمادلين ، وبدا له منظر رجل يجثو امام امرأة منظرا بشعا . على ان الزوجين كانا لايتحدثان الا قليلا ، ويحتفظ وجهاهما بجمود نسبى ، وكانا يبدوان له أعقل مخلوقين التقى بهما حتى الآن . وكان يأتى لزيارتهما بسرور . أما فريسته وموضوعه الأبدى للملاحظة والسخرية المريرة فكانت زوجته هو بالذات .

كانت هيلين دى ريو ترافقه الى قصر نوارود فى أغلب الأحيان ، وكانت قد تجاوزت الأربعين . وكانت امرأة قصيرة ، مستديرة ، ذات لون أشقر باهت ، أخذت تميل الى السمنة ، الأمر الذى كان يشق عليها . ولك أن تتصور دمية صغيرة شاخت وغدت عجوزا . كانت متكلفة ، ومتصابية ، لها ترسانة ضخمة من التبويزات والغمزات والابتسامات ، تتلاعب بوجهها كما لو كان أداة رائعة يجب ان يفتن انسجامها السماوى الجميع . لم تكن لتترك سحنتها فى هدوء أبدا ، فتارة تطرق برأسها بطريقة متيمة ، وأخرى ترفعها الى السماء فى وجد وصبابة ، تديرها وتحركها برفق طبقا لمقتضيات الهجوم أو الدفاع . وكانت تقاوم بضراوة ، الشيخوخة التى تزيدها سمنة وتجعد وجهها ، الذى تدهنه بالمراهم والزيوت باستمرار ، وتحزم وسطها بالمشد حتى لتكاد أن تختنق ، وتتصور بذلك أنها

استعادت شبابها ، وما كان ذلك الا ليزيدها سخرية الناس بها ، ولكن المرأة العزيزة كانت لها رذائلها وعيوبها ، فقد كانت تعتبر زوجها كما لو كان رجلا من خشب ، تزوجته لكى تصل عن طريقه الى المجتمع . وكانت تعتبر ان لها عذرها اذا كانت لم تحبه اطلاقا، وتقول لخلصائها احيانا «وكيف اتكلم عن الحب مع رجل لايسمعنى؟» وتتظاهر عندئذ بأنها امرأة تعيسة غير مفهومة . والواقع انها كانت تواسى نفسها عن سعة . لم تشأ أن تضيع عبارات الحب التى لاتستطيع ان تلقيها على مسيو دى ريو ، فكانت تلقيها على أناس لهم آذان صاغية . وكانت تختار عشاقها دائما من الفتيان ، فيما بين الثامنة عشرة والعشرين من اعمارهم على الأكثر. كانت تلغ فى الرذيلة ، وكانت لها شهية مفتوحة دائما الى هذا النوع من العشاق ، ولا تفتقر ابدا الى المعجبين ، وتلتقط عشاقها من أى مكان ، من بين الشبان الأغنياء الذين لايتمنى كل منهم الا ان يعشق امرأة تكبره سنا ومتزوجة . وكانت سنوها الأربعون ، وحركاتها المتصابية وبشرتها البيضاء الباهتة التى يفر منها الرجال الناضجون ، كان لكل ذلك سحره الذى لا يقاوم بالنسبة للشبان دون العشرين .

كان مسيو دى ريو يعتبر زوجته آلة صغيرة غريبة . كان قد تزوجها فى يوم من ايام ضجره ، وكان كفيلا بأن يطردها فى اليوم التالى لو انه راى انها تساوى غضبه . كان يشعر بمتعة كبيرة وهو يرى سحنتها وحركاتها المتصابية لاكتساب قلوب أولئك الفتية

كان يكتشف تحت تكشيراتها فضائح وحماقات كانت تجعله يعتبرها بهيمة من واجبه أن يجلدها بالسياط ، ولكنه آثر أن يتسلى بدراستها واحتقارها ، وراح يعاملها كما لو كانت حيوانا مستأنسا ، ولم يعد يحفل برذائلها ، واضعا شرفه فوق مستوى فضائح مثل هذه المخلوقة ، وراح يشهد فى احتقار عجيب وسخرية باردة مشهد الفتية وهم يختلفون الى مخدع زوجته . وبدا كأنه يروق له ان يكشف سخريته بالرجال وانكاره لكل الفضائل باحتماله بطريقته الخاصة هذه القذارات التى تقع تحت سقف بيته بالذات ، وتظاهره بقبول عهر زوجته كأنه شىء طبيعى وعادى . كان كأنه يقول بصمته وابتسامته القاسية الساخرة « ان الدنيا جحر بشع للفسق والفجور، وقد وقعت فيه ولابد لى من البقاء به » .

وكانت هيلين لا تحفل بزوجها ابدا ... فكانت تغازل عشاقها امامه ، لاقتناعها بأنه لايسمعها . وكان مسيو دى ريو يقرأ كلماتها

على شفتيها ، ويعامل الشبان فى أدب كبير وهو يجد فى ارتباكهم تسلية كبيرة له ، ويرغمهم على ان يصرخوا فى أذنيه بمجاملاتهم ، ولم يكن يبدى أية دهشة أبدا وهو يرى صالونه يزخر كل شهر بوجوه جديدة ، وعندما يخلو الصالون منهم كان يشكو من هجرانهم، محتجا بأنهم لايهتمون بالقوم المسنين . وذات يوم ، قل فيه عشاق زوجته ، أتاها بفتى فى السابعة عشرة من عمره ، الا انه كان أحدب ، فأسرعت هيلين وطردته. وكان مسيو دى ريو يبدو أحيانا قاسيا ، شديد القسوة وكانوا يقولون عنه فى فيتوى انه زوج مخدوع ، وانه يقضى كل وقته فى ضبط زوجته وهى فى حالة تلبس مع أحد الفتيان الهاربين من السكلية ، وانه يكتفى بأن يقول للفتى عندئذ « انك مازلت صغيرا ياسيدى ، وليس هناك مايجبرك، ولابد انك شجاع حقا » ولكن مسيو دى ريو ماكان بالرجل الذى يهتم بضبط زوجته وهى فى حالة تلبس ، فقد كان يحرص على أن يتظاهر بانه لا يرى ولا يسمع ، فان ذلك كان يجعله يحتفظ بعليائه وبموقفه الهادىء الشديد الهدوء ، فقد كان يشعر بأكبر متعة وهو يرى حماقة زوجته التى كانت تحسبه من السذاجة والغفلة بحيث لايشك فى شيء . وكان مسيو دى ريو هو الشخص الوحيد الذى كان يدخل معمل الكونت وهو على قيد الحياة ، وكانا يقضيان فيه أياما بأكملها ، وبدا ان انتحار الكيمائى لم يثر دهشة صديقه ، وقد عاد فى الربيع التالى الى نوارود بدون أى انفعال ، ولكنه عاد هذه المرة ترافقه زوجته ومعها فتيانها .

وكان قد مضت بضع شهور على زواج مادلين وجيليوم عندما جاءتهما هيلين بعشيقها الجديد ، وهو شاب من أهالى فيتوى أسكنته فى قصرها لكى يساهم فى سحر التصييف وفتنته ، واسمه تيبورس روبار ، وكان تيبورس هذا كبير المطامع ، كان يقيم فى فيتوى ، ولكنه كان يريد ان يشق طريقا فى باريس ، وكان يتمتع بجانب كبير من المكر والدهاء ولا يحجم عن الاقدام على كل جبن ونذالة يمكن ان يفيداه. وكان واحدا من هؤلاء الانذال الذين يقولون « سوف أصبح مليونيرا واجمع عشرة ملايين » والذين ينتهى بهم الأمر دائما الى جمع الملايين العشرة . وعندما اتخذته مدام دى ريو عشيقا حسبت انها امام طفل كعادتها ، ولكن الحقيقة ان الطفل كان فاسدا ، عرف كل الرذائل ، واذا كان يتظاهر بالبراءة فذلك لأنه كان يرى ان من فائدته أن يبدو خجولا جاهلا. وهكذا التقت هيلين

بأستاذها أخيرا . وكان يبدو ان تيبورس قد القى بنفسه فى طريقها بطيش ونزق ، ولكن الواقع انه كان يحسب حسابه منذ وقت طويل وهو يقول لنفسه ان علاقة بمثل هذه المرأة كفيلة ، اذا عرف كيف يستغلها ، بأن تفتح له كل الأبواب . وكان يلبى جميع شهواتها الداعرة ، وهو يعرف انه سوف يجعلها ذات يوم ، ان طوعا وان كرها ، آلة حظه وسعده ، فى اليوم الذى ستصبح فيه عبدته المطيعة . ولولا هذا الحساب من ناحيته لسخر بهيلين منذ لقائهما الأول ، فقد كانت هذه المرأة العجوز ، ذات الميول القذرة تبدو له بشعة ، وكان يخرج من بين ذراعيها متقززا ، ولكنه كان شابا شجاعا ، وما كان ليحجم عن القاء نفسه فى النهر لكى يلتقط قطعة من ذات العشرين فرنكا .

وكانت مدام دي ربو مفتونة جدا بصديقها الشاب ، فقد كان يدللها بمجاملاته وثنائه . وكان يطيعها طاعة عمياء . ولم يسبق لها ان التقت بشاب غر مثله يعرف كل هذه الرذائل . وكانت تعبده كل العبادة بحيث راح زوجها يبذل جهده لكى لايفاجئهما وكل منهما فى أحضان الآخر . وعندما ادخلته قصر نوارود رأى فى هذه الخطوة أول خدمة تؤديها له فقد كان فيما سبق فى المدرسة مع جيليوم ، وكان واحدا من أشد جلاديه قسوة . وكان يصغره بسنتين أوثلاث فكان يحلو له ان يتفنن فى تعذيب المنبوذ لا لشىء الا لكى يتذوق الفرحة الشديدة التي يشعر بها وهو يسوم الغرام لطفل أكبر منه سنا . ولكنه ندم الآن على ماسبق منه ، وعلمته هذه الغلطة انه لايجب ان يضرب غير الفقراء لأنه لن يحتاج اليهم ، وقد حاول قبل ان يعرف هيلين ، ان يجد وسيلة لدخول قصر نوارود . ولكن محاولاته ذهبت أدراج الرياح ، فقد كان جيليوم لايرد على تحيته تقريبا ، ولكن عندما دخل مع عشيقته راح يتملق فريسته السابقة ويدعوها دى فيارج ببساطة ، وهو يشدد الضغط على اداة النبل كما كان يشدد الضغط على عبارة « ابن الزنا » عندما كان يرميه بها فى وجهه . وكانت خطته تقوم على ان يستقر به المقام فى فيتوى وعلى مخالطة الأثرياء النبلاء ، وقد راق له ان يستخدم مادلين وجيليوم فى سبيل ذلك ، بل انه حاول ان يغازل المرأة الشابة فقد كان يعرف فى غموض قصة غرامها الخفي ، وقيل له انها ستكون سهلة المنال ، وانه اذ استطاع ان يوقعها فى حبائله ، فستكون هناك امرأتان فى خدمته بدلا من امرأة واحدة ، وخطر له ان يتلاعب

بمنافستهما بمهارة لكى يشحذ غيرتهما ، ويضع حبه فى المزاد . ولكن مادلين تلقت اعترافاته فى ازدراء كبير بحيث اضطر ان يتخلى عن مشروعه .

وهكذا راى الزوجان تيبورس يختلف الى قصرنواروود على مضض، فقد تكشفت فى أعماق ذلك الشاب الماكر بلاهة ريفية وعجرفةحمقاء بحيث لم يكن جيليوم يطيقه الا بكل مشـقة . وعنـدما كان ذلك الشاب المغرور يدعوه بصديقه ، فى شيء من الرضا الشخصى،كان يشعر بأنه يود لو أن يلقى به من البـــاب . ولاريب انه ماكان ليتأخر عن ذلك لولا انه خشى ان يجر الفضيحة على مسيو دى ريو ، ولهذا احتمل هو ومادلين ذلك الدخيل بكل ما أمكنهما من صبر. على ان كلا منهما كان ضائعا فى أمان حنانه لايهتم بضيوفه الا قليلا، وكانا ينسيان كل شيء عنهما بمجرد ان يغلقا بابهما عليهما .

وكان الزوج والزوجة والعشيق يأتون كل احد لتمضية السهرة فى نواروود ، وكانت هيلين اول من يدخل ، متأبطة ذراع تيبورس، وتتبعهما مسيو دى ريو فى وقار وعدم اكتراث ويهبط الجميع بعد ذلك الى الحديقة . وكنت ترى عندئذ على بساط الخضرة ، حيث يجلسون ، نظرات المرأة المتدلهة ، وملاطفات الشاب المحترمة والزوج جالس امامهما ، وهو مغمض العينين نصف اغماضة ، وكان قد ادرك ، من ابتسامات الشاب القاسية التى ترتسم على شـفتيه . طبيعته الحقيرة ونواياه الشريرة . ورأى ببصيرته ان زوجته وقعت بين يدى أستاذ خبير سـوف ينتهى به الأمر الى ان يضربها ذات يوم ، وكان يستمتع مسبقا بالمأساة التى لابد أن تقع ، ويخيل اليه أنه يرى مخالبا فى أصابع العشيق المتملقة. وراح ينتظر تلك الساعة التى تطلق فيها هيلين صيحة الفزع والقلق وهى تحس بمخالبه تنغرز فى عنقها . سوف تقتص الرذيلة نفسها منها ، وسوف ترتعد وتتذلل عند قدمى فتى وهى التى طالما تغذت باللحم اللدن ، وراح مسيو دى ريو يحلم فى صمت وسخرية بهذا الانتقام الذى أرسلته اليه الصدفة . وكان وجه الشاب البارد ، وهو يتظـاهر بالرقة والرفق يخيفه كل الخوف ، وكان يعامله فى ود كبير ويعنى به كما لو كان كلبا شرسا يدربه على الهجوم على الناس .

وخلال اربعة فصول ، اختلف الزوار الى نواروود . وقد احتجز والد تيبورس ابنه فى فيتوى، حيث الحقه بالعمل عند أحد المحامين، واستبد القلق بالشاب وهو يرى انه لايستطيع أن يتبع عشيقته الى

باريس . وتألمت هيلين لألمه بحيث قضت فصل الشتاء مرتين فى فيتوى ، ومهما يكن فانها كانت تسترده كل ربيع ، فى حماس ، فقد تعلقت به ، ولم تجد عاشقا آخر يرضي رغباتها . وبدا تيبورس يكرهها بطريقة غريبة . وعندما جاءت فى آخر ديسمبر ، ود لو ان يصم أذنيه ، فلم يعد يهتم بقبلاتها المقززة . وتملكه اليأس لأنه لايستطيع استغلالها ... اربعة فصول من حب لايجدى ولا يفيد مع هذه المرأة ، التى تكاد تكون فى عمر أمه . أثارت حنقه الى حد انه فكر فى أن ينتقم ويريح نفسه بأن يضربها ويهينها ويهجرها لو لم يحسن تاجر المواشي صنعا ويموت بنزيف فى المخ . وبعد خمسة عشر يوما من ذلك كان الشاب روبار يمضي الى باريس ، فى نفس العربة مع هيلين ، وهو اشد ما يكون احتراما واكثر رقة عن ذى قبل ، ومسيو دى ريو يتأملهما بعينيه النصف مغمضتين .

وفى الأوقات التى كان آل دى ريو لايأتون فيها الى القصر ، وخصوصا خلال ليالى الشتاء ، كان جيليوم ومادلين يجدان نفسيهما وحدهما مع جنفييف . وكانت هذه الأخيرة تعيش معهما على قدم المساواة ، وتشاركهما نفس المائدة ، وتعيش معهما فى نفس الغرف . وكانت قد بلغت فى ذلك الوقت التسعين من عمرها ، وكانت لاتزال معتدلة القامة ، جافة ، ولكنها كانت لاتزال تحتفظ بكل حماس ذهنها الكئيب . وقد رق انفها وغارت عيناها واملأ وجهها بالغضون حتى بدا أشبه بقناع مخيف . وكانت تأتي فى المساء ، بعد أن تفرغ من عمل النهار وتجلس فى نفس الغرفة التى يجلس فيها الزوجان ، ومعها كتابها ، فتفتحه وترتل المزامير فى صوت خافت ، تحت ضوء المصباح الأصفر ، وتظل تقرأ هكذا الساعات الطويلة ، فى صوت أصم متتابع لايقطعه غير حفيف الصفحات وهى تقلبها من وقت لآخر ، وتردد جدران الغرفة الفسيحة صداه . فيبدو كأنه ينبعث من أفواه خفية مختبئة فى أعماق ظلمات السقف .

وكانت مادلين تشعر فى بعض الليالى بذعر خفي وهى تسمع بعض العبارات التى ترددها جنفييف . وكان يطيب لهذه الأخيرة ان تختار من أسفار العهد القديم تلك الآيات التى تتكلم عن الفظائع والأهوال وعن النار التى وعد الله بها الأشرار ، وكانت تتلو هذه الأسفار فى نوع من الغضب المكبوت ، وهى تكاد تطير فرحا من غضب الله القوى الجبار ، وتصفه وهو يزلزل الارض بمشيئته ؛ ويعاقب بذراعه القاسي المخلوقات والأشياء . وعندما كانت تأتى عند ذكر الجرائم

والحرائق كانت تبطيء فى قراءتهـا ، لـكي تتـذوق أهوال الجحيم وصرخات السماء العادلة التى لاترحم ، وتظن لفرط انفعالها ونشوتها انها تتلقى على كتفيها قطرات حامية من امطار سودوم .
وارهقت جنفييف بذهنها القاسي مادلين كل الارهاق . وكان لون هذه الأخيرة يمتقع ، ويستولى عليها الشحوب ... لقد عاشت فى الاثم سنة ، وقد حسبت ان الله غفر لها وانها نالت صفحه بحب جيليوم وتقديره ، ولكن هاهي ذى تسمع ، وسط امنها وسـلامتها كلمات قاسية عن العقاب وعن السعير الذى ينتظر الآثمين . الا ينسى الله الآثام أبدا ؟ وهل يجب ان ترزح الى الأبد تحت وزر خطيئـة شبابها ؟ هل لابد لها من أن تدفع دين التكفير ذات يوم ؟.. وقعت هذه الأفكار فى حياتها الهادئة وحملتها على التفكير فى المستقبل فى قلق شديد ، وراحت ترتعب فى هـدوئها الحالى وتخشى ان تتزلزل الأرض تحتها ، وان تبتلعها هوة سحيقة . وكانت ترتعد خوفا حين تفكر فى زلتها وتخشى ان تعرفها البروتسـتانتية المتعصبة فتصب عليها جام غضبها ، وكانت تتصور أحيانا ان المراة العجوز تنظر اليها بطريقة غريبة فتطرق براسها عنـدئذ ، ويصطبغ وجههـا وترتجف كالآثمة التى لا أمل لها فى الصفح أو الغفران .
وعندما كانت تجد نفسها فى غرفة النوم مع جيليوم ، كانت تقول لزوجها وعلى شفتيها ابتسامة مغتصبة :
ـ انني طفـلة ، وقد أفزعتنى جنفييف اليوم ...كانت تدمدم بأشياء فظيعة . الا يمكن ان تمضي وتقرأ أسفارها فى مكان آخر ؟
وكان جيليوم يضحك عندئذ ويقول بكل بساطة : اوه ، قد يغضبها هذا ، فهى تظن انها تنقذ روحينا باشراكنا معها فى تلاواتها . ومع ذلك فانني سأطلب منها غدا ان تقرأ بصوت منخفض .
وجلست مادلين على حافة الفراش شـاردة البصر ، وبدا كأنها ترى المناظر التى أوحت بها تلاوات المتعصبة ، وتمتمت تقول فى بطء :
ـ انها تكلمت عن الدم وعن الغضب . وهى لا تحس بتلك الطيبة السمحة التى يحس بها من يتقدم بهم العمر . انها قاسية. كيف يمكن ان تكون بمثل هذه القسوة وهى تعيش بيننا ، فى سـعادتنا وفى أمننا ؟.. حقا ياجيليوم ، هناك لحظات تخيفنى فيها هذه المراة.
وضحك الشاب من جديد وقال وهو يأخذ زوجته بين ذراعيه :
ـ اى حبيبتى مادلين . انك عصبية هذا المساء ، نامى واطرحى عنك هذه الأفكار السوداء . ان جنفييف عجوز مهووسة ، وتخطئين

اذا أنت اهتتمت بتلاواتها الكئيبة .

أجابته المراة الشابة : نعم . أحيانا ... عندما لا أتميز كلماتها ، ويبدو صوتها كما لو كان همهمة الريح .. ولكن ، يالها من قصص مرعبة ويالها من جرائم وعقوبات .

استطرد جيليوم يقول : انجنفييف مخلصة بطبيعتها ، وهي تجنبنا مشاكل كثيرة بادارتها كل شيء في البيت . انها شهدت مولدى ومولد أبي... هل تعرفين انها بلغت من العمر أكثر من تسعين عاما ، وانها مازالت قوية ونشيطة ؟.. انها ستظل تعمل حتى بعد أن تبلغ المائة . يجب ان تحبيها يا مادلين . انها خادمة قديمة بالبيت .

ولكن مادلين كانت لاتصغى اليه ، فقد استغرقت في حلم مزعج ، ثم قالت في شيء من القلق فجأة : هل تظن ان الله لايغفر الذنوب ؟

ودهش زوجها واستولى عليه الحزن في وقت واحد ، وعاد يقبلها وهو يسألها متأثرا لماذا تشك في غفران الله . ولم تجبه المراة بشيء مباشرة ، وانما قالت : ان جنفييف تقول ان السماء بحاجة الى البكاء والنحيب .. وانه ليس هناك غفران أبدا .

وكان هذا المشهد يتكرر كثيرا ، وعلى كل حال فقد كان هو الرغدة الوحيدة التي تخرج الشابين من حياة الهدوء التي يعيشان فيها . وقضيا السنوات الأربع الأولى من زواجهما على هذه الصورة ، في عزلة تقطعها زيارات آل دى ريو ، وفي سعادة ما كانت لتلاوات جنفييف ان تزعزعها تماما .

وكان ذلك في بداية السنة الخامسة ، في الأيام الأولى من شهر نوفمبر ، وكان تيبورس قد رافق مدام دى ريو الى باريس . وتأكد جيليوم ومادلين انه لم يعد هناك مايزعجهما ، وتأهبا لقضاء فصل الشتاء في القاعة الكبيرة الهادئة التي عاشا فيها في أمان اربعة فصول رديئة . ومرت بهما لحظة فكرا فيها ان ينتقلا الى باريس وان يقيما في بيتهما الصغير بشارع بولونيا ، ولكنهما أجلا هذه الرحلة الى السنة التالية ، وأخذا يفعلان ذلك كل سنة ، اذ لم يجدا ضرورة لمغادرة فيتوى . وعاشا شهرين ، حتى يناير ، عيشة مقفلة تطربها ثرثرة ابنتهما التي راحت تكبر ، ويضمهما أمان تام عقدا العزم على الا يصحوا منه أبدا .

الفصل السابع

اضطر جيليوم ، فى منتصف شهر يناير ، الى الذهاب الى مانت لقضاء عمل عاجل لم يكن يستطيع أن يعهد به الى أحد ، وكان المفروض ان يأخذ منه كل الامسية ، فاستقل المركبة وقال لمادلين انه سيعود فى نحو الساعة الحادية عشرة . وانتظرته المراة الشابة مع جنفييف .

وبعد العشاء ، بعد أن رفعت الصحاف ، اخذت البروتستانتية كتابها كعادتها وفتحته كيفما اتفق وبدات تقرأ . وكان ان انفتح الكتاب على قصة الخاطئة التى ذرفت دموعها فوق قدمى المسيح ، فغفر لها يسوع خطاياها وقال لها ان تمضى فى سلام . وكان من النادر ان تختار المراة المتعصبة مثل هذه الآيات من اسفار العهد الجديد فان قصة التوبة والغفران التى تفيض بالرافة والرقة لم تكن لترضى نفسيتها القاسية القاتمة . ولكنها فى تلك الليلة ، سواء أكان الكتاب قد انفتح صدفة على قصة من قصص الرحمة او انها تاثرت بفكرة غامضة على غير وعى منها فانها راحت تتلو قصة « ماريا مادلين » فى خشوع ورفق تقريبا .

وارتفع صوتها فى صمت القاعة وراحت تقول : « وكانت هناك امرأة قد اخطأت وعاشت حياة كلها شرور وآثام وجاءته وهو جالس أمام المائدة فى بيت الفريس ومعها اناء من المرمر مملوء بالزيت الزكى . ووقفت خلف المائدة ، عند قدم يسوع ، وراحت تبكى وترش قدميه بدموعها ، وتجففها بشعرها ، ثم تقبل قدميه وتدهنهما بالزيت .

وكانت مادلين قد بذلت جهدها لكى لاتسمع ، خاصة وان بقاءها طوال الامسية معها بمفردها قد افزعها . وكانت قد جلست هى نفسها بجوار الدفاة واخذت تقرأ ، منتظرة عودة جيليوم فى صبر . ولكنها عندما سمعت جنفييف تذكر قصة الخاطئة التائبة التى غفر لها المسيح حتى انتبهت ، وراحت تصغى وقد تملكها انفعال شديد . واسترسلت جنفييف فى تلاوتها ، وخيل لمادلين ان التوراة تتكلم عنها هى بالذات وعن عارها وعذابها وذكريات حبها ، فقد كانت

هذه هي قصتها ... الم تجثو عند قدمى جيليوم ، أو لم يغفر لها هذا الاخير؟ واحست بعذوبة كبيرة تتغلغل فى كيانها ، وتذكرت حياتها السابقة ، وعلاقتها بجاك . وذكرى ذلك الرجل التى مازالت تحرقها ، والتى لم تعد تسبب لها غير شىء خفيف من الندم . لقد اصبح رماد هذا الحب باردا ، وجاءت نسمة من الرحمة وذرته فى الهواء ، وطهرت روحها كما طهرت روح سميتها .

وكانت البروتستانتية تقول فى هذه اللحظة : ثم قال يسوع للمراة : ان الرب غفر لك خطاياك .. وابتسمت مادلين عندئذ ابتسامة عريضة ، وشملها سرور عظيم ، واحست بدموع الشكر تترقرق فى عينيها ، وقالت تخاطب جنفييف فى سعادة ظاهرة :

ـ هذه قصة جميلة ، ويسرنى اننى سمعتها . يجب ان تقرئيها لى احيانا .

رفعت المتعصبة راسها ، ورمت المراة الشابة بنظرة قاسية ولم ترد . وارتسمت على وجهها امارات الدهشة والاستياء ازاء ذوقها العجيب لقصص العهد الجديد الرقيقة . واستطردت مادلين تقول:

ـ اننى افضل هذه القصة عن الصفحات القاسية التى تقرئينها احيانا . ان الغفران شىء جميل ، والخاطئة ويسوع يقولان لك ذلك .

نهضت جنفييف غاضبة ، وبدت فى عينيها نظرة قاتمة ، ثم اطبقت كتابها فى عنف وصاحت : ان الرب لايغفر الخطيئة ابدا .

نطقت بهذه العبارة فى تعصب شديد جمد الدم فى عروق مادلين، وخيل للمسكينة انمعطفا من الرصاص قد احاط بكتفيها ، واستولى عليها يأس شديد وراحت تفكر قائلة : ان هذه المراة مجنونة ! ..

ورددت البصر حولها فى ذعر . وكانت الغرفة الفسيحة تهجع فى ضوء المصباح الاصفر الباهت ، والنار تتوهج فى المدفاة . وبدا للمراة الشابة انصمت الغرفة وضوءها الباهت يخفيان كارثة توشك ان تلم بها .

وكانت جنفييف قد مضت الى النافذة اثناء ذلك ، وعادت الى مكانها وهى تقول : لقد اقبل جيليوم .

انساب على الواح النافذة ضوء أحمر ، وسمعت مادلين عربة تقف أمام الباب ، وعلى الرغم من انها كانت تنتظر عودة زوجها فى فروغ صبر ، قبل ذلك بدقائق ، فانها بقيت جالسة مكانها وهى تنظر الى الباب فى قلق عجيب ولم تخف للقائه ، فقد امتلأ قلبها بالحزن دون أن تدرى سببا لذلك .

ودخل جيليوم على عجل . وكان يطير من الفرح . والقى قبعته في فوق أحد المقاعد ، وجفف جبينه على الرغم من أن الجو في الخارج كان باردا . وراح يسير في الغرفة جيئة وذهابا . وتوقف أخيرا أمام مادلين . وقال : حدسي من وجدت في مانت ؟

وكان يبدو متلهفا لكي يفضي إليها بسره على الفور. ولكن المراة الشابة لم تجبه ، وظلت جالسة مكانها ، فان سعادة زوجها وفرحه الشديد سببا لها شيئا من الخوف . وعاد وهو يقول : حدسي... حاولي ... وان كنت واثقا انك لن تعرفي .

قالت أخيرا : لن أستطيع طبعا .. فليس لنا صديق في مانت .

ــ انك مخطئة ، فقد التقيت بصديق فعلا... وهو صديقي الوحيد ... بل خير صديق لي .

قالت وقد تملكها ذعر غامض : صديق ؟

ولم يستطع جيليوم ان يكتم النبأ اكثر من ذلك ، فأخذ يدي زوجته وقال وهو يكاد ينفجر من الانتصار : انني وجدت جاك .

لم تصرخ ، ولم تأت بأية حركة ، وانما امتقع وجهها امتقاعا شديدا ، وتمتمت : هذا ليس صحيحا ... فان جاك مات .

ــ أوه ، كلا ... انه لم يمت ... انها قصة عجيبة .. سأرويها لك .. عندما رأيته في محطة مانت تولاني منه رعب شديد فقد ظننته شبحا .

وراح يضحك كالطفل السعيد وكان قد تخلى عن يدي مادلين اللتين سقطتا على ركبتيها من جديد . وبقيت مغلوبة على أمرها تحت وقع الضربة ، لا تستطيع النطق ، شبه ميتة ، وودت لو ان تنهض وتهرب ، ولكنها لم تستطع ان تتحرك . وفي ذهولها وجمودها لم تعد تسمع غير كلمات جنفييف : « ان الرب لايغفر الخطيئة أبدا » وهذا قول صحيح ، فان الرب لم يغفر . كانت قد أحست بأن كارثة سوف تقع ، وراحت تنظر الى الجدران في غباء ، كما لو كانت لاتعرف الغرفة الفسيحة وبدا لها ان أمان هذه الغرفة قد أصبح فظيعا ، الآن وقد راح الرعب يطرق نافوخها بضربات حادة. وحدقت في البروتستانتية اخيرا وهي تحدث نفسها قائلة : ان هذه المراة هي القدر ، وهي التي بعثت بجاك من جديد ، والقته بيني وبين زوجي .

واقترب جيليوم من جنفييف وقال وقد أعماه الفرح : يجب اعداد الغرفة الزرقاء .

سألته المرأة العجوز : وهل يأتي جاك غدا ؟
وكانت تتكلم عن الجراح دائما كما لو كان فتى صغيرا .
ودوى سؤالها فى ذهن مادلين فنهضت أخيرا ، واعتمدت على مسند مقعدها وهى تترنح وقالت فى صوت محموم : ولماذا يأتي غدا ؟ انه لن يأتي طبعا ... فقد رأى جيليوم فى مانت ، وهذا كل ما كان يريد ، وقد مضى الى باريس الآن ، أليس كذلك ؟.. لاريب ان لديه أعماله وان هناك أشخاصا يريد أن يلتقى بهم .
تمتمت بهذه الكلمات وهى لاتدرى ما تقول. وقهقه جيليوم وقال:
ـ ولكنه هنا . انه سيدخل بعد لحظة . هل تظنين اننى تركته. انه يقوم الآن بحل لجام الحصان الذى أصيب بجرح أظنه بالغا . ان الطرقات فظيعة والليل حالك جدا .
ثم مضى ففتح النافذة وصاح : هيا ياجاك . اسرع .
ورد عليه صوت قوى فى وسط ظلام الفناء يقول : نعم.. نعم..
ووقع هذا الصوت فى قلب مادلين وقع المطرقة ، فتهالكت فوق مقعدها من جديد ، وهى تتنهد فى صوت مكتوم بدا كما لو انها تحتضر. شد ماتود لو ان تموت الآن ! ماذا تقول لجاك عندما يدخل ، وماذا يكون موقفها بين هذين الأخوين ؟.. زوج اليوم وعشيق الأمس . كادت ان تجن وهى تفكر فى الموقف الذىسيقع. لسوف تبكى من الغيظ والألم ، وتدفن وجهها بين يديها فى حين يولى جاك وجيليوم عنها متقززين . لسوف يغمى عليها وهى لاتجرؤ على ان تلوذ بين ذراعي زوجها ، مدركة فى يأس بأنها ألقت عارها كهوة سحيقة بين صديقى الطفولة ، وراحت تقول : جاك هنا !.. سوف يدخل بعد لحظة ... وكانت كل لحظة تمر تبدو دهرا من القلق بالنسبة لها . وحدقت فى الباب . وأخذت تخفض جفنيها عند اقل حركة لكى لاترى الداخل. ولم يدم هذا الموقف أكثر من دقيقة طبعا ولكنه شمل آلام حياة بأكملها .
واستأنف جيليوم سيره جيئة وذهابا وهو فى شدة المرح . ولكنه لم يلبث ان رأى شحوب وجهها فاقترب منها قائلا : ماذا بك ؟ .
تمتمت : لا أدرى . اننى كنت متعبة طوال الأمسية .
ثم قامت بجهد ونهضت ، واستدعت ما بقى لها من طاقة لكى تهرب .. وتؤجل التفسير الرهيب . وقالت فى صوت ثابت :
ـ اننى سأمضى الى غرفتى ، فان صديقك سوف يحتجزنا كثيرا

لتبادل الحديث ، وانا بحاجة الى النوم . ان راسى تنفجر. يمكنك ان تقدمه لى غدا .

وكان جيليوم يشعر بسعادة لا توصف وهو يفكر فى تقديم زوجته الى صديقه ، باعتبارهما الشخصين الوحيدين اللذين يحبهما . وقد ساءه التوعك المفاجىء الذى الم بمادلين ، فقد راح يحث جواده فى خشونة وغلظة طوال الطريق من مانت . ووقع الجواد المسكين فى حفرة والتوت ساقه ؛ ذلك انه أحس برغبة كبيرة فى ان يبلغ نواروود ، وان يدفع باب غرفة الطعام متصورا ، فى حماس سروره وابتهاجه ، المنظر المؤثر الذى سيقع . وخطر له لمجرد لحظة ان يقدم جاك لزوجته على انه رجل غريب ، وان يستمتع بدهشة مادلين عندما تعرف اسم ذلك الغريب .. ورأى نفسه ، بعين الخيال ، وهو يجمع بين يدى مادلين وجاك وان يقول لزوجته هذا أخوك ، وللآخر: هذه اختك ، فليحب كل منكما الآخر ، ولنتحاب جميعا حتى آخر رمق فينا .

واصر لكى تبقى زوجته ، فقد شق عليه ان يؤجل الى الغد استمتاع القلب الذى ظل يحلم به منذ انطلاقه من مانت . ولكن مادلين كان يبدو انها تتألم حقا فتركها تنصرف . وكانت تهم بالخروج من الباب المؤدى الى الردهة فسمعت وقع أقدام ، فارتدت الى الخلف فجأة ، وفى فزع ، كما لو كانت تريد الافلات من هجوم مفاجىء ، ثم أسرعت بالخروج من باب صغير يؤدى الى غرفة الصالون .. وما كادت تغلق الباب خلفها حتى دخل جاك .

وقال هذا الأخير يخاطب جيليوم : انجوادك فى حالة يرثى لها ، وانا طبيب بيطرى تقريبا واظن انه لن يعيش .

وكان يتكلم وهو يردد البصر حوله فى الغرفة فى فضول ، فهو الذى كانت له مغامرات كثيرة مع النساء ، وعرف من الحب اشكالا وانواعا ، واراد أن يعرف اية امرأة تلك التى استطاعت أن تملك قلب صديقه الرقيق الضعيف ، وادرك جيليوم سؤال صديقه الصامت فقال : ان زوجتى متعبة قليلا ، وسوف تراك غدا .

ثم تحول الى جنفييف ، وكانت لاتزال بالقاعة ، وقال : اسرعى واعدى الغرفة الزرقاء ، فلا ريب ان جاك فى غاية التعب .

وكانت البروتستانتية قد لاحظت انفعال مادلين الشديد ، فبقيت فى الغرفة يدفعها فضول كبير ، فقد كانت تحس منذ وقت طويل، بذهنها الغامض المدقق بالخطيئة عند المرأة الشابة ، فقد كانت

تفوح من تلك المخلوقة الجميلة القوية ، ذات الشعر الأشقر والشفتين المتوردتين رائحة شهوانية جهنمية . وعندما تغيرت ملامح مادلين عند سماعها بعودة جاك ، وثرثرت فجـأة ، اقتنعت جنفييف بأن هناك شيطان يملكها هو الذى يرغمها على هذه التكشيرات المؤلمة قسر . وخيل لها اخيرا انها ترى الوحش الفظيع الذى يختفى تحت هـذه البشرة العاجية ، وما كانت لتشعر بدهشة كبيرة لو انها رأت جسد المرأة الشابة الفاتن يتبدل الى ضفدع فظيع . واذا كانت لم تفهم المأساة التى تهز المسكينة فقد أدركت الخطيئة التى تثقل عليها ، ولهذا صممت على أن تحرص على مراقبتها لـكى تحول بينها وبين الحاق الضرر ، اذا ما حاولت ان تدخل الى قصر نوارود الشيطان الذى خرج منه بخروج روح مسيو دى فيارج من مدفأة المعمل .

وعقدت النية على ان تصعد لكى تعد الغرفة الزرقاء عندما اخـذ جاك يديها الجافتين فى مرح ، واعتـذر لها بانه لم يرها عنـدما دخل . وجدد معرفته بها . وراح يجاملها على سحنتها الجميلة ، وقال لها انها عادت شابة من جديد ، وافلح فى اعادة الابتسـام الى شفتيها الشاحبتين . وعندما خرجت جنفييف ، جلس الصـديقان امام المدفأة التى خمدت ضراوتها ، وقال جيليوم وهو يبتسم :

ــ انك متعب الى حد ان النوم يكاد يغلبك وانت واقف ، ولن استبقيك كثيرا . سوف تفرغ جنفييف من اعداد غرفتك حالا. آه. أيها الصديق ! ما أجمل ان نلتقى من جديد ! فلنتحدث الآن ،كما كنا نفعل فيما سبق ، أمام هذه المدفأة ، حيث كنا نجلس لنصطلى بعد عودتنا من صيد جراد البحر .

ابتسم جاك بدوره . وأخذ الصديقان يتحدثان عن الأيام الخوالى، وعن الحاضر والمستقبل ، ويستعيدان ذكرياتهما وآمالهما .

وكان جيليوم قد أرهق صديقه طوال رحلتهما من مانت الى القصر، وراح يستجوبه عن الطريقة التى نجا بها من الغرق ، وعن صمته الطويل ، وعما ينوى ان يفعل بعد ذلك. وقد روى له جاك ماحدث له ، وراح يرد على اسئلته واستفساراته دون تعب أو ملل .

ذلك ان الجريدة التى قرأها جيليوم اخطأت ، فقد نجا رجلان من الغرق ، وهما الجراح وبحار شاب ، كان من حسن حظهما ان تعلقا بزورق راحت الأمواج تدفعه ، وكان من المؤكد ان يموتا جوعا إن لم تقذفهما الرياح نحو الشاطىء . وهناك القت بهما الأمواج على الصخور بكل قسوة بحيث لقى البحار حتفه على الفور. أما جاك

فقد أغمى عليه بعد ان تمزقت ضلوعه تقريبا . ونقل الى بيت مجاور ، وبقى بين الحياة والموت مايقرب من سنة . وقد أوشك الطبيب الجاهل الذى كان يعالجه ان يقتله أكثر من مرة ، وعندما شفى لم يعد الى فرنسا وانما استأنف رحلته الى الهند الصينية ، حيث التحق بعمله ، وكتب الى عمه مرة واحدة ، ووضع فى نفس المظروف رسالة لجيليوم ، ولكن هذه الرسالة لم تصل الى الشاب لأن العم المسكين مات تاركا لابن أخيه دخلا سنويا يقدر بنحو مائة الف فرنك . وضاعت رسالة جاك ، ولم يحاول هذا الأخيران يمسك القلم بعد ذلك لأنه كان شديد الكراهية للحبر والورق شأنه فى ذلك شأن الرجال الذين يحبون الحركة . ولم ينس صديقه وانما راح يؤجل من يوم الى آخر الكلمات القلائل التى ينوى ان يرسلها اليه . ثم لم يلبث ان قال لنفسه فى غير اكتراث انه سوف يلتقى به عند عودته الى فرنسا . ولم يحفل بالميراث الذى آل اليه ، وكان يعاشر عندئذ امرأة صينية فتنه جمالها . ولكنه لم يلبث أن ملها ، ومل وظيفته هى الأخرى فعاد الى باريس ، ووصل الى برست أمس . وكان ينوى أن يبقى يوما واحدا فى فيتوى لأنه كان يزمع الذهاب الى طولون لزيارة صديق له مريض فى المستشفى سبقه فى العودة للوطن فى باخرة أخرى ، وكان هذا الصديق قد انقذه من ورطة، وراى من واجبه ان يذهب ويسهر بجانبه فى فراش مرضه.

وأدهشت كل هذه التفاصيل جيليوم كل الدهشة ، وخيل اليه انه يستمع الى احدى قصص الف ليلة وليلة . وماكان ليتصور أبدا ان مثل هذه الأحداث يمكن أن تقع فى مثل هذه المدة الوجيزة .

واستمر الصديقان يتحدثان فى ود ومرح . وصاح جيليوم :

ــ كيف هذا ؟.. الا تبقى معى غير يوم واحد ؟.. كيف تأتى وترحل هكذا من جديد ؟.. يمكنك ان تبقى هنا أسبوعا على الأقل.

اجابه جاك : هذا مستحيل . سأعتبر نفسى اننى أقدمت على جريمة اذا انا تخليت عن هذا الصديق ، وتركته وحده فى طولون.

ــ ولكنك ستعود ؟

ــ طبعا . بعد شهر ، أو ربما بعد خمسة عشر يوما .

ــ وهل تبقى معى بعد ذلك ؟

ــ سأبقى معك ياعزيزى جيليوم ... سوف اكون لك تماما . واذا اردت فسأقضى الربيع المقبل. ولكننى فى انتظار ذلك سأستقل القطار غدا . امامك يوم فافعل بى ما تريد .

ولكن جيليوم لم يكن يصغى اليه . كان ينظر الى صديقه فى حنان ، ويبدو انه يعيش فى حلم سعيد . وقال اخيرا :

ــ اسمع ... اننى أرى حلما تستطيع تحقيقه . تعال واقم معنا . ان القصر كبير بحيث اننا نرتعد احيانا من البرد ، ونصف الغرف شاغرة ، وكانت تثير فزعى فيما سبق ، ومازالت تسبب لى ضيقا غامضا . ولكن يخيل لى أن قصر نوارود سوف يكون عامرا اذا أنت أتيت للاقامة به. ويمكنك ان تشغل دورا بأكمله اذا أردت، وستعيش فيه كما يحلو لك . كل ما اطلبه منك هو أن تقيم معنا ، وان تملأ ضحكاتك القصر. ان ما أعرضه عليك هو هناءنا وسعادتنا وسلامنا وأمننا الدائم . آه . لو تعرف دفء المكان الذى يقيم فيه عاشقان سعيدان ! الا تشعر بالرغبة فى ان تستريح فى هذا المكان النائى ؟.. تعال معنا واقم فى هذا القصر ، وامض فيه سنوات بعيدا عن صخب الدنيا وضجيجها . تعال وتذوق رقادنا ، وسترى أنك لن تريد أن تصحو ابدا . ستأتينا بمرحك وسنعطيك من احلامنا . سابقى اخاك ، وستغدو زوجتى أختا لك .

وكان جاك يصغى وهو يبتسم الى كلمات جاك التى تفيض بالانفعال والتأثر. وكان كل كيانه ينطق بالسخرية والتهكم . وصاح يقول ردا على عرض صديقه : ولكن ... هل نظرت الى ؟ .

واخذ المصباح وادناه من وجهه ، وكان قد فقد رقته ووسامته، وبدا جافا ، خشنا ، فان رياح البحر واشعة الشمس لونته وجعلته يبدو بلون الطوب . بدا أن حياة الجراح القاسية قد اكسبت قسماته خشونة وغلظة ، وانه كبر عن ذى قبل ، وغدا اكثر سمنة . وعاش جاك حياته عن سعة طوال سنى الخدمة بحيث لم يعد يشعر بحاجات القلب ولكنه عجز عن أن يفهم الصداقة المشبوبة التى يتكلم جيليوم عنها . كان يتوق الى حياة تفيض بالملذات الفعلية ... حياة مجردة من كل رابطة يقضيها هنا وهناك فى دفء المضاجع ، وحول اشهى الموائد . ولم يكن صديقه قد فحصه جيدا فأخذته الدهشة وهو يراه قد نضج بهذه الصورة ، وتغلغل فى سمنته ، ولم يعد هو نفسه غير طفل ضعيف بجواره .

واجابه فى قلق متوقعا ماسوف يقول : حسنا ... اننى انظر اليك .

قال جاك وهو يضحك ضحكة صغيرة : ولا تجدد عرضك الآن ياعزيزى جيليوم ، اليس كذلك ؟.. لسوف اصاب بنزيف فى المخ

قبل ان تنتهى ... تزونى .
ــ ابدا ... ابدا ... ان السعادة لا تقتل .
ــ ولكن سعادتك لن تكون سعادتى على الاطلاق أيها الفر الساذج .
سيكون هذا البيت قبرا لى ، ولن تنقذنى صداقتك من الملل القاتل الذى ساحس به فى هذه الغرف الشاغرة التى تتحدث عنها . اننى صريح ، واعرف اننا لايمكن ان نتخاصم أو أن نتنازع .
واذ رأى ان رفضه أحزن جيليوم أردف يقول : ولكننى لاأقول اننى لا اقبل ضيافتك . سآتى لزيارتك ، وأقضى معك شهرا من وقت لآخر ، وقد سبق ان قلت لك اننى سآتى للاقامة معك فى الصيف المقبل ، ولكن ما ان يأتى فصل الشتاء حتى أسرع الى باريس لكى اصطلى بجوها فلا أستطيع ان أؤمن نفسى ضد الجليد هنا ...
جرح صوته ومرحه القموى جيليوم المسكين الذى لم يستطع ان يبقى هادئا وهو يرى حلمه العزيز ينهار . وسأله قائلا :
ــ وماذا تنوى أن تفعل فى باريس ؟
أجاب جاك : لا أدرى . لا شىء بدون شك . اننى أشتغل منذ وقت طويل ، والآن ، وقد ترك لى عمى الطبيب دخلا كبيرا فاننى سأستمتع بحياتى تحت أشعة الشمس ، اوه ، لن اشعر بأى ضيق من تمضية الوقت . سأتناول أطيب الطعام وأشهاه ، وسأشرب الخمر بلا ماء ، وسأتخذ من العشيقات ما أريد ..
وانفجر ضاحكا ، فهز جيليوم راسه وقال : ولكنك لن تكون سعيدا ، لو كنت مكانك لتزوجت ولاتيت هنا ، فى هذا المكان الهادى حيث السعادة اكيدة ... انظر الى هذا الصمت الكبير الذى يحيط بنا ، والى نور هذا المصباح الهادىء ... هذه هى حياتى ، وانها لحياة حلوة جميلة ، تلك التى تستطيع أن تحياها هنا فى هذا الهدوء التام لو ان قلبك يفيض بالحب ، ولو ان هناك من تشملها بحبك وتقضى معها أيامك القادمة ... تزوج ، وتعال معنا .
بدت فكرة الزواج والاعتزال فى بيت ريفى شيئا مضحكا وغريبا للجراح السابق وصاح يقول :
ــ آه . ماهذا الغرام المشبوب أيها الصديق ؟ ان من يسمعك تتكلم هكذا يخيل اليه انه ليس هناك من يحب على وجه الأرض غيرك . ولكن جميع الأزواج ليسوا على غرارك طبعا ، ولو اننى تزوجت فقد اضرب زوجتى بعد ثمانية أيام على الرغم من اننى لست شريرا ، يجب أن تفهم أن الدم الذى يجرى فى عروق كل منا

ليس واحدا . انك تحترم المرأة وتقدسها تقديسا مضحكا ، اما انا فاعتبرها مجرد متعة لذيذة لا أكثر . واذا أنا تزوجت واعتزلت هنا فانني لأرثى للمخلوقة المسكينة التى سأسجنها هنا معى .

هز جيليوم كتفيه وقال : انك تظلم نفسك ياصديقى . سوف تعبد زوجتك فى اليوم الذى تنجب لك فيه ولدا . لا تسخر من احترامى المضحك ، وتبا لك اذا كنت لا تحترم المرأة ، فلا يجب ان يحب المرء غير امرأة واحدة طوال حياته ، ولابد لهما من أن يعيشا فى هذا الحب المشترك .

قال جاك فى شىء من السخرية : هذه عبارة اعرفها جيدا ، وقد سبق ان قلتها لى ، ونحن نصطاد عند البحيرة ، وأرى انك لم تتغير. وسأرد عليك بنفس الرد الذى سبق ان رددت به عليك ، فأنا الآخر لم اتغير. اننى افهم الحب بطريقة أخرى ، وان الرباط الأبدى يخيفنى ، وقد تفاديت طوال حياتى التعلق بامرأة بالذات، واننى أدبر أمرى لكى اشتهى كل النساء ولكى لا أحب امرأة معينة . ان للذة متعتها وحلاوتها ياعزيزى الراهب .

وامسك لحظة ثم قال فجأة بصوته الخشن المرح : وانت ؟.. هل انت سعيد مع وزجتك ؟

وكان جيليوم يهم بأن يتكلم ويترافع فى سبيل حبه الخالد ، ولكن هذا السؤال الخاص أيقظ مشاعره الحلوة التى عرفها طوال السنوات الأربع الماضية ، وهدأ من حدته ، وأجاب فى صوت رقيق :

ـ اوه ، نعم . اننى سعيد ... سعيد جدا . لايمكن أن تتصور مبلغ الهناء الذى انعم به والذى ترفض انت ان تتذوقه . انه هناء لانهاية له . ويبدو لى اننى غدوت طفلا ووجدت أما . اننا نعيش منذ اربع سنوات فى غبطة تامة . وكنت أود لو ان تكون معنا ، لكى تتعلم كيف تحب . ان هذا الصمت الذى يخيفك ، وهذا الظل الذى يروعك أرقدنا فى حلم الهى . ولن نستيقظ منه أبدا ياصديقى . واننى لعلى يقين من ان سعادتنا ستبقى الى الأبد .

وكان يتكلم وجاك ينظر اليه فى فضول . كان يشعر برغبة كبيرة فى ان يسأله عن زوجته ، تلك الانسانة الطيبة التى رضيت ان تغرق فى مثل هذا النهر من اللبن . قال : هل زوجتك جميلة ؟ .

اجابه جيليوم : لا أدرى. اننى احبها كثيرا ، وسوف تراها غدا .

ـ هل التقيت بها فى فيتوى ؟

ـ كلا . وانما التقيت بها فى باريس ، واحب كل منـا الآخر ، وتزوجتها .
وبدا لجاك ان احمرارا خفيفا تصاعد الى خدى صديقه ، وحدس الحقيقة فى غموض ، ولـكنه لم يكن بالرجـــل الذى يتوقف فى استجواباته ، فعاد يقول : هل كانت عشيقتك قبل أن تتزوجها ؟
أجاب جيليوم فى بساطة : نعم ... لمدة سنة .
وقف جاك ، وراح يمشي فى الغرفة فى صمت ، ثم عاد فتوقف أمام صديقه وقال فى لهجة خطيرة :
ـ انك كنت تصغى الى فيما سبق ، عندما كنت أرجوك ، فدعنى أستعيد الآن دورى القديم ، وان اعظك لحظة واحدة . انك ارتكبت حماقة كبيرة ياصديقى ، فان المرء لايجب ان يتزوج عشيقته ابدا . انك لاتعرف شيئا عن الحياة ، وسوف تدرك غلطتك ذات يوم وتتذكر قولى هذا . ان مثل هذا النوع من الزواج جميل ولكنه لايدوم . انه يبقى بضع سنوات ، ثم يكره كل من الزوجين الآخر بقية حياته .
نهض جيليوم بدوره وقال فى حدة فجأة : اسكت . انت تعرف اننى أحبك كثيرا ، ولكننى لا أريد ان تحكم علينا كما تحكم على الغير . سوف تندم على كلماتك هذه عندما تراها .
أجابه الجراح السابق وهو لايزال محتفظا بلهجته الخطيرة : بل اننى أسجنها منذ الآن ، اذا أردت . لنقل ان التجربة قد جعلتنى متشككا ، واننى لا افهم شيئا فى افراطك فى عواطفك ، اننى تكلمت عن واقع احساسى ، وعلى كل حال ، فقد فات الاوان لكى اسدى اليك نصائحى ، ولـكن ســوف يأتى الوقت الذى تتأكد فيه من قولى هذا .
وساد صمت شاق . واقبل أحد الخدم فى هذه اللحظة فقال انهم فرغوا من اعداد الغرفة الزرقاء ، فاستعاد جيليــوم ابتســامته ، وبسط يده الى صديقه فى حركة ودية رقيقة وقال :
ـ اصـعد ونم الآن . سوف يطلع النهـار غدا وترى زوجتى وابنتى لوسي . اصعد ... سوف اهديك واحملك على الزواج من فتاة صالحة ، وسوف ينتهى بك الأمر الى أن تأتى وتقيم معى فى هذا البيت العتيق ، ان السعادة صبورة وسوف تنتظرك بين جدرانه .
قال جاك وقد فاضت عواطفه : لا تحقد على بسبب ماقلت لك . اننى لا أريد الا سعادتك ... وانت سعيد ، اليس كذلك ؟
وصعد السلم فى طريقه الى الدور الأول وهو يقول ذلك . وأجابه

جيليوم مبتسما : آه . نعم . ان الجميع سعداء هنا... الى الغد.

وعندما عاد الى غرفة الطعام رأى مادلين واقفة ، معتدلة القامة فى منتصف الغرفة . وكانت المرأة الشابة قد سمعت كل الحديث الذى دار بين الصديقين ، وكانت قد بقيت خلف باب الصالون ، وقد سمرها صوت جاك فى مكانها ... هذا الصوت الذى طالما هز كيانها ، وراحت تتابع حديث الرجلين وهى تتذكر حركات واشارات عشيقها القديم ، ولم يعد للباب الذى يفصل بينها وبينه وجود ، فقد خيل اليها انها تراه واقفا أمامها بشحمه ولحمه ، وانه يتصرف كما كان يتصرف فى ذلك الوقت الذى كان يضمها فيه الى صدره فى غرفة شارع سوفلو . وسبب لها وجود هذا الرجل بالقرب منها لذة مريرة ، وأحست بحلقها يجف وهى تسمع ضحكاته، وبجسدها يلتهب بالحمى التى كان أول من عرفها بها . كانت تشعر بميل غريب اليه، فى ذعرخفى ، وودت لو ان تهرب، ولكنها لم تستطع. كانت تتذوق متعة كبيرة على غير ارادة منها اذ راته يبعث امامها فجأة . وانحنت أكثر من مرة فى حركة غريزية لكى يمكنها انتراه بطريقة أفضل . وبدت لها الدقائق القليلة التى بقيت فيها مكانها ، معتمدة بيديها على الباب دهرا من العذاب . وراحت تفكر وتقول : لو وقعت فسوف يخف كل منهما الى وسأموت عندئذ من الخجل. وأصابت بعض عبارات جاك قلبها فى الصميم ، وعندما قال انالمرء لايجب ان يتزوج عشيقته أبدا راحت تنتحب ، كاتمة دموعها خوفا من ان يسمعها .

وعندما مضى الصديقانالى السلم ، بذلت جهدا كبيرا وهىتقول لنفسها انه لابد لها ان تنتهى منهذا الأمر، ورأت انمنالمستحيل، بعد أن سمعت ما سمعت ان ترضى بهذا الموقف حتى صباح الغد ، فقد تمردت طبيعتها المستقيمة ، وعادت الى غرفة الطعام ، وكان شعرها الأشقر قد تهدل فوق كتفيها ، وامتقع وجهها امتقاعا شديدا ، وتوتر كل عضو من أعضائها ، وجحظت عيناها كما لو كانت قد أصيبت بالجنون . ودهش جيليوم عندما وجدها كذلك عند عودته ، وأخافه منظرها واسرع يقول :

ــ ماذا بك يا مادلين ؟ الم تنامى بعد ؟

أجابت فى صوت أجش وهى تشير الى غرفة الصالون : كلا.كنت هناك .

وتقدمت خطوة نحو زوجها ، والقت بيديها فوق كتفيه وحدقت

فيه بعينيها الباردتين وسألته : اجاك هذا صديقك ؟ .
أجاب جيليوم مشدوها : نعم . وانت تعرفين ذلك جيدا . حدثتك عن الرابطة القوية التي تربط بيننا . ان جاك اخى ، وأريد أن تحبيه كما لو كنت أختا له .

وعندسماعهاكلمة اخت ابتسمت ابتسامة غريبة ، واطبقتعينيها لحظة ثم رفعت حاجبيها وقد ازداد شحوبها وامتقاعها ، وقويت عزيمتها وقالت : وتريد أن يشاركنا حياتنا ، وأن يأتى للاقامة معنا لكى يكون الى جوارك دائما ؟

قال الشاب : طبعا . هذه هى أعز أمنية لى . سأكون سعيدا جدا معكما . سأعتمد عليكما ، وسأعيش مع الشخصين الوحيدين اللذين احبهما ... اقسمت انا وجاك ، ونحن صغيرين على ان نشترك معا فى كل شىء .

وابدا لم تقززها فكرة الاشتراك بينجاك وجيليوم كما قززتها الآن. واضطرت أن تلزم الصمت ، وجف حلقها ، وما كانت لتجد غير الصراخ لكى تعترف بالحقيقة . وفى هذه اللحظة دخلت جنفييف الغرفة دون أن يلقى الزوجان اى اهتمام بها . ورأت ارتباكهما فوقفت معتدلة فى الظلام . ولمعت عيناها المضطربتين وتحركت شفتاها فى صمت كما لو كانت تنطق بكلمات دساسة فى صمت .

وبقيت مكانها لا تتحرك طوال اعتراف مادلين ، اشبه بصورة رمزية للقدر .

قالت مادلين فى بطء : اننى عرفت جاك فى باريس .

صاح جيليوم غير فاهم : عظيم . انك أخفتنى . حسنا . اذا كنت قد عرفت جاك فى باريس فسوف يكون صديقا قديما لكل منا ... هل تظنين اننى استطيع ان اخجل منك ؟ اننىكنتأسبق فرويت قصتنا لصديقى ، واننى لفخور بحبنا .

عادت المراة تقول فى صوت مبحوح : اننىعرفتجاك فى باريس .

ــ حسنا .. ؟

عذبتها ثقة زوجها التامة وعماه ، فانه لم يشأ ان يفهم وهاهو يجبرها على ان تقسو عليه . وقالت فى غيظ وفى عنف : انك توسلت الى الا حدثك عن الماضى ابدا ، وقد أطعتك ، ونسيت هذا الماضى تقريبا . ولكنه يعود الآن ويسحقنى ، أنا التى كنت أعيش هنا فى هدوء . ومع ذلك فلا استطيع ان أصمت . يجب ان أحدثك عن الماضى لكى تمنع جاك من ان يرانى . اننى عرفته ... فهلتفهم ؟

تهالك جيليوم فوق مقعد بجوار المدفاة . وخيل له انه اصيب بضربة شديدة على أم راسه ، وبسط يديه الى الأمام كما لو كان ليتشبث بشيء . وتوتر جسده كله وسرت فيه رعدة عصبية واصطكت اسنانه وراح يقول : أيتها التعسة ... ايتها التعسة .

وضم يديه فى حركة كلها رجاء وتوسل . واتسعت مقلتاه ، وابيضت شفتاه ، واخذ يهتز من الحمى . وبدا كأنه يبتهل الى السماء ألا تضربه بكل هذه القسوة . كان كيانه كله يهتز ذعرا أكثر منه غضبا . وكان هذا الموقف يستولى عليه فيما سبق، وهو يتساءل ما هى الغلطة التي ارتكبها ؟ ولم يجد فى اعماق قلبه الدامى كلمة لوم أو اهانة يصبها على مادلين لكى يخفف من اله. واكتفى بأن راح ينظر اليها فى صمت بعينيه الواسعتين متوسلا ومذعورا .

وتمنت المرأة الشابة لو أن يضربها ، فلو انه فعل لتمردت وثارت تحت ضرباته ، ولوجدت كل نشاطها وحميتها . ولكن نظراته اليائسة وموقفه كضحية ألقت بها عند قدميه لاهثة مضطربة ، وتمتمت وهى تجر نفسها باكية ، وقد تهدل شعرها فوق وجهها : عفوك ياجيليوم، عفوك ، انك تتعذب ياصديقى ، ان جنفييف على حق اذ ترتجف امامه وتخيفنى من غضبه . لم اكن اصدق هذه المراة وكنت ارجو ان يغفر الله لى ، ولكنه لايغفر ابدا . كنت أقول ان الماضى مات ، وانني أستطيع ان أعيش فى سلام ... والماضى كان ذلك الرجل الذى ابتلعه البحر ، كانت الأمواج قد دفعته بعارى فى أعماق البحر واختفى الى الأبد ، ولكنه لم يمت ، بعث الى الحياة من جديد ، وعاد من الهاوية بضحكاته وقهقهته ، والقاه القدر على الساحل وارسله الينا لكى يسرق سعادتنا . هل تفهم هذا يا جيليوم ؟ كان قد مات ، ولكنه لم يمت ، وهذه منتهى القسوة ... ارأيت ؟.. ان السماء لا تفعل الا مثل هذه المعجزات ، وما كانت لتقتل جاك تماما لأنها كانت بحاجة اليه لكى تعاقبنى ... اية غلطة ارتكبناها اذن ؟ لقد احب كل منا الآخر ، وكنا سعيدين . ولكن السماء عاقبتنا على سعادتنا ، لقد كانت جنفييف على حق ... ان الماضى والخطيئة لايموتان ابدا .

وراح جيليوم يقول : أيتها التعسة ... أيتها التعسة !

ــ تذكر اننى لم اكن أريد الزواج الذى عرضته على . هل تذكر

ذلك المساء الحزين من أيام الخريف على شاطىء الينبوع الذى أحالته الأمطار نهرا من الطين ، عندما توسلت الى أن أتزوج بك ؟ كان هناك صوت يهيب بى اننى لا يجب أن أعتمد على رحمة السماء ، وقد قلت لك فلنبق كما نحن وليقنع كل منا بحب الآخر، ولكنك لم تصغ الى وقلت لى انك تريد ان تملكنى كلية وبطريقةعلنية ، وحدثتنى عن حياة آمنة مستقرة ، وعن التقدير والاحترام والرباط الأبدى والبيت المشترك . آه . ليتنى قسوت عليك واستمعت الى ذلك الذعر الخفى الذى انذرنى . كنت ستتهمنى عندئذ بأننى لا احبك ، وكنت افر اليوم أمام جاك واختفى من حياتك دون ان ادنس صداقتكما ودون ان اجرك معى فى الوحل . كنت اظن اننى اذا بقيت عشيقتك ، واذا حدث والتقيت بعارى وجها لوجه فانه سيكون فى مقدورك عندئذ ان تطردنى كما لو كنت عاهرة ، وان تستخدم تقززك لكى تنسانى ، واغدو عندئذ فتاة ضائعة تنتقل من فراش الى آخر، ويطردها عشاقها عندما يشعرون بالخجل منها . غير ان لنا الآن طفلة صغيرة ... اوه ... غفرانك ياصديقى ... لقد كنت من الجبن بحيث رضيت ان اتزوج بك .

وعاد جيليوم يقول : ايتها التعسة ... ايتها التعسة !

ــ اوه ، نعم . اننى كنت جبانة . ولكن يجب ان تفهم كل شيء. لو تعرف كم كنت متعبة وكم كنت بحاجة الى الراحة ... ولكننى لا احاول ان ابرر موقفى ، ولست خيرا من غيرى . بيد اننىأعرف ان لى كرامتى وعزة نفسى ، واننى رضيت بسبب حاجتى الى التقدير والاحترام ورغبة منى فى ان اشفى جراح كبريائى . خيل لىعندما اعطيتنى اسمك انك تغسلنى من كل دنس . ولكن يبدو ان الوحل يترك آثارا لا تمحى . ومهما يكن فقد قاومت ... قضيت ليلة بأكملها أتساءل اذا كنت لا اقدم على سوء بقبولى عرضك . وفى الصباح كان يجب ان ارفض ، ولكنك اتيت ، وانا لا ازال نائمة، واخذتنى بين ذراعيك . واذكر ان ثيابك كانت تعبق بهواء الصباح الندى ، فقد مشيت فوق الأعشاب المبتلة لكى تأتى الى بأسرع مايمكنك وولت كل شجاعتى . وكنت مع ذلك قد رايت جاك أثناء سهادى ، وقال لى شبحه اننى مازلت ملكه ، وانه سيشهد زواجنا وسيقيم فى مخدعنا . وتمردت ، واردت ان اثبت لنفسى اننى حرة ... وكنت جبانة .. جبانة .. نعم ، كنت جبانة .. اننى اثير اشمئزازك وانك لتصنع خيرا اذ تكرهنى .

وراح يقول فى صوته البطىء الرتيب : أيتها التعسة !.. ايتهـا التعسة !

ــ وقد كنت غبية فيما بعد ، فقـد سررت بكل وقاحـة لاننى ارتكبت جبنا . ومرت بى أربع سـنوات كانت السـماء فيها من السخرية بحيث كافأتنى فيها عن سيئتى . فقد ارادت ان تصيبنى وانا فى كامل هدوئى لـكى تكون الضربة قاضية . كنت اعيش هادئة فى هذه الغرفة ، وكنت أقنع نفسى فى بعض الأوقات باننى اقمت فيها طوال حياتى ، وكنت اظن نفسى شريفة وانا اضم ابنتنا الصـغيرة لوسى الى صدرى . كانت أياما حلوة دافئة ومشاعر جميلة ولكنه كان حبا مجنونا وسعادة مسروقة .. نعم .. اننى سرقت كل هذا .. سرقت حبك واحترامك واسمك وصفاء حياتنا وقبلات ابنتى. لم اكن استحق اى خير ولا أى احترام ، ولا أدرى كيف لم افهم هذا . واخذت انعم بكل غباء بهنائى وسرقتى ، حتى أننى تصورت اخيرا ان كل هذه الأيام السعيدة من حقى ، وقد كنت من السذاجة بحيث خيل لى أن هـــذه الأيام ستبقى الى الأبد . ثم انهـار كـل شىء .. وهذا عدل .. كل العدل .. اننى بائسة ، ولـكنك انت ياجيليوم ، لايجب أن تتعذب . لا أريد ان تتعذب . هل تسمعنى ؟ اننى سأمضى ، وسوف تنسانى ولن تسمع عنى أبدا بعد أسبوع.

واخذت تنتحب وقد انهارت وسط جونلتها ، وتبعد عنها شعرها الذى ألصقته الدموع بوجنتيها . كان يأس هذه المخلوقة القـــوية التى حطمت الضربة العنيفة طاقتها العادية يفيض بالغضــــب . كانت تبدىء تواضعا وخنوعا ، ولـكنها كانت تغلى من الغيظ وتود لو أن تلعن القدر . وكان خليقا بها ان تهدأ باسرع مايمكن لو ان كبرياءها لم تتالم كل هذا الألم ، والواقع انه كانت هناك فكرة واحدة ترقق قلبها ، وهى انها كانت ترثى لجيليوم. وكانت ساقاها قد خذلتاها فاذا بها جالسة فوق الأرض وهى تتكلم بلهجة مهتزة مضـــطربة كالمحتضر المشرف على الموت . وكانت ترفع عينيها الى زوجها فى توسل وابتهال كما لو كانت ترجوه الا يتركها هكذا فريسة للقلق.

وراح جيليوم ينظر اليها مذهولا ، مخبولا ، مكتئبا ، وهى تزحف فوق الأرض . وكان قد اخذ رأســه بين يديه وهو لايفتأ يقول : « أيتهـا التعسة .. أيتها التعسة ! » ويهز راســه كالغبى الذى لايجد غير هذه الكلمة فى أعمــاق نافوخه الفارغ . والواقع انه لم يكن هناك فى كل كيانه الموجوع غير هذه الآنة ، ولم يعـد يعرف

لماذا يتألم ، وراح يهدهد نفسه بهذه العبـــارة الحزينة التى افلت معناها منه . وعندما كفت زوجته عن الكلام أخيرا وقد احتبس صوتها لفرط ألمها وعذابها بدا كأنه مدهوش من هذا الصمت الكبير الذى يخيم حوله . وتذكر عندئذ ، وندت عنه آهة تدل على مبلغ ما يعانيه من عذاب .

وقال بصوت غريب لم يعرفه : ومع ذلك فقد كنت تعلمين ان جاك صديقى واخى .

هزت مادلين راسها فى احتقار كبير وقالت : كنت اعرف كل شىء ، ولكننى كنت جبانة وسافلة . هل تتذكر اليوم الذى جئتنى فيه باكيا بشارع بولونيا ـ؟ انك اتيتنى عندئذ بنبأ موت جاك . حسنا . قبل مجيئك ، كنت قد اكتشفت صورة ذلك الرجل ، والله يشهد اننى أردت الهرب فى ذلك اليوم لكى أوفر عليك الم اشتراكك انت وصديقك فى امتلاكى ، ولكن القدر هو الذى اغوانى ، وان مغامرتنا لمزحة مشئومة من السماء . عندما ظننت ان المـاضى قد تلاشى ، وعندما علمت ان جاك لم يعد حائلا بيننا ضعفت ولم أجد الشجاعة لـكى اضحى بحبنا ، وقلت لنفسى لكى أبرر موقفى اننى لايجب ان اتسبب فى حزنك بالانفصال عنك . ومنذ تلك الساعة كـذبت .. كذبت بصمتى .. لم يعد العار يخنقنى ، وكنت ساحتفظ بسرى الى الأبد ، ولعلك كنت تموت بين ذراعى دون ان تعلم اننى ضممت اخاك الى صدرى .

وسكتت فجأة وهى تلهث واصاخت السمع وقد ارتسم الذعر على وجهها فجـأة فان باب الغرفة المؤدى الى البهـو كان قـد بقى مواربا ، وخيل لها انها سمعت خطوات عند اسفل السلم وتمتمت:

ــ اسمع . ان هناك من يهبط . الا تدرى انه يمكن ان يهبط ما بين لحظة واخرى ؟

وبدا كأن جاك قد استيقظ مذعورا . وتملكه القلق هو الآخر ، فارهف اذنيه ، وبقيا هكذا لحظة ، وكل منهما نصف منحن ، وقد أخذ منه الارهاق كل ماخذ ، وكل منهما يخفق قلبه فى شـــدة . وراح جيليـــوم يرتجف اكثـــــر من مادلين ، فلم يســـتطع الآن وقد عرف الحقيقة ان يحتمل رؤية جاك وجها لوجه . ومجرد التفكير فى تفسير عاجل مع صديقه ارهق ذهنـــه الرقيق . وزاده افتراض زوجته بأن جاك قد يهبط ما بين لحظـــة واخرى فزاد ذعره بحيث تحطمت ارادته . وعندما ارهف اذنيه حول عينيه الى

مادلين وتأملها وهي جاثية عند قدميه ، ارتجف كل كيانه ، واحس بحاجة قصوى الى العزاء والسلوان . وبحركة غريزية تهاوى بين ذراعي المرأة الشابة فضمته الى صدرها .

وبكيا ماشاء لهما البكاء ، وبدا ان كلا منهما يريد الارتباط بالآخر بعناق قوى الى الأبد بحيث لايستطيع جاك ان يفرق بينهما. وكان جيليوم قد عقد يديه خلف ظهر مادلين وراح يبكى واضعا جبينه على كتفها كالطفل .. غفر لها بدموعه وبهذه العفوية المفاجئة التى القت به عند قدميها . كان ضعفه يقول : انك لست مذنبة ، وانما القدر هو الذى فعل كل هذا . وهاأنت ترين اننى مازلت أحبـك واننى ما زلت اراك جديرة بحبى ، فلا تتكلمى عن الانفصال بعد الآن .. وكذلك قال ضعفه : « واسينى وعزينى وضمينى الى صدرك، وهدهديني لتخفيف آلامي . آه . شد ما ابكي وشد ما انا بحاجة الى ان الوذ بين ذراعيك . لاتتركينى ، ارجوك . سـأموت اذا وجدت نفسي وحدى ، ولن استطيع احتمال ثقل عذابى . اننى أفضل ان اظل أدمي تحت ضرباتك عن أن افقدك . ضمدى الجراح التى أصبتنى بها ، وكونى طيبة معى وترفقى بى » . وكانت مادلين تسمع تماما هذه الكلمات فى صمت وتنهـدات زوجها المكتومة ، ولاريب انها رقت لهذه الطبيعة العصيبة وواستها . ومهما يكن فقد جاءتها عذوبة كبيرة من هذا الغفران المطلق ، ومن هذه الرحمة الصامتة التى تتخللها الدموع والقبلات . كان كأن زوجها يقول لها : « اننى اغفر لك » وهزت رأسها فى صمت ، ولكنه لم يقل شيئا ، وانما استسلم واسترخى ودفن نفسه فى صدرها . كان يرتجف اشفاقا من ان يطلب منها عون حبها . وهدأت هى شيئا فشيئا ، وأحست بالارتياح وهى تراه ضائعا هكذا فى كيانها هى ، ممتنا بعناقها .

وكانت هى اول من تخلص ، وكانت الساعة قد بلغت الواحدة ، وكان لابد من اتخاذ قرار ، فقالت وهى تتجنب ان تذكر اسمه :

ـ اننا لانستطيع ان ننتظر حتى يصحو ، فماذا تنوى ان تفعل؟

ونظر اليها فى ارتباك بحيث يئست من ان تنتزع منه قرارا وهو فى اضطرابه . ولكنها اردفت تقول مع ذلك . اذا انت قلت له كل شيء فسوف يرحل. سيتركنا وشأننا. ويمكنك ان تصعد اليه وتكلمه.

تمتم الشاب يقول : كلا .. كلا .. ليس الآن ، فيما بعد .

ـ هل تريد أن أصعد أنا اليه ؟

ـ انت ؟

نطق جيليوم بهذه الكلمة فى دهشة مذعورة ، فقد عرضت هـذا الاقتراح مدفوعة بطبيعتهـا الواضـحة الصريحة . ولـكنه لم يفهم منطقها ، ونظر اليها كما لو كان ينظر الى شيء فظيع جدا فقـد جرحت رقته فكرة ان زوجته ستكون مع عشيقها القديم وعذبته فى شيء من الغيرة الغامضة ، وسألته : ما العمل اذن ؟ .

لم يجب على الفور فقد خيل اليه انه يسمع من جديد صـوت اقدام على السلم . وراح يصغى فى قلق وقد شحب وجهه كما فعل اول مرة ، فان وجود جاك على مقربة ، واحتمال نزوله ومد يده اليه سبب له اكبر القلق . واخذت تدور بذهنه فكرة واحدة هى ان يهرب وان يفر من التفسير ، وان يلجأ الى مكان بعيد يمكنه أن ينشد فيه الهدوء ، فانه كان يحاول دائما ، فى المواقف الشاقة ان يكتسب الوقت ، وان يمضى الى مكان بعيد حيث يمكنه ان يستأنف حلمه فى الامن والسلام ، وعندما رفع رأسه أخيرا قال :

ــ فلنرحل من هنا . ان راسي تنفجر ، ولا استطيع أن اتخذ أى قرار فى هذه الساعة . انه لن يمضى هنا غير يوم واحد . وعندما يرحل سنجد امامنا شهرا نستطيع ان نفكر فيه وان نضمن سعادتنا.

نفرت مادلين من هذا القرار الذى عرضه عليها ، فقد أدركت انه لن يسوى الموقف وان قلقها سيبقى كما هو . وقالت :

ــ من الأوفق ان نفرغ من هذا الأمر الآن .

تمتم جيليوم يقول فى اصرار : كلا. تعالى . أرجوك . سنمضى ونقضى الليل فى بيتنا الصغير، وسنبقى فيه طوال النهار غدا فى انتظار رحيله .. وانت تعرفين كم كنا سعيدين فى ذلك البيت . سوف نجد الهدوء والراحة فى جو هذه العزلة الهادئة. سوف ننسى وسوف يحب كل منا الآخر كما كنا نفعل عندما كنت اتسلل اليك خفية.. اذا ذهب احدنا لرؤيته فاننى اشعر ان سعادتنا ستموت.

اتت مادلين باشارة تدل على الاذعان ، فقـد كانت هى نفسها شديدة الاضطراب ، واحست بأن زوجهـا خائف بحيث انها لم تجرؤ على المطالبة باتخاذ قرار بطولى . وقالت :

ــ ليكن .. فلنرحل اذن .. فلنذهب حيث نشاء .

نظر الزوجان حولهما . كانت النار قد خبت ، ولم يعد المصباح يعكس غير ضـوء متذبذب أصفر. بدت لهما هـذه الغرفة الـكبيرة الفسيحة التى قضيا فيها ليـال دافئـة ، بدت لهما كئيبة باردة مظلمة ، وهبت فى الخارج ريح شديدة راحت ترتطم بالنوافذ التى

أخذت تئن ، وبدا كأن اعصار الشتاء سيمر بالغرفة ويأخذ معهـا كل بهجة وكل أمان البيت العتيق . واذ اقترب جيليـوم ومادلين من الباب رأيا جنفييف متسربلة في الظـــلام ، وقد وقفت جامدة تتابعهما بعينيها البراقتين .

كانت المرأة العجوز قـد احتفظت بموقفهـا المتوتر الصلب طوال الحديث الذي سمعته ، واستمتعت كل الاســتمتاع بأنين الزوجين وصرخات الجسد . وفتح لها اعتراف مادلين دنيـــا من الرغبات والحسرات والمتعة والألم لم تعرفها ابدا طوال حيـاتها العذرية . وذكرتها صورتها بملذات الملعونين القاسية وهي تقول لنفسـها ان الذين تمسهم النار وتداعبهم بلهيبها يجب ان يضحكوا ويبكوا هكذا . كانت تشعر، في هول استفظاعها ، بفضول شديد .. فضول المرأة التي كبرت وشاخت وسط الأعمال الشاقة دون ان تعرف الرجل، والتي تسمع فجأة قصة غرام عنيف ، ولعلهـا في قرارة نفسها ، حسدت مادلين لحظة لما استمتعت به من مباهج وملذات آثمة مريرة قطعت نياط قلبها في النهاية . ورأت انها لم تخطىء ، وان هـذه المخلوقة اتت من الشيطان ، وان السماء ألقت بها على الأرض لهلاك الرجال ودمارهم ، وراحت تنظر اليها وهي تتعذب ، وتتلوى كمـا لو كانت تنظر الى أفعى تتـلوى من فوق الأرض . وبدا لها ان الدموع التي تذرفها مادلين انما هي دموع غضب يذرفها الشيطان نفسـه بعد أن افتضح أمره ، وان شعرها الأشقر المتهدل وعنقهـا السمين الأبيض الذي يهتز بالتنهدات ، وكل جسدها الذي تـكوم فوق الأرض .. بدا لها أن تتصاعد من كل هذه رائحة شهوانية مقززة.

وعندما تقدمت مادلين نحو الباب ، ارتدت خطوة الى الخلف لكي تتفادى لمستها ، وتمتمت تقول : أن شعرك الأحمر وشفتيك الحمراوين لا تزال تتأجج بالنار الخالدة . انك بيضت جسدك وأسنانك في نار جهنم ، وسمنت بدم ضحاياك . انك جميلة وقوية وفاجرة لأنك تقتاتين بلحم البشر .. ولكن روح الله ستحيلك الى تراب أيتها المرأة الملعونة ، وسوف تصابين بالعفن كالكلبة التي تنفق في عرض الطريق .

لم يسمع الزوجان غير بضع كلمات من كل هذه العبارة التي نطقت بها وهي محمومة ، كما لو كانت تعويذة يجب ان تحميها من ضربات الشيطان ، كانا يحسبان ان كل خدم القصر نيـام ، وقد أخذتهما الدهشة والفزع اذ وجداها واقفة أمامهما .

لاريب انها سمعت كل شيء . وهم جيليوم ان يطلب منها التزام

الصمت عندما سبقته هي وسألته بصوتها الجاف اللائم :
ـ ماذا أقول لصديقك غدا ؟ هل اعترف له بعارك ؟
صاح الشاب في غضب مكتوم : اسكتي أيتها المجنونة !
وقالت مادلين : ان هذه المراة على حق . يجب أن تفسر له غيابنا .
ـ ايه ؟.. فلتقل ما تشاء ، فانني لم أعد أدري . فلتعتذر بموت قريب لك .. خبر سيىء مفاجىء ارغمنا على الرحيل فجأة .
نظرت جنفييف اليه في حزن كبير وقالت : سوف أكذب من أجلك يابني. ولكن كذبت من تنقذك من العذاب الذى تعده لنفسك. حذار .. ان الجحيم ينفتح ، رايت الهاوية تفغر فاها أمامك ، وسوف تقع فيها اذا أنت أسلمت نفسك للنجسة .
صاح جيليوم يقول للمرة الثانية : اسكتي أيتها المجنونة .
ارتدت مادلين تحت نظرة المتعصبة المضطربة وتمتمت : انها ليست مجنونة ، ومن الأوفق ان تصغي اليها ياجيليوم . دعني أرحل وامضي في سبيلي . أنا التي يجب أن أهيم في الطرقات في هذه الليلة الباردة وأن أسمع هبوب الريح . ابق في بيتك وانسني ، ولا تغضب السماء بارادتك في مشاركتي سفالتي .
اجاب الشاب في قوة مفاجئة : كلا . لا أريد ان أفارقك . سنتألم معا اذا كان ولابد ان نتألم . ولكن كلي أمل ورجاء ، وانا احبك . تعالي . سوف يهدىء أحدنا الآخر ، وسيغفر الله لنا .
ارتفع صوت جنفييت عندئذ يقول : ولكن الله لا يغفر أبداً .
هذه العبارة التي سمعتها مادلين قبل مجيء جاك كنبؤة شر ، والتي تسمعها الآن من جديد ، في اللحظة التي تنشد فيها النسيان جمدتها وارسلت في بدنها رعشة من الذعر. وتبخرت كل القوة التي مكنتها على الوقوف حتى هذه اللحظة ، واعتمدت على كتف زوجها .
قال جيليوم وهو يجرها جرا : لا تصغي الى هذه المراة . انها تكذب..ان الله كريم غفور . هزت رأسها وعادت تقول : ابدا..ابدا..
ثم اطلقت صيحة كدر عميق وقالت : آه . ان الذكريات استيقظت .. واحس بها تلاحقني .
واجتازا البهو وخرجا من قصر نوارود ، وادركا في غموض السخرية القاسية لمثل هذا القرار ، ولكنهما في هول الضربة التي اصابتهما وحطمتهما لم يستطيعا مقاومة هذا الميل الغريزى الذى تحس به الحيوانات وهي تجرى لتختبىء في أعماق اى جحر يصادفها .. لم يحكما عقلهما ، وهربا من جاك وتركا له بيتهما .

الفصل الثامن

كان الليل أسود كالحبر ، والجو باردا ورطبا . وكانت الريح قد هبت ، واخذت تدفع بسيول من الأمطار ، وتصفر ، بعيدا فى الظلام وتهز أشجار الحديقة ، وبدا انينها اشبه بأنين البشر وبحشرجة جموع من النـاس تحتضر . وابتلت الأرض ، ولانت تحت وقع الاقدام كبساط من العفن القذر .

وراح جيليوم ومادلين يتقدمان وهما يتصارعان مع الرياح التى تعصف بوجهيهما وقد التصق كل منهما بالآخر. وعندما خرجا من الحديقة التفتاالى الخلف بدافع غريزى، ونظر الى نواروود ، يدفعهما خاطر واحد هو التأكد من ان جاك نائم . ولكن النافذة كانت مغلقة، وكان الظلام حالـكا فلم يتمكنا من رؤية شيء . وراحا يمشيان فى صمت وبكل مشقة ، وكانا لايستطيعان تمييز الأرض ، فكانا يدوسان فى الوحل ، وتغوص قدماهما فيه . وكان الطريق الى البيت الصغير معروفا ،ولكن الظلام كان دامسا بحيث أخذا نصف ساعة لقطع مسافة ربع فرسخ . وضلا طريقهمـا مرتين . وعندما أشرفا على البيت فاجأهما سيل بللهما وأعماهمـا . وهكذا دخلا عزلتهما موحلين ، مرتجفين ، متقززين من رائحة الطين الذى وطئته اقدامهما .

ووجدا مشقة كبيرة فى اشعال شمعة . واغلقا الباب وصعدا الى غرفة النوم بالدور الأول . وكانا قد قضيا فيها ليال طويلة سعيدة ، وتوقعا ان يجدا فيها هدوء ودفء حبهما . وعنـدما فتحا البـاب وقفا حزينين ، فقد نسيا بالأمس ان يغلقا النافذة ، فتسرب اليهـا المطر الذى دفعته الرياح ، وكانت هناك ، وسط الغرفة ، بركةكبيرة من الماء ، اضطرا ان يجففاها ، ولكن الأرضية ظلت رطبة ، فقـد دخل الشتاء الغرفة واقام فيها كما يحلو له منذ أمس ، وكانـت الجدران والمفروشات كلهارطبة . وهبط جيليوم ليأتى ببعض الخشب، وعندما اشتعلت النار فى المدفأة داخلهما الأمل فى أن يصطليا ، وأن يجدا الهدوء فى جو الغرفة الساخن الصامت .

وكانا يتركان دائما فى هذه الغرفة بعض الملابس ، فاستبدلا ثيابهما المبتلة بأخرى جافة ، وجلسا أمام المدفأة . وكانا لا يزالان يرتجفـان

ويرتعدان ، وامضتهما فكرة أن يرقدا جنبا الى جنب ، في الفراش البارد الذى سبق أن قضيا فيه ليال كثيرة ملتهبة . وعندما دقت الساعة تعلن الثالثة صباحا قال جيليوم :

ـ اشعر انني لن استطيع النوم . سأنتظر في هذا المقعد حتى يطلع النهار . لاريب انك متعبة يا مادلين ، فنامي .

هزت المراة الشابة راسها في حركة خفيفة ثم عادا الى صمتهما.

وفي الخارج ، اشتدت العاصفة ، وراحت الرياح تصطفق بجدران البيت في عنف وتهز النوافذ والأبواب . وبدا كما لو ان عصابة من الذئاب اخذت تهاجم البيت وترجة بمخالبها الغاضبة رجا. ومع كل عصفة ريح ، كان يبدو كأن البيت كله سينهار . ثم هطلت الأمطار ، فهدات حدة الرياح بعض الوقت ، وراحت ترتطم بالسقف كدقات طبول متتابعة في جنازة ميت . وتألم الزوجان من هبوب العاصفة . كانت كل هبة وكل عصفة تهز كيانهما هزا . وتملكهما قلق غامض ، وارهفا السمع كما لو ان هناك أصواتا بشرية تملأ الطريق في الخارج ، بالأنين والشكوى ، وعندما كانت تأتي نسمة مفاجئة وتقرقع كل اخشاب البيت ، كانا يرفعان راسيهما في فزع وينظران حولهما في دهشة وهلع .. اهذه عزلتهما الدافئة التي تعبق بالروائح الطيبة .. بدا لهما ان كل شيء فيها قد تغير.. حتى المفروشات والستائر ، بل البيت نفسه . وراحا ينظران الى كل ما فيه في شك وهما يتعرفان على شيء منه . واذا ما تذكرا شيئا فان ذكراه تؤلمهما وتجرحهما ، فقد خطر لهما انهما ذاقا هنا مباهج حلوة لذيذة .. والاحساس البعيد لهذه المباهج كان يتخذ مرارة مقززة ، وكان جيليوم يتكلم عن البيت في الماضي فيقول : اذا الت بنا مصيبة ذات يوم فسوف نلوذ بعزلتنا هذه ، وسوف نكون فيها بمامن من العذاب والألم . ولكنهما اليوم ، بعد ان اصابتهما هذه الضربات الساحقة وأسرعا لكي يلوذا به لم يجدا فيه غير شبح حبهما الحزين ، واحسا فيه بالارهاق تحت ثقل الساعات الحاضرة والندم الشديد للسنوات الميتة .

وشيئا فشيئا استولى عليهما اعياء شديد ، فان الطريق الذى قطعاه وسط الأوحال وتحت عصف الرياح وهطول الأمطار كان قد هدأ انفعالهما واضطرابهما. وحررت راسيهما من موجة الدم التي تصاعدت اليها . وكان شعرهما المبتل يضع على جبينهما قطعا من الثلج. ولم تلبث حرارة النار المنبعثة من المدفأة ان اثقلت أعضاءهما التي هدها

التعب . وما كان في وسعهما النطق بكلمة واحدة دون الاحساس بتعب شديد ، وجلسا أمام النار وتكوما في مقعديهما ، صامتين ، كما لو ان أحدهما يبعد عن الآخر بألف فرسخ .

وكانت مادلين قد نضت عنهـا جونللتها وجوربيهـا المبتلة والملوثة بالطين ، ولبست قميصا جافا والتفت فوقه بمئزر مفتوح من الكشمير الارزق ، كشف طرفاه ، وهي جالسة فوق المقعـد عن ساقيهـا العاريتين . وكان اللهب يقع عليهما فيبدوان بلون الذهب . وانفتـح المئزر من اعلا وكشف عن جيدها الذى لايكاد القميص يخفيه. وغرقت المرأة الشابة في التفكير وهي تحدق في الموقد حتى ليخيل انها لا تدرك عريها وانها لا تشعر بحرارة النار الملتهبة على بشرتها .

وكان جيليوم يتأملها . وشيئا فشيئا ، سقطت رأسه على مسند المقعد ، واغمض عينيه نصف اغماضة ، وبدا انه غفا ، ولـكنه لم يفارق مادلين بعينيه ، وغرق في تأمل هذه المخلوقة نصف العارية التى لم يعد جسدها يثير فيه غير قلق مؤلم . ولم يعد يشعر بأية رغبة فيها وانما وجد فيها هيئة محظية ووجها قاسيا خشنا لامرأة شبعى . وراح يسأل كل لمحة من ملامحها لكى يعرف ما الذى غير المرأة الشابة هكذا .

وانحنت مادلين فوق الموقد وراحت تقلب النـار ، وهى لا تزال تفكر ولا تدرى ماذا تفعل ، وظلت منحنية هكذا ووجهها في اللهب تقريبا . وكان مئزرها واسعا لا يربطه شيء فانحسر عن كتفيها حتى منتصف ظهرها .

واحس جيليوم عندئذ بانقباض وهو يرى هذا العرى الـكبير ، وراح يتابع حركات النصف العلوى المكشوف من جسدها ، وخطوط العنق اللدن والكتفين المتهدلين . هذا الصدر العارى الجميل عذب قلبه عذابا لا يطاق ، ذلك انه في أعماق خدره وذهوله استيقظت فيه ذكريات ، لا كومضات مفاجئة للذاكرة وانما كمجموعة راحت تتحرك في بطء في نافوخه . كان يفكر في سنوات الحب الخمس التى قضاها وهو يتمتع بجسد مادلين ، وفي الليالى الدافئة التى رقد فيها على صدرها ، ويتذكر حلاوة العناق والقبلات المتبادلة . انه حين بذل نفسه لها كان لا يزال طاهرا ، ولم يكن قد عرف الحب بعد ، ولكن مادلين لم تكن جاهلة مثله . ولا ريب انها راحت تستعيد بين ذراعيه انفعالات وقبلات عرفتها من عشيقها الأول ، ولا ريب أنها كانت تفكر في ذلك العشيق وهي بين ذراعيه . وبلغ به الأمر الى حد انه راح يقول

لنفسه انها ربما كانت تتذوق لذة فظيعة فى استعادة استمتاعات الماضى لمضاعفة استمتاعات الحاضر . وان الأمر سيكون غشا دنيئا وقاسيا لو صح ذلك ، فبينما كان يظن ، هو الزوج ، انه الشخص الوحيد المحبوب ، لم يكن في الواقع أكثر من مجرد عابر تؤجج شفتاه الحرقة الحلوة لابتسامات قديمة لم تفتر بعد . وقداستمرت هذه المهزلة البشعة أربع سنوات .. قام بدور بشع طوال أربع سنوات دون أن يدرى .. تركها تسرق قلبه وجسده . وعندما بلغت أفكاره هذا الحد ، وحمله كابوسه الى هذه الأوهام المخجلة راح يتأمل عرى المرأة الشابة في تقزز كبير ، وخيل له انه يرى على عنقها وعلى كتفيها البيضاوى بقعا نجسة ورضوضا دامية لا تمحى .

وكانت مادلين لا تزال تقلب النار وهي جامدة الأسارير ، وراح المئزر ينحسر اكثر فاكثر عند كل حركة من ذراعها . ولم يستطع جيليوم ان يحول عينيه عن هذا الجسد الذى يتعرى مع كل حركة ويتكشف بكل جماله ووقاحته ، وبدا له نجسا بالغا فى النجاسة . وكانت كل حركة من حركات الذراع التى تبرز عضلات الكتف السمينة تبدو له أشبه بشبح داعر . ولم يتألم قط مثلما تألم فى ذلك الوقت . وكان يفكر ويقول : لست أنا الوحيد الذى عرف هذه الغمازات التى تظهر عند عنقها عندما تحرك يديها . ولم يستطع أن يحتمل فكرة انه تقاسم هذه المرة مع رجل آخر وانه لم يكن الاول فى حياتها ، فقد كان يغار غيرة شديدة من اى شيء ، شأنه فى ذلك شأن كل مخلوق رقيق عصبى . كان يريد امتلاكا كليا . وكان الماضى يخيفه لأنه كان يجد منافسين فى الذكريات .. منافسين لا يعرفهم ولا يمكنه مقاومتهم . وحمله خياله وجعله يرى أشياء فظيعة .. وما زاد فى شقائه وعذابه ان عشيق مادلين الأول لم يكن غير جاك ، صديقه وأخيه .. هذا هو الشيء الوحيد الذى عذبه . ولو أن عشيقها كان رجلا آخر فما كان الأمر ليزيد عن شعور بالسخط ، أما وجاك هو العشيق ، فقد احس باحساس لا يمكن وصفه من التمرد الحزين العاجز ، كان يرى فى هذا العمل ارتكاب المحارم ورجسا كبيرا ، وانه ليغفر لجاك ويبكى فى نفس الوقت بدموع من دم ويفكر فيه فى ذعر غامض ، كما لو كان شخصا بعيدا عن متناول يده جرحه جرحا داميا لن يستطيع ان يرد له الصاع أبدا . أما مادلين ، فقد بدت له وسط حدة احلامه السيئة التى بالغت فى احساساته العابرة كما لو كانت قد ماتت نهائيا . وبتغيير غريب للواقع راح يقول لنفسه انها زوجة

جاك . ولكنه لا يجب أن يلمسها بشفتيه بعد اليوم . ومجرد فكره قبله واحدة كانت تملأه تقززا واشمئزازا فقد بدا له أنها ملك لمخلوق آخر وانه لا يمكن ان يدفعها بين ذراعيه الا رغبة فاجرة . ولو ان المرأة الشابة دعته اليها لتقهقر كما لو ليتفادى جريمة . واستمر ينسى نفسه في منظر عريها المثير .

وتخلت مادلين عن محرك النار ، واضطجعت في مقعدها الى الخلف فغطت بذلك ظهرها وكشفت عن صدرها . ولزمت الصمت واحتفظ وجهها بكآبته ، وراحت تنظر الى كأس من البرونز فوق المدفاة دون ان تراه .

ولكن اذا كان جيليوم قد غفر لجاك فان جراحه بقيت على حدتها ، فان الشخصين الوحيدين اللذين تعلق بهمـــا خاناه وغدرا به . وحلا للقدر أن يقسو عليه ، وأن يشتد في قسوته ، فأصابه في كل حنانه وحبه بأن راح يعد منذ وقت طويل للمأساة التي جاءت الآن ومزقت جسده وعقله ، ولم يعد لديه من يحب الآن ، فان الرابطة الحتمية التي ربطت بين جاك ومادلين من قبل بدت له الآن متينة وقوية بحيث راح يتهمها بارتكاب الزنا ، كما لو أنهما مارسا الجنس مرة أخرى بالأمس بالذات . كان يطردهما من ذهنه في حنق ، ووجد نفسه الآن وحده في الدنيا ، في عزلة شبابه الباردة . وعاد الى قلبه عنـــدئذ كل عذاب حياته ، واحس بنفس جنفييف المرعب يمر فوق مهده ، ورأى نفسه في المدرسة ، وقد أوسعه زملاؤه ضربا . وفكر في موت أبيه العنيف . كيف استطاع أن يخدع نفسه الى حد الاعتقاد بأن السماء قد رحمته واشفقت به . ان السماء هزأت به وهي تهـــدهده بحلم جميل لمدة ساعة . وعندما بدأ يشعر بالهدوء وينعم بحياة دافئة بالحنان ، دفعته السماء فجأة الى هوة سوداء باردة وجعلت سقطته اكثر بشـــاعة وفظاعة . أحس بذلك الآن . كل هذا كان مقدرا وقد أعده كل شيء للكرب والعذاب . وحكايته التي بدت له صارخة بالظلم لم تكن في الواقع الا حلقة منطقية للأحداث . ولكنه لم يقبل ضربات القدر المستمرة دون تمرد فقد اغتاظت كبرياؤه ، وما دام يعود باستمرار الى عمق وحدته فذلك خير من الاخرين ولأنه ارق طبعا واحساسا منهم ، فقـــد كان يعرف كيف يحب ، في حين ان الآخرين لا يعرفون الا الاضرار به . وواسته فكرة كبريائه هذه ووجد فيها طاقة حقيقية مكنته من الوقوف والاستعداد لمقاومة القدر . وعندما عاد اليه يقين نبله أحس بشيء من الهدوء ونظر الى كتفي مادلين في بقية من الازدراء والرثاء .

وكانت المرأة الشابة لا تزال تفكر . وكان جيليوم يتساءل فيم يمكن ان تفكر هكذا . لا ريب انها تفكر فى جاك . عذبته هذه الفكرة ، وحاول عبثا ان يقرأ فى وجهها الأفكار التى تجعلها خائرة القوى هكذا وصامته . والحقيقة ان مادلين لم تكن تفكر فى شىء . كانت نائمة وعيناها نصف مغمضتين ، متعبة ، لا تسمع فى أعماق كيانها الا هدير كربها المشوش الذى راح يهدأ . وبقى الزوجان مكانهما حتى الصباح ، فى صمتهما وجمودهما . ولم يتبادلا كلمة واحدة .

كانت ليلة لا نهاية لها . ليلة من تلك الليالى التى يرى المرء فيها أحلاما رديئة ويتمنى من كل قلبه طلوع النهار .

وطلع النهار اخيرا ، وكان نهارا قذرا فاجرا . ومضى الوقت فى بطء كثيف ، وتبقعت الواح النوافذ فى بادىء الأمر بضوء غامض ممزوج بالضباب ، ثم امتلات الغرفة شيئا فشيئا بدخان أصفر شمل المفروشات دون أن ينيرها . واحال هذا الدخان الأصفر لون الستائر الزرقاء الى لون آخر حتى كان يخيل لمن يراها ان طبقة من الوحل تجرى فوق السجادة ، وشحب نور الشمعة وسط هذا الدخان الكثيف .

ونهض جيليوم ، واقترب من النافذة . كان الريف يمتد امامه بصورة مقززة . وكانت الرياح قد هدات تماما ، وانقطع المطر ، وتغير الوادى الى بحيرة حقيقية من الطين ، واكتسبت السماء التى غطتها السحب المنخفضة نفس لون الوادى الرمادى ، وبدا الوادى نفسه كحفرة كبيرة صفراء تلوثت فيها الأشجار واسودت البيوت وكثرت البرك والمستنقعات ، وبدا كان يدا غاضبة دعكت الافق كله وجعلت منه خليطا من الماء الآسن والصلصال الأسمر . وكان ضوء هذا اليوم الكئيب الذى يحتضر على هذه المسافة الكبيرة الموحلة ضوءا مريبا ، لا انعكاس له ، يبعث نوره القذر الغثيان الى النفوس .

مثل هذه الساعة العكرة من يوم من ايام الشتاء المؤلمة اشد الايلام للذين يسهرون طوال الليل . وكان جيليوم ينظر الى السقف القذر فى غباء حزين . كان مقرورا ، وكان يتثنيه ويشعر بضيق فى كيانه وفى ذهنه . بدا له انهم أوسعوه ضربا ، وانه يعود الى رشده الآن بالذات . وكانت مادلين ترتعش مثله ، وكانت متعبة ومحطمة . وجاءت هى الأخرى لكى تنظر الى الريف . واتت بحركة تدل على تقززها وهى تراه موحلا هكذا وتمتمت تقول : كل هذا الوحل .

قال جيليوم دون أن يدرى ما يقول : لقد هطل المطر كثيرا ، واكتسح

فى طريقه كل شيء .

وأسدلا الستائر الموسلين وهما لا يطيقان رؤية كل هذه القاذورات . واحسا برعشة فجأة فاقتربا من النار . وكان النهار قد طلع تماما وبدت لهمـا غرفتهما موحشة قذرة تحت ضوء الجاراج المريب . ولم يرياها حافلة بالكآبة ابدا كما هي اليوم . وانقبض قلباهما وادركا ان احساسهما بالتقزز والملل لم يكن مبعثه السماء الكئيبة فحسب وانما كان منبعثا ايضا من بؤسهما وانهيار سعادتهما بالذات ، وان المستقبل المظلم جعل الحاضر مريرا وافسد عذوبة الماضي ، واخذا يفكران : اننا اخطأنا بمجيئنا هنا .كان يجب أن نلوذ بغرفة مجهولة لا نجد فيها ذكرى حبنا القديم . واذا كان هذا الفراش الذي رقدنا عليه ، وهذه المقاعد التى جلسنا عليها لا تبدو لنا دافئة كمـا كانت من قبل فذلك لأن جسدينا يبعثان بالبرودة اليها . ان كل شيء فينا قد مات .

ومع ذلك ، فقد احسا بالهدوء . وكانت مادلين قد غطت كتفيها ، وخرج جيليوم من كوابيسه ، وعاد الي دنيا الواقع فى شيء من الهدوء. وكان فى أحلامه الرديئة ، ووسط انفعاله وهذيانه وعذابه قد ضاع فى اعمق أفكاره البشعة وتجاوز المحتمل ، ومضى حتى آخر الافتراضات الدنيئة التى ظل يواجههـا ، واخرجه برد الصباح الآن من ذهوله . وتخلص ذهنه الموجوع من أوهامه . وعاد من جديد الى تفاهة الأحداث العادية . ولم يعد يرى مادلين بين ذراعي جاك.ولم يعد يرى فى عناقهما عملا من أعمال الزنا والخيانة الزوجية . واخذت كل نقطة تستعيد مكانها . وفقدت المأساة فاعليتها الحادة ، واخذ يرى العاشقين بطريقة مبهمة فى ماض بعيد دون أن يرتعد جسده أو يتمرد فى ثورة لاذعة . وبدا له موقفه عندئذ مقبولا ورجع الى المجرى العادى للحياة . ووجد نفسه متزوجا من مادلين ومحبوبا منها ، ومستعدا للعودة لـكى يحتفظ بها الى الأبد . كان لا يزال يتألم طبعا من الضربة العنيفة التى روعتهما معا . ولكن الألم الأولى لهذه الضربة اخذ يهدأ ، وارتخى كل كيـانه الخامد واجتـاز فى يسر العقبات التى بدت له فى البداية فظيعـة ومنيعة .

وهكذا عاد الأمل اليه . ونظر وهو يبتسم فى حزن الى مادلين . وكان نفس الشيء يحدث معها فى نفس الوقت . ومع ذلك فقد كان فيها كتلة ثقيلة كانت تخنقها ولا تستطيع التخلص منها . كان يحدوها أمل كبير ، ولكنها كانت تتحطم دائما ضد هذه الكتلة .. فقد كانت تبدو كما لو كانت حملا ثقيلا حتميا اثقل على صدرها الى حد ان

ماتت بسببه الإبتسامات التى كانت توجهها لجيليوم ، وبدت كما لو كانت ابتسامات محتضرة وتحس على وجهها ببرودة الموت ولا تريد أن تكدر أحدا .

وبقيا جزءا من النهار يتحدثان فى هدوء عن مختلف الأشياء متجنبين أن يمسا جراحهما التى ما زالت حية ويؤجلان الى ما بعد اتخاذ قرار . كانا ينشدان الآن تسكين آلامهما . وأثناء الحديث خطر لجيليوم خاطر كان بمثابة الالهام ، فقد جاءت مرضعة لوسى بالأمس الى نوارود لكى تأخذ الطفلة معها لكى تشهد عملية الخبيز فى الفرن ، فان الطفلة كانت نهمة ، وكانت تحب ان يأتوها أثناء الخبيز برغيف ساخن تتوسطه بيضة . وكان أبوها قد نساها فى مصابه الذى يعيش فيه ، ولكنه لم يلبث ان تذكرها ، وأحس بارتياح كبير فى ان يجدها معه وان تكون رباطا يربط بينه وبين زوجته ، أفلم تكن ضمان زواجهما الأبدى ؟ ان ابتسامة واحدة منها سوف تكفى لكى تشفى جراحهما ولكى تثبت أن ما من شىء فى العالم يمكن ان يفرق بينهما .

وقال : يجب ان تذهبى الى المزرعة وان تأتى بلوسى . سوف تقضى اليوم معنا .

ادركت المرأة الشابة غرضه . انها هى الأخرى لم تفكر فى ابنتها ومجرد ذكر اسمها سبب لها ابتهاجا كبيرا ؛ فانها أم وسوف تنسى... حتى هذا الحمل الذى يكاد يخنقها ، واجابت :

ــ انك على حق . ثم انه لايمكننا أن نبقى طوال اليوم بدون طعام . سنأكل بيضا وجبنا فى الغداء .

وضحكت كما لو ان البيض والجبن وليمة كبيرة . وكانت دقيقتان كافيتين لكى ترتدى من الثياب ما يبعث الدفء الى جسدها ، فلبست جونلة والقت شالا فوق كتفيها ثم أسرعت الى المزرعة . وفى أثناء ذلك دفع جيليوم بطاولة صغيرة أمام النار ، وغطاها بمفرش . واعاده استعداده هذا للغذاء وحده مع زوجته الى ايام حبهما السعيدة ، عندما كانت تقدم له وجبة فى بيتها الصغير . وبدت الغرفة تستعيد صورتها الآمنة السابقة ، فقد غدت مقفلة النوافذ ، وانبعث فيها الدفء وامتلأت بالعطر . ونسى كل وحل الخارج وهو يقول لنفسه انهما سيتمتعان بالدفء وانهما سيقضيان يوما جميلا بعيدا عن الدنيا .. وحدهما مع لوسى .. وبدا له النهار الرمادى الكئيب شيئا له حلاوته هو الآخر .

وغابت مادلين طويلا ، ولكنها عادت اخيرا . وهبط جيليوم للقائها لـكي يأخذ منها علب اللبن والخبز . وكانت لوسى الصغيرة تحمل رغيفا كبيرا من الخبز راحت تضمه الى صدرها بكل قواها .

كانت الطفلة فى منتصف السنة الرابعة من عمرها عندئذ . وكانت كبيرة بالنسبة لسنها ، جعلت منها أعضاؤها الضخمة والقصيرة بنتا من بنات الريف ، شبت وترعرعت فى الهواء الطلق . وكانت شقراء كأمها ، تبتسم ابتسامات حلوة رقيقة تلين وجهها القوى بعض الشىء . وكانت على ذكاء مبكر وتثرثر أياما بأكملها ، وتقلد الأشخاص الكبيرة ، وتسأل أسئلة تثير ضحك ابويها حتى الدموع . وعندما رات اباها عند أسفل السلم صاحت به تقول : خذنى .. خذنى واصعد بى .

لم تشأ ان تتخلى عن الرغيف الذى تضمه الى صدرها ، ولم تجرؤ على المجازفة بصعود السلم دون أن تتشبث بالدرابزين ، فحملهـــا جيليوم على أحد ذراعيه وهو سعيد بها وابتسم لها وشملها بنظرة حانية .. وبعث جسدها الصغير الدافىء الذى يعتمد على كتفه الدفء الى قلبه .

وقالت مادلين : تصور ان هذه الآنسة الصغيرة لم تكن قد صحت من النوم بعد ، واننى قضيت نصف ســاعة لكى اقنعهــا بالمجىء معى ، فقد وعدوها ان يطهوا لها اليوم بعض التفاح ، واضطررت ان آتى معى بتفاحتين لكى اشويهما لها هنا فوق جمر المدفأة .

قالت لوسى : سوف اشويهما أنا ، فاننى اعرف كيف اشــوى التفاح .

وما أن القــاها ابوها فوق الســجادة ، على ارض الغرفة حتى اسرعت ودارت بأمها ودســت يدها الصــغيرة فى جيب جونلتها ، واخرجت منه التفاحتين وغرزتهما بالسكين ، ثم جلست القرفصاء امام النار ، وابعدت بعض الجمر ثم وضعت التفاحتين فوق القاعدة الرخامية ، وتكومت امامهما ولم تفارقهما بعينيها . وكانت قد وضعت قبل ذلك رغيف الخبز فوق ركبتيها .

وابتسم جيليوم ومادلين وهما ينظران اليها . كانت تقوم بحركات ربة البيت ، وكانت متعجلة ، وقد أطرب أبواها ذلك ، فقــد كانا بحاجة ماسة الى الاستراحة والاستجمام لفرط ماكابداه ، ونشــدا النسيان فى مرح الطفلة ولهوها ، وما كانا ليحجما عن اللعب معها فى سبيل ذلك ، فان هدوء لوسى الصبيانى ، والرائحة النضرة التى تنبعث منها ملأتهما الحنان ، واحسا بهدوء كبير حولها ، وبدأ الأمل

يراودهما ، وراح كل منهما يقول ان المستقبل سيكون جميلا ونقيا . والمستقبل ما هو الا هذه المخلوقة الصغيرة العزيزة ، ملاك السلام والطهر .

وجلسا أمام المائدة التي سبق ان اعدها جيليوم واكلا بشهية كبيرة ووجدا الجراة في التحدث عن الغد وعن اقامة المشاريع وهما يتخيلان أن ابنتهما قد كبرت وتزوجت زواجا سعيدا . وهكذا أبعدت الطفلة ذكرى جاك .

وقالت مادلين وهي تضحك : ان التفاح يحترق .

أجابت لوسى : ابدا .. سأسخن رغيف العيش .

وكانت قد رفعت رأسها وراحت تنظر الى أمها في صراحة وجد الى حد انها بدت وقد كبرت في السن فجأة . وعندما كانت لاتبتسم كانت شفتاها تتسمان بشيء من القسوة ، ويبدو العبوس على جبينها بشكل ملحوظ . ونظر جيليوم اليهـا ، ولم يلبث ان اصـفر لونه تدريجيا وراح يفحصها في رعب متزايد .

وسألته مادلين في قلق : ماذا بك ؟

أجاب : لا شيء .

وجعل يتأمل لوسى من جديد وهو لايستطيع ان يفارقها بعينيه، وينحنى الى الخلف كما لو كان يريد أن يهرب من منظر يثير فزعه ، وارتسمت على وجهه امارات الم شديد مكبوت ، بل انه أتى بحركة مبهمة من يده .. حركة حاول بها أن يقصي الطفلة عنه . وذعرت مادلين لما عراه من الشحوب ، ولم تستطع أن تفهم اضطرابه . ودفعت المائدة بعيدا . واسرعت الى مقعده فجلست فوق مقعده قائلة :

ــ ولكن ما الخبر؟ اننا كنا هادئين جدا ، وكنت تبتسم منـذ لحظة .. ماذا بك ياجيليوم ؟ ظننت ان سعادتنا قد عادت ، واننا سنبدأ حياتنا من جديد . قل لي ما هي الأفـكار السوداء التي تدور في راسك فأمحوها واشفيك . أريد ان تـكون سعيدا .

وهز رأسه وارتجف وقال في صوت خافت جدا كما لو انه يخاف ان يسمعه أحد : انظري الى لوسى .

كانت الطفلة لاتزال تجلس فوق السجادة أمام المدفأة ، وقدغرزت رغيفها في شوكة وعرضته الى النار متوترة الشفتين ، مقطبة الجبين، كانت منهمكة في عملها . وسألته مادلين :

ــ حسنا ؟

قال جيليوم في لهجة متغيرة : الا ترين ؟

ـ انني لا ارى شيئا .

دفن الشاب وجهه بين يديه عندئذ وراح يبكي ، ثم بذل جهدا وتمتم يقول : انها تشبه جاك .

ارتجفت مادلين ، وحدقت بعينيها في ابنتها في جنون وقلق . كان جيليوم على حق ، فقد كانت لوسي تشبه جاك شبها غامضا ، وكان هذا الشبه يزداد عندما تطبق الطفلة شفتيها فتبدو تكشيرتها اشبه بتكشيرة الجراح السابق تماما . ولم تشأ المرأة الشابة ان توافقه على هذه النقطة على الفور وقالت :

ـ انك مخطيء . ان لوسي تشبهني انا . ولو ان ما تقول صحيح لادركنا ذلك منذ وقت طويل .

وتجنبت ذكر جاك . ولكن جيليوم احس بها ترتعش بجواره . وعاد يقول : كلا . انني غير مخطيء ، وانت تعرفين ذلك تماما . ان الطفلة تكبر، ولسوف تكون صورة منه . انني لم ار ابدا هذه النظرة الجادة الصارمة . يخيل لي انني ساجن .

وكان قد بدأ يفقد عقله حقا . واخذ يجفف بيده العرق البارد الذي يسيل على صدغيه ، ويضغط على جبينه كما لو ليمنعه عن الانفجار . ولم تعد زوجته تجرؤ على الكلام ، وانما اعتمدت على كتفه وقد انهارت وراحت تنظر الى لوسي التي لم تكن لتهتم على الاطلاق بما يجري حولها. كانت التفاحتان قد نضجتا وبدأتا تتوردان.

وقال جيليوم في صوت اجش : كنت تفكرين فيه اذن ؟

تمتمت مادلين تقول : انا .. انا ..

وفهمت ما يعنيه . كان يعتقد انها راحت تفكر في جاك في اللحظة التي حملت فيها بلوسي وهي بين ذراعيه . وعادت كوابيس الشباب تطغى على عقله المسكين . واخذ يفكر من جديد في تلك الخيانة الزوجية الغريبة التي ارتكبتها زوجته بأن تركت خيالها يتوهم بأن قبلات زوجها وعناقه انما هي قبلات وعناق جاك بالذات ، ومن هنا شبه ابنتها بعشيقها ، ففي هذا الدليل على الدور البشع الفظيع الذي قامت به . ان ابنته لا تنتمي اليه هو وانما هي ثمرة الوصال المخجل بين مادلين وبين شبح . وعندما ادركت المرأة الشابة معنى الاتهام الذي يرتسم في نظرته المذعورة صاحت :

ـ ان ما تقول لشيء فظيع.. عد الى صوابك.. ولاترميني بمزيد من الخسة والنذالة . انني لم افكر ابدا في هذا الرجل وانا معك.

عاد يقول في غير رحمة :ان لوسي تشبهه .

راحت مادلين تلوي يديها وهي تقول : لا ادري كيف حدث هذا. ان القدر هو الذي يقتلني . اوه ، ابدا ، ابدا لم ارتكب ماتتصور. ان هذا لفظيع .

هز جيليوم كتفيه في اصرار شديد ، فان شبه لوسي بالعشيق الأول لأمها كان من الحالات الشائعة الحدوث والتي تفسرها بعض القوانين النفسية ، وهي قوانين لا تزال مجهولة حتى اليوم ، وما كانت لتخطر له في مثل هذا الموقف المكدر. ولكنه اقتصر على تفسيرها القاسي الذي راح يعذبه . وثار كل كيان مادلين ، وودت لو ان تقنعه ببراءتها ، ولكنها رأت انه يستحيل عليها ان تقدم له الدليل على ذلك . فانه راح يتهم أفكارها ، ولم تكن تستطيع الا ان تحتج وان تقسم لكي تدافع عن نفسها. ومضت لحظات ركل منهما يحتفظ بصمت ملأه النحيب والشهيق المكتوم .

وقالت الصغيرة لوسي فجأة : آه . لقد نضجت التفاحتان .

وكانت قد بقيت حتى ذلك الوقت متكومة في مكانها في نشوة امام النار ، تنظر الى التفاحتين ، والى رغيف العيش ، ونهضت وراحت تصفق بيديها ، واخذت طبقا من فوق المائدة وضعت فيه التفاحتين. ولكنهما كانتا ساخنتين بحيث اضطرت الى الانتظار. وعادت فجلست فوق السجادة من جديد وراحت تنظر اليهما والدخان يتصاعد منهما ، في اشتهاء دفعها الى ان تلمسهما بأصبعها من وقت لآخر. وعندما بدا لها أنها تستطيع أن تأكلهما أخذتها الحيرة ورات انه قد يكون من المناسب أن تقدم منهما واحدة الى ابويها ، وراحت تقاوم بين نهمها وطيبة قلبها ، وتغلبت طيبتها في آخر الأمر على نهمها وبسطت الطبق لأبيها قائلة في تردد وكأنها تلتمس رفضه :

ـ هل تريد واحدة يا أبي ؟

ولم تكن قد رفعت عينيها عن تفاحتيها منذ ان وضعتهما في المدفاة. وعندما رأت اباها يبكي ، وينظر اليها في شيء من اليأس بدا الجد في عينيها ، ووضعت الطبق على الأرض وقالت :

ـ انك تبكي ؟ هل أقدمت على عمل طائش ؟

واقتربت من ابيها ، والقت بيديها الصغيرتين على ركبتيه ، ورفعت نفسها على طرفي قدميها ، تحاول أن تتكيء على مسند المقعد لكي تبلغ وجهه ، فقد افزعهـا ما ارتسم عليه من الم ، ولم تدر ماذا تفعل .. هل تبكي ام تضحك ؟ وبقيت لحظة يستبد بها القلق، رافعة وجهها تتأمل اباها في شيء من الرثاء ، ثم بسطت يديها اليه،

كعادتها حين تحت تحب مداعبته وقالت : احملني يا أبت .
وراح ينظر اليها وقد اضطجع فى مقعده الى الخلف ، شاحب اللون، مرتجف الأوصال . ما أشـد شبهها بجاك ! خصوصا عندما تكشر بجد هكذا . وأحس بيديها الصغيرتين تحرقان ركبتيه وود لو ان يقصيها عنه حتى لاتعذبه قسماتها . ولكن لوسى كان لها غرض آخر، فقد ارادت ان تتعلق بعنقه وان تواسيه ، وكانت قد بدأت تشعر بخوف حقيقى ، ولم يكن يغضبها ان تلوذ بين ذراعيه . وعنـدما قالت له « احمـلنى يا ابت » اكثر من مرة دون ان تراه يتحرك نحوها قررت ان تصعد اليه . وكانت قد اعتمدت على مرفقيها عندما فقد جيليوم راسه وابعدها عنه فى عنف .
وارتدت الطفلة وهى تترنح ، ووقعت على ظهرها . وخففت السجادة من وقعتها ، ولم تبك على الفور فقد فوجئت ونظرت الى أبيها فى خوف ودهشة وزمت شفتيها ، وقطبت جبينها على غرار الجراح السابق .
وكانت مادلين قد اندفعت نحوها وهى تراها تقع . وكانت راس الطفلة قد وقعت على كتب من قاعدة المدفأة ، ولو انها اصطدمت بها لشجت على الفور .
وصـاحت المراة الشابة تقول : آه . انك قاس ياجيليوم . لم اكن اظن انك شرير هكذا . اضربنى انا ، ولكن لاتضرب هذه الطفلة المسكينة .
وضمت لوسى الى صدرها ، وانفجرت الطفلة تبكى عندئذ كما لو انها اخذت علقة ساخنة . لم تكن قد أصيبت بضرر ، ولـكن كان يكفى ان تتلقى شفقة لكى تظن انه يجب ان تذرف سيلا من الدموع، وراحت امها تمشى معها جيئة وذهابا وهى تحاول تهدئتها وتقول لها ان ماحدث لا شىء وتقبلها على وجنتيها .
واحس جيليوم بندم شديد لقسوته ، وما ان راى لوسى تقع حتى راح هو نفسه يبكى عارا وكمدا ، فهاهوذا يقتل الأطفال الآن. وثارت طبيعته الهادئة ، وزاد احساسه بحدة الآلام التى احالته بهذه الشدة وهذا العنف . وعندما خطر له ان الطفلة أوشكت أن تصطدم رأسها بقاعدة المدفأة أحس ببرودة القتلة تسرى فى كيانه ، ومع ذلك فان بكاء لوسى أهاجته وبدت له قبلات مادلين بشعة . وخطر له انها ربما تعتقد انها تقبل جاك بتقبيلها ابنتها ، وتملكه الوهن والضعف عندئذ ، ومضى الى الفراش وارتمى فوقه ، ودفن راسه فى الوسادة

لكي لايرى ولا يسمع . وبقى هكذا محطما .
ولكنه لم يجد الى النوم سبيلا . وراح يسمع وقع أقدام مادلين على الرغم منه . وفى الظلام المشحون بومضات جفنيه المطبقين كان لا يزال يرى تكشير لوسى وشفتيها المزمومتين وجبينها المقطب . انه لن يجرؤ أبدا على ان يطبع قبلة على وجه هذه الطفلة الذى يكتسب فى بعض الأوقات خطورة الرجال. وابدا لن يستطيع ان يرى زوجته تحنو على هذه الشقراء الصغيرة وتداعبها دون أن يتعذب أشد العذاب ، فهو لم تعد له ابنة ، ولم يعد هناك أى رابط يربطه بمادلين ، وقد تبخر آخر أمل الى الم مبرح لايطاق . وأن من السخف أن يحاول ان يكون سعيدا من جديد . وراحت هذه الأفكار تطرق ذهنه ، واتعب اليأس جسده وغلبه النوم .
وعندما استيقظ كان الوقت ليلا. وجلس وهو موجوع لايدرى ما الذى هد جسده هكذا ، ثم تذكر وتألم من جديد . ولكن الله هذه المرة كان شديدا جدا فقد مرت الأزمة ولم يعد يشعر بغير اعياء صامت لا أمل فى البرء منه . ولم تكن الشمعة مضاءة ، ولم يكن ينير الغرفة غير نور المدفأة الأصفر فبدت الغرفة مشحونة بالظلال . ورأى مادلين متكومة فى مقعد بجوار المدفأة . وكانت تنظر اليه بعينيها المفتوحتين ، ولم تكن لوسى موجودة ، ولا ريب ان أمها اعادتها الى المزرعة ، ولم يسألها جيليوم عنها . وبدا كأنه نسى امرها . وقال يسأل زوجته : كم الساعة ؟
اجابته فى هدوء : الثامنة .
وساد صمت قصير :
وعاد الشاب يسألها من جديد : هل نمت ؟
ــ نعم ، قليلا .
والواقع ان مادلين غفت بضع دقائق . ولكن الأصيل كان طويلا، ومرهقا . وقد مضت ساعات مؤلمة جدا فى هذه الغرفة حيث نامت فيها فى هدوء ، فيما سبق . اما الآن فقد استسلمت وهى لا تدرى كيف تقاوم مصيرها . وكانت تقول لنفسها . اننى سأقتل نفسى غدا ، اذا كان ولابد من ذلك . ويقينها من انها لن تستطيع الافلات من العار والعذاب اذا ما ارادت ذلك جعلها تجد كل امنها وسلامها تقريبا . وكانت تتكلم فى صوت خافت عذب كالمرأة التى تحتضر وتستسلم لقدرها والتى لايستطيع أى شيء أن يزيد من آلامها .
واتى جيليوم ببضع خطوات فى الغرفة ، وازاح الستائر عن

النافذة . كان الجو قد اعتدل ، ورأى وسط الحقول هيئة قصر نوارود . وكان النور يسطع من نوافذ الدورالأرضى وحده ، ولاريب ان جاك قد رحل .

واقترب الشاب من زوجته ، وكانت لاتزال متكومة أمام النار . وبدا انه يفكر ، وتردد لحظة ثم قال اخيرا : سوف نمضى شهرا فى باريس .

ولم تبد اية دهشة ، وانما رفعت راسها فى حين استطرد هو يقول : سنرحل بعد ساعة .. واجابته فى بساطة : حسنا .

وما الذى يضيرها ان هى ذهبت الى باريس أو بقيت فى فيتوى ؟ اما يجب أن تتعذب من جرحهـــا فى كل مكان ؟ أدركت ان جيليوم اراد أن يتفادى رؤية لوسى بعض الوقت . وقد أقرته فى بحثه عن النسيان . ومضت لحظة ، ولم تلبث ان ايقظت فكرة السفر فى نفسها أملا غامضا فى الشفاء . كانت قد رضيت بها فى بادىء الأمر بطريقة سلبية ثم تعلقت بها بعد ذلك كمحاولة أخيرة للخلاص .

واحس الزوجان بانقباض كبير وهما يوصدان باب البيت ، فقد هربا اليه ينشدان الأمان فى حبهما القديم وغادراه محطمين ممزقين ، وقد ازداد اضطرابهما عن ذى قبـــل . دنســـا فيه ذكرياتهما ولن يستطيعا أبدا العودة اليه لقضاء يوم سعيد . وتساءلا اين تلقى بهما ريح الشقاء التى تسوطهما .

وفى قصر نوارود ، عرفا ان جاك رحل منذ نصف ساعة. وتناولا عشاءهما على عجل ، بل انهما لم يمسا الأطباق تقريبا . ولم تخاطبهما جنفييف بكلمة واحدة ، وانما راحت تنظر الى مادلين فى اكتئاب . وعندما دقت الساعة التاسعة طلب جيليوم أن يأتوه بالمركبة ، فقـد مضى الوقت وفاتهما القطار ، وأراد الشاب ان يبلغ باريس فى مركبته الخاصة وهو يقول لنفسه ان صمت الطرقات السوداء قد يهدئهما. وقال لمادلين ان تتدثر جيدا . وبعد بضع دقائق انطلقا فى طريقهما الى مانت .

الفصل التاسع

كان الجو قارسا جـدا ، وكانت رياح الليلة الماضية قـد بددت السحب والغيوم ، وكان القمر بدرا ينير السماء بأكملها ببريق أزرق ، وبدت كأنها لوح من الصلب المصقول . وامتدت الأراضى تحت هذا الضوء الشفاف كصفحة من الماء البارد حتى الأفق فى وضوح تام ، وبدت وسط الجليد كما لو انها توترت اثنـاء هبوب العاصفـة ، واخذت الصخور تلمع وقد تجردت من اقذارها ، وجمد الطين فى اماكن كثيرة ، وسكنت الأشجار ولم تعد تهتز وتتعارك مع الرياح .

وكانت المركبة التى اختارها جيليوم مركبة صغيرة ذات مقعدين وسقف قابل للطى ، كان قد اشتراها لكى يتجول بها فى الريف مع مادلين . ولم يكن يروق له ان يصطحب سائقا ، وانما كان يفضل ان يسوق بنفسـه ، ولم يكن بها مكان الا له ولعشيقتـه ، وبينما كان يحث الجواد ببعض كلمات التشجيع ، كان يحس بساقى المراة الشابة الدافئتين تمتزج بساقيه ، وكم من نزهات مرحة سعيـدة قاما بها بهذه المركبة التى كانت رجاتها واهتزازاتها تطربهما كـل الطرب ، حين تلقى بأحدهما فوق الآخر. وفى تلك الليلة راحت العربة تنطلق بهزات رتيبة ، ولم يسمع الزوجان ، فى صمت الريف البارد الا دبيب الجواد وهو يضرب بحوافره الأرض الصلبة فى اصـوات معدنية. وكان مصباحا العربة يعكسان على الحقول نورهما الشاحب الذى يبدو تحت ضوء القمر أشبه بنور شمعتين يرسلان ضوءهما فى الفسق .

وكان جيليوم ومادلين قد القيا فوق ساقيهما بغطاء من الصـوف الرمادى اللون ، ولم يكن جيليوم يفتح فمه الا لـكى يحث الجـواد من وقت لآخر، فى كلمات مشجعة . أما مادلين ، فكانت تبـدو نائمة وقد التفت فى معطف من الفرو ودست يديها تحت الغطاء . ولم تكن تشعر بالبرد الا وهو يلفحها فى وجههـا . على ان الهواء البارد الذى كان يلسع عينيها وشفتيها لم يكن ليكدرها ، فقد نبهها ورطب جبينهـا الملتهب . وراحت تنظر فى حركة آليـة الى نور المصباحين وهو ينسـاب سريعا فوق الطريق ، وقد شرد ذهنها فى

الاحداث التي وقعت . كيف تملكها الذعر هكذا ؟ لاريب ان جاك هو سبب هذا الذعر الفجائي . ولكن لماذا ؟ انها لم تعد تحبه ، ولا تستطيع ان تفهم لماذا تجده حيا فى كيانها هكذا ، ولماذا تثير عودته الى الحياة حيرتها بهذه الصورة . وأحست بالحقيقة تتحرك فى أعماقها فى غموض ، ولكنها ترددت امام طبيعة المشاعر الغريبة التى تجتاحها .

عندما كان جاك يضمها الى صدره اتخذ جسدها بصمته الثابتة . وكان بينهما عندئذ زواج صميم لايمكن فصمه . وكانت قد بلغت فى ذلك الوقت تلك السن التى يصل فيها جهاز المراة الى النضوج التام والاخصاب عند ملامسة الرجل . واستسلم جسدها القوى ومزاجها المعتدل الى الوصال خاصة وانها كانت تتدفق حيوية وصحة ، وأسلمت نفسها للرجل بكل هدوئها وصراحتها بحيث أن طبيعتها الباردة كانت هى الأخرى سببا جديدا جعلها تبذل كل نفسها لعشيقها ؛ حتى انه ليخيل ان جاك وهو يضمها الى صدره . كان يكيفها علي صورته ويعطيها من عضلاته وعظامه ويجعلها ملكه الى الأبد . لقد القتها الصدفة فى طريق هذا الرجل ، وأبقتها الصدفة بين ذراعيه . وفى أثناء اقامتها معه ، وفى احتمال أن تغدو أرملة مابين لحظة وأخرى ربطها قدر نفسانى اليه رباطا وثيقا وملأها به. وعندما ابتعد الجراح بعد سنة من هذا العمل السرى للدم والأعصاب ترك المراة الشابة موصومة الى الأبد بقبلاته بحيث أنها لم تعد تتحكم فى نفسها ، فقد كان فى كيانها كيان آخر وعناصر رجولية تكملها وتدعم قوتها ، وهذه ظاهرة طبيعية بحتة .

ولكن انقطع رباط الود والمحبة اليوم ، غير ان رباط الجسد بقى اشد وثاقا ، واذا كان قلبها لم يعد يحب جاك فان جسدها كان لايزال عامرا بذكراه ولايزال ملكا له . واذا كانت عاطفة المودة قد زالت وانمحت فان التأثير الشهوانى لامتلاك الجسد كان لا يزال باقيا بكل قوته ، وآثار العلاقة التى جعلت منها امرأة تغلبت على هذه العاطفة وبقيت زوجة لجاك على الرغم من انها لم تعد تشعر من نحوه الا بنوع من الحقد الأعمى . وملاطفات جيليوم وخمس سنوات من عناق مع شخص آخر لم تستطع ان تطرد من اعضائها ذلك الكيان الذى دخل فيها وقت نضجها وبلوغها ، فقد تشكلت وانطبعت فيها صورة الرجل الذى عرفته أول مرة ، ولو ان مئات من الرجال عانقوها بعد ذلك لما استطاعوا ان يمحوا القبلات الاولى التى تلقتها.

ولم يكن زوجها يملك فيها غير قلبها فى الواقع ، وعندما كانت تقدم شفتيها له لم تكن تســـتطيع أن تبذل نفسها له وانما كانت تعيره جسدها .

وقد أعارت جسدها لزوجها فحسب منذ زواجها ، ولديها على ذلك الدليل الحى الذى لايمكن تجاهله وهو شـبـه لوسى الصغيرة بجاك ، فان جيليوم نفسه ، عندما انجب ابنة من مادلين لم يستطع ان يأتى بها على صورته هو ، فعلى الرغم من انه هو الزوج فان رحم المراة أعطى الطفلة ملامح الرجل الذى احتفظ ببصمته ، وبدا ان الأبوة تخطت الأب الحقيقى لكى تعود الى العشيق . ومن المؤكد ان جاك كان له أكبر الأثر فى اخصاب مادلين فقد بقى الأب الروحى ذلك الذى جعل من العذراء زوجة .

وقد أحست المراة الشابة بعبوديتها فى اليوم الذى عرض جيليوم فيه عليها الزواج ، فهى لم تكن حرة ، وتمرد جسدها فى تغورغريزى اراء فكرة زواج جديد لا تستطيع ان تبذل نفسها فيه كلية. وارتفع الرفض الصريح الى شفتيها . وقد دهشت عواطفها لهذا الرد.. ! فلم تكن تحب جيليوم ؟ الا تعيش معه منذ نحو سنة . لم تشأ ان تستمع الى صيحة كيانها والى تمرد دمها الذى ينذرها ، فانه اذا كان مسموحا لها ان تتخذ عشيقا ثانيا فقد كان محرما عليها ان ترتبط برجل آخر غير جاك . ولأنها لم تستطع ان تطيـع صيحة كيانها الأسير فانها راحت تبكى الآن بدموع من دم .

وتهالكت مادلين فى مكانها من المركبة ، وراحت تنظر الى شريط الطريق الأبيض وهو يجرى تحت العجلات متفـادية الأسئلة التى لاتستطيع ان تجد لها ردا . كانت متعبة ولا تستطيــع المقاومة . وكانت تأمل ان تتخذ قرارا حاسما فيما بعد وان تقاوم واقتصرت الآن على التفكير فى هذه الأمور لأنه لم يسعها الا ان تفكر فيها ، وكان حلما غامضا عنيفا تهدهده رجة العربة وهزاتها .

كانت تحس بدفء الغطاء الصوف وليونة مساند المركبة ، ولولا الريح الباردة التى راحت تلفح وجهها لاستسلمت للنوم بكل بساطة. وحسب جيليوم انها نائمة . وراح يسوق فى حركة آلية مصغيا الى صمت الليل ، سعيدا بأن يجد نفسه فى هذا الطريق المقفر ، وفى ذلك البرد القارس الذى يهدىء انفعاله واضطرابه . وكان منذ ان غادر فيتوى وهو يفكر فى تلك العبارة التى قالها له جاك : لايجب على المرء أن يتزوج عشيقته . وتنبهت هذه العبارة فى اعماق ذاكرته

دون أن يدرى لماذا فرضت نفسها عليـه فى هذا الاصرار العنيد . وراح يقلبها فى ذهنه ويفكر فيها ويجد انها تثير خوفه ، رافضـا ان يعتبرها قاعدة ضرورية للسلوك .

وهو عندما تزوج مادلين لم يتزوجها ليخلصها من الخطيئة وانما لأنه يحبها ، وقد دفعه قلبه الى ذلك . وقد ندم طبعا على ماضى عشيقته وود لو أن تنساه ، ولكن كان ذلك نابعا عن أنانية وتمرد طبع لم يتقبل فكرة الا يمتلكها هو وحده . وكان يجهل الحياة ولا يعرف المثل العليا ، ولم يعتقد فى أى وقت من الأوقات ان مادلين بحاجة الى الخلاص ، وانما كل ما كان يهدف اليه هو ان تحبه ، وقد كان بحاجة الى الحب . ولو ان فكرة الخلاص خطرت ببـاله لما اهتم بها ولخطر له ان الحب نفسه يمحو كل دنس .

ولهذا لم يفهم تماما معنى هذه العبارة : لايجب على المرء ان يتزوج عشيقته . لماذا ؟ كان يرى على العكس أن من الصواب ان يرقد فى أحضان امرأة معروفة ومحبوبة ، وكوابيس الليلة الماضية لم تستطع ان تنتزع منه هذا الرأى . واذا كان قد تألم فذلك عن طريق صدفة قاسية ، فقد أحس بأن مادلين لاتزال تحبه ، ولم يندم على انه تزوجها . انما استبدت به فكرة واحدة وهى ان يكون رحيما بها وان يبدو اكثر رقة واكثر رفقا الآن وهى تبكى . لم يتهمها بالذنب ولم يرم نفسه بالطيش ، فقد أصابهما الشقاء معا . ولابد لهما أن يزداد اتحادا ، وأن يلتمس كل منهما العزاء والسلوى بين ذراعى الآخر . وسوف ينقذهما حبهما .

وشيئا فشيئا استطاع ان يقهر آلامه وعذابه ، وان يبنى لنفسه آمالا جديدة . وكان للمصاب الشديد الذى أصابه رد فعل واحد هو انه ألقاه على صدر مادلين تدفعه رغبات فى ان يختفى فيه وان يلوذ به من جراح الخارج ، فلم يجد أمامه فى ذلك الوقت غير تلك المرأة التى يمكن أن تنسيه بعناقها آلام الحياة ، ونسى انها هى سبب كربه وغمه . وحاول ان يبحث فيها عن مباهج وملذات كبيرة يغرق فيها كلية وتنسيه الدنيا وما فيها . فما الذى يحتاجان اليه ؟ مكان بعيد يستطيعان ان يختفيا فيه فى حبهما . واستسلم لهذا الحلم الكبير الذى كان يراوده منذ حداثته والذى بدا له الآن اكثر عذوبة وهو يرى القدر يضربه بكل هذه القسوة . وازدادت حاجته الى الهدوء وغدت رغبته فى الاحتفاظ بحب مادلين جبنا . ولو انها ضربته فى وقت من الأوقات لتعلق بعنقها وتوسـل اليها ان تجفف دموعه .

ومع ذلك فقد كانت كبرياؤه تثور من وقت لآخر، وتحمله يرى فى ذعر وفزع وحدة قلبه ويقضى عليه حبه المضطرب ان يعيش فى رغبة ظمئى لنبل صاف وحب مثالى .

واحس جيليوم وهو يحلم بالحيـاة الجديدة التى سيعيشانها فى باريس بجسد مادلين يغمره بحـــرارة متزايدة ، فقد امتزجت أقدامهما تحت الغطاء الرمادى ، وملامسة المرأة الدافئةكان لها دخل كبير فى الهدوء والحنو اللذين أحس بهما من جديد . وعلى غير وعى منه أتاه الأمل من استمتاعه بأن يجـدها بقربه هكذا ، فقـد ملأته بالدفء ، وكانت المركبة لاتزال تنطلق فى جوف الليـل القارس وفى سكون البرد .

واقترب المسافران من مانت . ولم يكن احدهما قد نطق بكلمة منذ ان خرجا من فيتوى ، وقد ضاع كل منهما فى أحلامه . وراح ينظر الى حصيرة الضوء الذى يبعثه القمر بعيدا ، على الأراضى المزروعة، وفيما هما يمران ببيت قائم على حافة الطريق نبح كلب نباحا محزناً فأجفلت مادلين ، وسألها جيليوم : هل كنت نائمة ؟

اجابت وهى تدرك الى أى حد يثقل هذا الصمت على زوجها :

ــ نعم .. وقد أيقظنى هذا الـكلب . اين نحن ؟

واشار بيده الى بضعة سقوف يعكس القمر اشعته عليها وقال :

ــ ها هى مانت .

ولم تلبث ان دخلت العربة شوارع مانت . وتعلق جيليوم بأمل خطر له فجأة فقد اقتربتالساعة من الحادية عشرة ، ورأى انه لن يصل الى باريس قبل طلوع النهـار . وكانت هذه الرحلة الليلية قد بدأت تفزعه ، ورأى ان من الحكمة ان يقضى الليل فى أحـد الفنادق . ولم تلبث هذه الفكرة ان راقت له، تدفعه الى تحقيقها رغبة خفية فى ان يمارس الجنس مع مادلين فى مكان غيرمعروف. وكان فى الليلة الماضية ، عندما عذبتهما ذكرياتهما فى البيت الصغير المجاور لقصر نوارود ، قد تمنى أن يقيم فى غرفة مجهولة لا يجـد فيها شيئا من الماضى . وراوده هذا الحلم منجديد فى ذلك الطريق المقفر ، ورأى من السهل تحقيقه الآن . وان ماعليه هو أن يطرق باب اول فندق يقابله، وسوف يجد الغرفة العادية. غرفة الصدفة حيث يمكنه ان يحاول النسيان . واصبحت فكرة النوم فى مانت التى املتها الحكمة فى بادىء الأمر واحدة من اعز امانيه .

وقال يسأل مادلين : هل تريدين ان نتوقف هنا ؟ لاريب انك

متعبة . سوف نستأنف الرحلة غدا صباحا .

اجابت زوجته : نعم ، نعم . انني لا استطيع مقاومة النوم .

وكان جيليوم يعرف فندقا على مشارف مانت ، وكان يثق انه سوف يجد فيه غرفة شاغرة . وهو فندق معروف باسم « فندق الغزال الأبيض » ، أصاب شهرة فى الأيام الماضية ، وكان يغص بالنزلاء طوال أيام الاسبوع ، ولكن كان ذلك قبل ان تدخل السكة الحديدية المدينة ، فقد أقيمت بعد ذلك عدة فنادق حديثة ، كان النزلاء يفضلون الاقامة فيها. وقد حاول صاحب الفندق استمالتهم فجدد فندقه وادخل به تعديلات كثيرة ، ولكن محاولاته ذهبت سدى ، وظل فندقه يعاني كسادا لم يكن يعرفه من قبل .

وآثر جيليوم هذا الفندق على غيره لما يتمتع به من هدوء ، ووقف بمركبته امامه . وأسرع احد الموظفين ففتح له باب الفناء المؤدى الى الأسطبل . وهبط جيليوم من المركبة ، وامسك الفرس من لجامها وقادها بنفسه الى الداخل . أما الرجل فقد مضى لكى يأتى بشمعة ومفتاح لاحدى الغرف اذ أبدى النزيلان الجديدان رغبتهما فى النور على الفور .

وهبطت مادلين من العربة ، وبقيت واقفة بالفناء دقيقتين وهى لاتزال تشعر بهزات المركبة . ورددت البصر حولها فى شىء من القلق فان منظر الفناء بدا لها مألوفا بعض الشىء ، ورفعت عينيها الى مبنى الفندق نفسه ، ولكنها لم تتذكره ، فقد كانت مضطربة ، وأفكارها مشوشة ومتعبة بحيث لم تستطع ان تفكر فى وضوح وجلاء واعتقدت انها ترى الفندق لأول مرة .

وسرعان ما عاد الرجل ومعه المفتاح ، وتقدمهما عبر سلم خشبى راحت درجاته تقرقع تحت أقدامهما . واعتذر لهما فقال لو انهما دخلا من الباب المواجه للمطبخ لبلغا غرفتهما بأسرع من ذلك ، عن طريق السلم العمومى . وراحت مادلين تردد البصر حولها ، ولكنها لم تر شيئا مألوفا فى تلك المتاهة من الأبواب والممرات التى يتقدمهما الرجل خلالها .

وقال الرجل فى شبه اعتذار وهو يفتح لهما باب الغرفة : ان هذه الغرفة تطل على الفناء ، وهى الوحيدة التى يمكن الاقامة فيها فورا .. وارى انكما تتعجلان النوم .. ثم ان الفراش وثير .

ابتسم جيليوم وقال : لاباس . هل لك ان تشعل النار ، فان

الجو بارد هنا .

اشعل الرجل نار المدفأة وغذاها ببعض الحطب الموجود بجوارها. وراح جيليوم يسير جيئة وذهابا فى فروغ صبر منتظرا ان ينصرف وان ينفرد بمادلين ، وكانت قد نضت عنها معطفها والوشاح الذى تلفه حول عنقها .

وبينما كان الرجل يستدير لكى ينصرف وقعت عيناه على وجهها فوقف ينظر اليها فى حدة على ضوء الشمعة . وكانت مادلين قد انحنت لكى تخلع حذاءها فلم تر الابتسامة التى ارتسمت على شفتيه والدهشة التى بدت فى عينيه . وابتسم الرجل فى حذر ونظر الى جيليوم فى خبث ، فقال له هذا الأخير :

ـ عليك بالعناية بجوادى . قد أهبط قبل أن أنام لأرى انكان لاينقصه شيء .

كانت الغرفة فسيحة ومربعة ، جدرانها مكسوة بورق بهت لونه منذ وقت طويل وفى سقفها شق كبير تسرى منه الرطوبة ويعلوه الصدأ . وبدا الجص الأبيض كما لو ان عصابة صفراء تشقه من اوله الىآخره . وكانت الأرضية مبلطة ببلاط مدهون باللون الأحمر. أما المفروشات فكانت عبارة عن صوان منبعج به مقابض منالقماش دولاب كبير وفراش ضيق لنفرين ومنضدة مستديرة وبضعة مقاعد ، وعلى الفراش والنافذة ستائر من القطن الأزرق تزينها شرائط بها زهور بيضاء مطبوعة . وفوق رخام الصوان ساعة كانت تحفة من تلك التحف التى يتوارثها الفلاحون أبا عن جد ، تتوسط قصرا صغيرا به نوافذ وشرفات ترى العين من خلالها أسرة وارائك ترقد عليها دمى صغيرة .

هذه الغرفة التى خيل لصاحب الفندق انه يجعلها مريحة بأن وضع تحت المنضدة سجادة صغيرة ، كانت تفوح منها تلك الرائحة التى تتميز بها الفنادق ، فقد كانت رائحة عفن وثياب قديمة ودخان وغبار رطب ، وقد نام فى هذا الفراش الضيق عددكبير منالشباب والرجال والنساء والأولاد وقضوا فيه ليلتهم كما لوكانوا فوق دكة فى غرفة انتظار. وكم شهدت هذه الغرفة من ضحكات وبكاء ، ولكنها لم تحتفظ بأى اثرلها مع ذلككانت فظاظتها وظلها وصمتها. كان كل ذلك مملوءا بنوع من الحزن المخزى .. بذلك الحزن المقزز الذى تتسم به مخادع الفتيات التعيسات والتى تشهد قبلات حب باكمله .

وعادت افكار المرأة الشابة الى فناء الفندق والى الأسطبل وقالت : يبدو لى اننى رايت فيما سبق فناء مماثلا لفناء هذا الفندق . لم أعد ادرى . كان ذلك منذ وقت طويل .

وامسكت كما لو انها خشيت ان تفتش فى ذكرياتها . وارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتي زوجها وقال فى رفق :

ــ انما انت تتوهمين يا مادلين . ان النوم يغالبك بحيث تحلمين وانت واقفة . اننا نعيش هنا فى المجهول . ومنذ الأمس وانا اهفو الى هذه العزلة والى أن نكون بعيدا عن الدنيا كلها . ان هذه الغرفة كئيبة ، ولكن لها سحرها بالنسبة لنا فهى لا تحدثنا الا عن حاضرنا وتبعث الينا بالهدوء بفراغها وتفاهتها . ويسرنى انه خطر لنا ان نتوقف هنا . سنذهب غدا ، بعد ان نستجم الليلة الى باريس . وسنكون سعيدين معا يا مادلين ... صدقيني .

هزت راسها دون ان تفارق النار بعينيها وقالت : لا ادرى مابى . اننى اختنق ، واحس بضيق كبير .. لقد تملكنى الخوف ، ومازلت اعتقد ان هناك خطرا يتهددنى .

قبل شعرها وقال فى رفق ورقة كبيرين : ماذا تخشين ؟ الست بين ذراعى . لا احد هنا يمكن ان يروعنا . آه . ما أشد الغبطة التى اشعر بها وانا اقول أن ما من احد فى العالم يعرف اننا فى هذه الغرفة . لايوجد هنا احد تستطيع نظراته أن تمنعنى من ان اضمك الى صدرى . ان حبنا اكبر من أى شيء . فيم يهمنا الماضى ولماذا نبالى بجراح الخارج . يكفى ان كلا منا يحب الآخر ، وان يتعلق كل منا بعنق الآخر والا نحفل بما يدور حولنا . فلنتقل اننا لانعرف احدا فى الدنيا واننا وحدنا فى هذه الأرض ، لا اهل ولا اقارب لنا ولا أصدقاء ولنستغرق فى حبنا المنفرد ، فليس فى الدنيا غيرنا يا مادلين ، واننى اهب نفسى لك ، وانا سعيد بأنى ضعيف وان أقول لك اننى مازلت احبك .. انى كدرت حياتى ولكنى احبك يا مادلين .

احست مادلين بالارتياح شيئا فشيئا وهى تسمع كلماته التى تزخر بالحب وتالقت عيناها وانبسطت أساريرها وتوردت شفتاها وان كانت الابتسامة لم تعلوها بعد وغلبها التأثر وهي تراه يحبها كل هذا الحب . وتحولت ونظرت اليه . وقد تولد فى عينيها أمل جديد وحب يوصف .

وانبسطت أسارير جيليوم هو الآخر وقال : لن يفرق بيننا شيء .

أجابته فى توكيد : نعم . لن يفرق بيننا شيء . اذا ماظل كل منا يحب الآخرهكذا . يمكننا ان نعود الى فيتوى او ان نذهب الى باريس ، ولن يغير هذا من الأمر شيئا . ابق على حبك واقسم لك اننى سوف أكون لك الى الأبد يازوجى العزيز .

وتعانقا عناقا طويلا تبادلا فيه القبلات . ودقت الساعة اثنتى عشرة دقة فصاحت مادلين :

ــ منتصف الليل هكذا سريعا . يجب أن نأوى الى الفراش الآن اذا كان لابد لنا من النهوض مبكرين .

وقامت عن ركبتي‌جيليوم، فنهض هذا الأخير بدوره وهو يقول :

ــ سأمضي الى الأسطبل أولا لأرى اذا كان الجواد لاينقصه شيء . وما ظنك تخافين وحدك ياعزيزتى .

ضحكت مادلين وقالت : ومم أخاف ؟.. اننى لست جبانةحقا. سأكون قد غرقت فى نوم عميق قبل عودتك .. ولكن عجل بالعودة ياجيليوم .

قبلهاجيليوم وخرج . ووقفت مادلين لحظة تنظر الى النارالخامدة وعلى شفتيها تلك الابتسامة الرقيقة . وكما قالت لجيليوم منذ لحظة أحست بهدوءكبير واحساس‌اكبر بالأمان. وراودتها آمال‌جديدة جددت ثقتها فى المستقبل . ولم تكن قد اهتمت بالغرفة حتى هذه اللحظة ، فقد مضت راسا الى المدفاة لكى تدفىء قدميها ، وبقيت جالسة على ركبتى جيليوم . وعندما خرجت من جمودها ارادت ان تتاكد اذا كان الوظف صعد بكل حوائجها فرفعت عينيها ورددت بصرها حولها .

وماكادت تفعل حتى عاد اليها احساسها بالضيق دون ان تدرى لذلك سببا واستولى عليها خوف مبهم . وتملكها الاضطراب والتقزز اللذين سبق ان أحست بهما فى الفناء ، فقد خيل لها انها تعرف هذه الغرفة . ولكن نور الشمعة كان ضعيفا فلم تستطع ان تميز شيئا فى وضوح ورمت نفسها بالجنون والجبن وهى تحسب انها تحلم فى اليقظة . واذ فحصت حوائجها افتقدت حقيبة صغيرة راحت تبحث عنها بعينيها فى ارجاء الغرفة ولم تلبث أن رأتها فوق الصوان ، حيث وضعها الموظف . وكانت الحقيبة تخفى الساعة عن عينيها . وعندما اخذت مادلين الحقيبة ورات الساعة تسمرت فى مكانها وقد امتقع وجهها امتقاعا شديدا .

انها لم تخطىء ، فهى قد عرفت الفندق وعرفت الغرفة . لقد

نامت فيها فيما سبق مع جاك ، فقد كان الطالب يحب الرحلات البحرية . وكان كثيرا مايذهب الى روين عن طـريق البـحر مع اصدقائه . وكان هؤلاء يضطجعون مع عشيقاتهن . وكانت مادلين قد اشتركت معهم فى احدى هـذه الرحلات ، وعندما بلغت مانت احست بالمرض فجاة وتوقف الجميع فى فندق الغزال الأبيض .

ووقفت جامدة وراحت تنظر الى الساعة فاحصة ليس هناك أى خطأ ، فان مثل هذه الساعة لايمكن لمن يراها ان ينساها ابدا . ووقفت تحدق فيها وقد تذكرت انها تأملتها قبل ذلك هى وجاك . وارتدت الى الخلف كما لو كانت قد رات شيئا فظيعا .

واستولى عليها الغضب .. غضب أعمى لللاحقة الذكريات لها . الا يمكن أن تنام ليلة واحدة فى هـدوء ؟ اليس مسموحا لها ان تنسى ... ان جاك يلاحقها فى كل خطوة ، وقد اتى معها حتى هذه الغرفة التى دفعت الصدفة بها اليها . وقد بلغت بها الحماقة الى حد ان الأمل راودها والى ان تزعم انها برئت واحست بالراحة والهدوء . كان احرى بها أن تستمع الى ذعرها والى الضيف الذى حذرها بالضربة التى تهددها . سوف تصاب هذه المرة بالجنون . فماذا تقول لزوجها ؟ لذلك الرجل الذى هدهدتها كلماته الرقيقة بحلم كاذب منذ دقائق ؟ هل تجد من نفسها الشجاعة لـكى تقول له : انك اخطات . وهذه الغرفة ملعونة . فقـد نمت فيها مع عشيقى الأول ؟ أوهل تسكت وترضى بأن تتقهقر بين ذراعى جيليوم . وفى اضطرابها راحت تنظر الى الباب وتصغى الى أصوات الفندق المختلفة وهى تخشى ان تسمع خطوات زوجها وترتجف لمجرد فكرة ان تراه يدخل والا تدرى ماذا تقول له .

وفيما هى ترهف السمع خيل لها ان هناك من يمشى فى الطرقة فى سكون ويقف أمام الباب . وسمعت طرقة خافتة فقالت فى صوت آلى وهى مرتبكة ولا تدرى ما تقول : ادخل .

ودخل الطارق . ولم يكن جيليوم ، وانما كان جاك .

الفصل العاشر

عندما صحا جاك فى قصر نوارود دهش جدا لرحيل جيليوم وزوجته المفاجىء ، غير انه لم يرق اليه أى شك فى المأساة الرهيبة التى تسبب فيها بوجوده ، فقد قالت له جنفييف ان احد اقارب سيدتها مات فجأة وان جيليوم اضطر ان يسافر معها ليلا. وماكان ليخطر له لحظة واحدة ان يناقش صحة هذه القصة وقال : « لابأس . سوف أراهما عند عودتى من طولون » ولم يعد يفكر الا فى كيف يقضى بقية الوقت ، فى ذلك اليوم على احسن مايكون.

وقضى وقته فى التجوال فى شوارع فيتوى الضيقة والصامتة . وكان من سوء حظه انه لم يلتق بأى واحد من زملائه القدامى فى المدرسة . ومضى الوقت بطيئا الى حد الملل . وقبيل رحيل مركبة السفر المفروض أن تقله حتى مانت التقى برجل كهل كان صديقا حميما لعمه هتف عندما رآه أمامه . وراح يروى له فى اسهاب اللحظات الأخيرة لعمه . وعندما اخلى سبيله أخيرا ، كانت المركبة قد فاتته . وأضاع ساعة أخرى فى البحث عن عربة بالأجرة تمضى به الى مانت ، وبلغ المدينة أخيرا بعد انطلاق القطار ببضع دقائق. وقد ضايقه ذلك . ولما قيل له ان هناك قطارا آخر ينطلق منمانت فى وقت مبكر من صباح اليوم التالى رأى أن يقضى الليلة فى فندق الغزال الأبيض . وكان قد نزل به قبل ذلك أكثر من مرة .

وكان يعرف الفندق جيدا . ولم يكن احد من الموظفين قد استبدل بغيره . وقاده الموظف الى غرفته وهو يستعيد معه الأيام التى سبق أن قضاها فى الفندق مع مادلين ، وقال له انه يتذكر هذه السيدة تماما وانها امرأة جميلة وكريمة جدا .

وكانت الساعة قد بلغت العاشرة ، وراح جاك يدخن أمام الموقد حتى تجاوزت الحادية عشرة . وعندما هم بأن يأوى الى فراشه سمع طرقا خفيفا على الباب . ودخل الموظف وعلى شفتيه ابتسامة غريبة وتمتم يقول انه يريد أن يسر اليه بشىء وانه يستسمحه لتطفله ، وانه اذا كان يتدخل فى شئون غيره فذلك لأنه يظن إنه يسدى خدمة للسيد ، خاصة وانه يعرف انه كان غائبا عن فرنسا

مدة طويلة ، وانه قد يروق له ان يسمع أخبار شخص بالذات .
وطلب جاك منه أن يتكلم وقد فرغ صبره .

وأخبره الرجل عندئذ ، وبكل جرأة بأن مادلين موجودة فى الفندق ، وانها أتت اليه برفقة سيد آخر، وضحك ضحكة خبيثة. وهو يقول انه انزلهما بالغرفة رقم ٧ ، وان السيد لاريب يتذكرها جيدا ولم يسع الجراح السابق الا أن يبتسم هو الآخر فقد كان حبه لمادلين قد فتر بحيث لم يؤثر فيه هذا القول . والقى على الموظف سؤالا او سؤالين وسأله اذا كانت مادلين ماتزال جميلة ؛ واذا كان رفيقها متقدما فى السن ، وصرفه اخيرا وهو يقول له ان وجود المراة الشابة فى الفندق لن يمنعه من النوم .

ولكنه كان يتبجح ، فما ان انصرف الرجل حتى راح يذرع الغرفة جيئة وذهابا وهو يفكر فى حبه القديم رغما عنه . ولم يكن من القوم الحالمين بطبيعته ، فان ذكرى عشيقته القديم لم تزعجه طوال مدة غيابه الطويلة . ومع ذلك فقد تملكه شيء من الانفعال حين عرف انها موجودة فى نفس الفندق ، برفقة رجل آخر، فقد كانت هى المراة الوحيدة التى ظل يعاشرها طوال عام كامل ، ويقينه من انها كانت عذراء عندما جاءته ميزتها فى عينه عن كثيرات غيرها لم يقض مع كل منهن غير ليلة واحدة . على انه كان يتفلسف ويقول ان هذه هى الحياة ، وانه كان يتوقع ان يرى مادلين بين ذراعي رجل آخر، ولم يشعر بأى ندم ولم يبكته ضميره لانه القى بالمراة الشابة فى حياة المصادفات ، وقال لنفسه انها لابد قد وقعت على عشيق ثرى، وانتهى من حلمه الى رغبة قوية في أن يضغط على يدها كصديق قديم . لم يعد يشعر نحوها بأى حب ، ولكن راق له ان يلتقى بها وان يتبادل معها بضع كلمات . وعندما خطر ذلك بباله لم يعد يفكر الا فى الوسيلة التى تمكنه من دخول غرفة مادلين ولو لحظة واحدة .. وبدت له هذه المقابلة على غاية من البساطة ، بل انه توقع أن تسرع عشيقته القديمة الى ذراعيه . ولو انه خطر له انها تزوجت لبدا له هذا الخاطر مضحكا لأنه كان يراها دائما ، فى غرفته بشارع سوفلو ، تجالس أصدقاءه وهم يدخنون ويتسامرون . وكل مافكر فيه هو أن يتوخى الحذر حتى لايسيء اليها فى ذهن عشيقها الجديد.

وكانت غرفته تقع فى آخر الممر، ولا يفصل بينها وبين الغرفة رقم ٧ غير ثلاث غرف ، فوارب بابه ووقف متجسسا وراح ينصت ويفكر فى صعوبة تنفيذ مشروعه . وكان يجب ان يرحل فى وقت

مبكر من صباح اليوم التالى . وبدا يداخله اليأس من بلوغ هدفه عندما سمع صوت باب يفتح ورأى فى شيء من الغموض رجلا يخرج من الغرفة رقم ٧ وينصرف ناحية السلم . وعندما تلاشى وقع أقدام الرجل ضحك فى صمت وقال : ها هو السيد قد خرج ، وهذه هى اللحظة المناسبة لكى أذهب واحيى السيدة .

وتقدم فى سكون حتى باب مادلين وطرقه . وفتح بمجرد ان سمع الأذن بالدخول وعندما راته المراة الشابة نهضت واقفة فى حركة مباغتة ، ولكن ظهوره هكذا فجاة لم يصبها باية صدمة كما لو كانت قد راته قبل ذلك ، فقد كانت تتوقع أن تراه تقريبا ، فمنذ ان عرفت الغرفة ، ومنذ ان لاحقتها الذكريات من جديد وهى تتوهم ان عشيقها الجديد امامها . وعندما راته أمامها بدا لها الأمرطبيعيا لأن الغرفة غرفته . بل انها لم تسأله كيف اتفق انه جاء الى الغزال الأبيض ، وكيف عرف انها موجودة به . وأحست بكل كيانها يتجمد ، ووقفت معتدلة ، متوترة ، تحدق بعينيها فى جاك ، متوقعة ان يسبقها الى الكلام .

وقال أخيرا فى صوت خافت ، ولكن هذه هى مادلين حقا ! ان لجوزيف هذا ذاكرة قوية جدا .. اعنى ذلك الموظف الذى قام على خدمتنا ، عندما أتينا هنا ذات مرة . انه هو الذى قال انك هنا وانه رآك . وقد أردت ان أصافحك يافتاتى العزيزة . الا تريدين مصافحتى ؟

وتقدم نحوها وعلى شفتيه ابتسامة عريضة ، وهو باسط يديه ، فارتدت الفتاة الى الخلف وهى تقول فى صوت خافت : كلا .. كلا ..

وبدا ان هذا الرفض قد أدهشه ، ولكنه لم يفقد هدوءه ، وعاد يقول : الا تريدين أن أصافحك ؟ ولكن لماذا ؟ هل تظنين اننى أتيت لكى أكدر عليك صفو حبك الجديد ؟ اننى اتيت كصديق يامادلين .. صديق حميم لا أكثر .. اننى انتظرت حتى خرج السيد الذى معك ، وسوف أنصرف قبل ان يعود . هل هو راؤول ؟ ..

وراؤول الكبير هو ذلك الطالب الذى عرض على مادلين ان تعيش معه بعد دقائق من رحيل الجراح . وارتجفت لسماعها هذا الاسم ، فقد جرح شعورها افتراض جاك بأن علاقة قامت بينها وبين احد أصدقائه القدامى . واذ رات ذلك عقدت النية على ان تعترف له بالحقيقة فى بضع كلمات وان تتوسل اليه الا يحاول رؤيتها بعدذلك .

ولكن الشاب عاد يقول فى لهجة مرحة :

ـ الا تردين ؟.. حسنا . انك تتكتمين ، ولكنك اخترت هذه الغرفة .. هل تتذكرين هذه الغرفة بالذات ؟.. آه ، يافتاتي العزيزة ، لقد كانت أياما حلوة وجميلة ! الا تعرفين انك تغشين هذا السيد بقدومك معه الى هذه الغرفة .

وضحك ضحكة كبيرة ، وراحت مادلين تنظر اليه مشدوهة ، واستطرد يقول : انني لم أكن مغرورا أبدا ، واظن انك نسيتني تماما ... ومع ذلك فلست أريد أن أكون مكان ذلك السيد ، ولكن فيما بيننا ، لماذا اخترت هذه الغرفة بحق الشيطان ؟.. الا تردين ؟.. ولكن هل افترقنا متخاصمين ؟

أجابت فى صوت أصم : كلا .

وتخاذلت ، واتكأت بيديها على المدفاة لكى لاتقع . لن تجرؤ ابدا على النطق باسم جيليوم الآن ، بعد ان سخر جاك من الرجل الذى اتى معها الليلة الى هذه الفرقة التى ضمتهما معا ذات يوم ، خصوصا وانه قال فى خشونة وفظاظة انها تعمدت المجىء اليها يدفعها الى ذلك شىء من الابتذال والانحلال . خيل اليها ان عشيقها السابق قد القى بها بكلمة واحدة فى الوحل الذى ما كان يجب ان تخرج منه ، وحسبت نفسها انها تلوثت بلطخة لاتمحى بحيث أطرقت برأسها فى خجل كالمذنبة . ثم ان وجود جاك قد أصابها بحالة من الذعر ، واحست بأنه لايزال متسلطا عليها ، وانها مازالت ملكا له بروابط الجسد المتينة ، وان مجرد سماعها صوته يحطم ارادتها ويجعلها تهتز وترتجف وتحس بأنها ضعيفة ومغلوبة على أمرها . وعندما أحست فى أعماق كيانها بضعف المرأة المستسلمة فزعت من نيتها الأولى للمقاومة وسكتت راضخة . ولم يعرف جاك شيئا من كل هذه الانفعالات التى تعتمل فى نفسها . وكانت الصدفة هى التى دفعته فى طريقها ، وعليه فقد عزمت على ان تشرب كل عارها حتى النهاية وان تنتظر حتى ينصرف .

ولم يكن فى وسع الشاب أن يخمن الأفكار التى تدور فى ذهنها وتجعلها تمتقع وتضطرب هكذا ، وتصور انها تحسبه يريد انتظار الرجل الذى جاءت برفقته لكى يتشاجر معه ، فقال وهو يضحك:

ـ ولكن لاترتجفى هكذا .. اتحسبيننى وغدا ؟ قلت لك اننى اردت أن أصافحك فحسب . سوف أمضى كما جئت ، فليست بى اية رغبة فى رؤية ذلك السيد ، ولا يهمنى أن أراه . سأختفى عند اقل حركة .

ومضى الى البـاب وأرهف سمعه ثم عاد دون ان يفقده تصرف مادلين شيئا من مرحه . اطربته هذه الزيارة الغريبة ، ولم يشعر بما فيها من قسوة وغلظة ، وعاد يقول :

ـ هل تعرفين انني أوشكت ان اموت وأن ابقى فى أعماق البحر؟ ولـكن الأسماك لم ترغب فى ، وعدت للاقامة فى باريس ، أوه ، سوف التقى بك هناك طبعا ، وانى واثق انك لن تقـابليني بهـذه السحنة المذعورة عندئذ .. وانت ؟.. ما اخبارك ؟.. وماذا تفعلين؟

اجابت : لا شيء .

كانت خائرة القوى ، تصغى اليه وترد عليه آليا . وكانت تقول لنفسها انه لن يلبث ان ينصرف وانها تستطيع ان تفكر فيما بعد. ولم يخطر لها ، وهى فى ذعرها ، ان زوجهـا يمكن أن يصعد من لحظة لأخرى .

وقال جاك فى شيء من الحيرة : آه !.. لاتفعلين شيئا ؟.. ولكن ما اشد برودك !.. وأنا الذى كنت أظن انك سترتمين على صدرى! هل تحبينه اذن ؟

ـ نعم .

ـ هذا جميل ... وهل تعيشين معه منذ مدة طويلة ؟

ـ منذ خمس سنوات .

ـ يا للشيطان !.. انه حب جدى اذن .. وهو ليس راؤول الكبير بكل تأكيد . أيكون جورج اذن ؟.. كلا .. جوليان دوران ؟ ولا هو أيضا ؟ .. انه شخص لا اعرفه اذن ؟

ازداد امتقاع وجهها ، وعرتها رجفة. وظن جاك انها تسمع خطوات عشيقها فقال : أوه ، لا تخافى . اننى وعدتك ان انصرف بمجرد عودته . يسرنى أن اتبادل معك حديثا قصيرا . ولكن الا تريدين ان تقبلينى قبل أن انصرف .

ارتدت مادلين الى الخلف مذعورة ، وارتطمت بمقعد وهى تفعل ذلك وقالت متوسلة : كلا ، كلا ، دعنى وحدى بالله .

وأدرك انه آلمها بوقاحته بغير داع ، فسار بضـع خطوات نحو الباب ، ولـكنه لم يلبث أن استدار وقال :

ـ انك على حق يا مادلين ، وانني لأحمق ، وقد أخطأت بمجيئى اليك . سامحينى واغفرى لى ضحكاتى ، كمـا غفرت لك جمودك وبرودك . ولكننى أخشى أن تكونى بغير قلب ، وان تكون ذاكرتك قد خانتك . ولكن ، اذا كنت تحبين ذلك الرجل حقا ، فلا تبقى

معه فى هذه الغرفة .
وكان يتكلم بلهجة الجد ، وهو يشير الى جدران الغرفة .
واستطرد يقول : انا لست قديسا .. وقد قطفت الحب اينما وجدته ، ومع ذلك فاني ما زلت اسمع صرير هذا الفراش .. وهذه الغرفة ، وجميع ما فيها من مفروشات تحدثنى عنك .. فلا تنسى ذلك يا مادلين .
واثارت الذكريات التى احياها الأمل فى نفسه فقال وهويقترب منها : تعالى يا مادلين .. صافحينى ولو مرة واحدة ثم انصرف بعدها .
عادت المراة الشابة تقول فى ارتياع : كلا . كلا .
حدق فيها لحظة وهي ترتجف ثم هز كتفيه وخرج .. انصرف وهو يرميها بالغباء ، وقد تحول ندمه الذى احس به الى سخط شديد نحو عشيقته القديمة التى تأبى أن تصافحه . واذا كانت قد جاءته ومضة من الحساسية وهو يشير الى ارجاء الغرفة فقد آتاه ذلك التأثر الرقيق من غيرة مبهمة كان يخجله الاعتراف بها .
وراحت مادلين ، بعد انصرافه ، تذرع ارض الغرفة جيئة وذهابا، وهي تأخذ بعض حوائجها من مكان وتنقلها الى مكان آخر دون أن تدرى ماذا تفعل . وكان فى كيانها شيء من الصخب والذهول شل تفكيرها. وخطرلها لحظة ان تسرع خلف جاك وان تطلعه على زواجها بجيليوم ، فقد احست الآن ، بعد أن اختفى من امامها بأنها تستطيع ان تقدم على مثل هذا الاعتراف . ولم تفكر فى الاقدام على هذه الخطوة الجريئة لمساعدة زوجها وتأمين مستقبله ، وانما كانت تفكر فى نفسها ، فقد تمردت اخيرا ازاء ازدراء عشيقها القديم وضحكاته، وارادت انتقول له انها تعيشعيشة شريفة، وانه يجبان يحترمها. وقد اخفي عنها تمردها هذا حقيقة موقفها ، ولم تعد تتساءل ماذا تقول لجيليوم عند عودته . وساءتها ملاحقة الأحداث لها ، ولم تجد فى أعماقها غير الغضب وغير حاجة انانية للتخفيف عن نفسها بطريقة عاجلة وعنيفة .
وعندماعاد جيليوم ابتدرته قائلة : لقد كان من الجبن ان نهرب.
سألها : لماذا تقولين ذلك ؟
رفعت راسها فى تحد وقالت : ما كان يجب ان نهرب كما لو كـ من المجرمين . كان يجب ان تساندنا خمس سنوات من الحب ، وان نبدى شجاعة اكبر. ولكن لم يعد امامنا الآن مجال للمقاومة ؛

فقد فلبنا على امرنا .. ومنت نمننا .
عاد يقول وقد اراد ان يعرف كل شيء : ما الذى حدث يامادلين؟
بلغ التوتر بمادلين مداه ، فانفجرت فى وجه جيليــــــوم فجاة وصاحت : انني رايت جاك .
حدق جيليوم فيها فى غباء وهو لايفهم ، فعادت تقول فى اصرار:
ــ وقد اراد ان يقبلني .
اتــكا على المنضدة وقال فى اعياء : ولــكن جاك رحل .
ــ كلا . انه ينام فى الغرفة المجاورة ، وقد رايته .
قال فى غضب : يا الهى .. انجد هذا الرجل فى كل مكان ؟
ــ هل تظن انك تستطيع ان تدفن الماضى ؟.. آه . خيل لك ان هذه الغرفة بعيدة نائية ، لايمكن لأحد أن يهتدى الينا فيها . قلت لى اننا سنكون وحدنا ، بعيدا عن العالم ، واننا سنقضى هنا ليلة حب هادئة . حسنا ، حسنا . ان ظل هــذه الغرفة وصمتها كانا كاذبين . والــكدر كان ينتظرنا فى هذا المكان المجهول الذى ما كان يجب أن نقضيا فيه غير بضع ساعات .
ولم يستطع زوجها ان ينطق بشيء ، وراح يصغى اليها فى جزع وهي تستطرد قائلة : وقد كنت انا من الغباء بحيث صدقت انه توجد اماكن نستطيع فيها النسيان ، واخذت الأحلام تهدهدنى.. ولكن ارايت الآن ياجيليوم ؟ ليس هنــاك اى مكان نستطيــع ان نختفى فيه ، ومهما هربنا واختفينــــا ، فان القــدر سيعرف كيف يصل الينا ، وســــنجد فيه عارى الذى يروعنا . ســــوف نــكون كالحيوانات الطريدة ، الجريحة التى تبحث لهــا عن مأوى فى كل دغل ، وينتهى بها الامر الى ان تموت فى احدى الحفر .
وامسكت لحظة ثم استرسلت تقول فى عنف متزايد : ان الذنب ذنبنا نحن ، فما كان يجب ان نكون من الجبن بحيث نهرب.عندما غادرنا نوارود ، عقب قدوم هذا الرجل ، تذكر اننى قلت لك ان الذكريات قد انطلقت من عقالها وانها سوف تلاحقنى ، وانه لابد لنا ان نواجه مشكلتنـــا لأننا لانستطيــع الهرب منهــا . والآن ، انطلقت كلاب الجحيم خلفنا ، واشعر فى هذه اللحظة بأنها تعضنى، وتغرز انيابها فى جسدى . آه . شد ما اتالم ... ان الذكريات تمزقنى .
كان العذاب قد هدكيان جيليوم ، وزاد من آلامه وعذابه كلمات زوجته وتمردها وود لو ان يفرض عليهــا الصمت . وقال يحاول

تهدئتها : سوف ننسى كل هذا يا مادلين .. مازلت أعتقد أننا سنجد سعادتنا بعيداً عن هنا .
ضحكت مادلين ، وعقدت يديها وقالت : هل تظن انني أستطيع ان أجرح نفسي في كل خطوة ، وأن أحتفظ ببرودي وهدوئي؟.. اني لست بهذه القوة يا جيليوم . يجب أن أجد الأمان ، والا فانني ساجن حتما .
اقترب زوجها منها واخذ يديها بين يديه في رفق وقال : اصغي الي يا مادلين . الا ترين انني اتعذب انا الآخر؟.. كفي عن هذه الأقوال الفظيعة . غدا ، بعد أن نستجم ، سوف نفكر في الأمر من جديد . تعالي . ان الوقت يجرى.. هلمي بنا الى الفراش.
كان كل مايتوق اليه الآن هو ان يعزل نفسه في هذه الغرفة المظلمة . كان يتلهف الى اللحظة التى يتمدد فيها في الفراش ، ويطفيء النور ولا يستمع بعد ذلك الى صوت مادلين المليء بالمرارة . ومضى الى الفراش وازاح الأغطية . ونظرت اليه في اهتمام غريب وقالت : انني لن أنام .. لن أنام في هذا الفراش معك .
تحول زوجها اليها مذهولا وهو لايفهم تمردها الجديد فقالت في فتور : انني لم أقل لك . لقد سبق ان نمت في هذه الغرفة قبل ذلك .. مع جاك .. نمت في هذا الفراش بالذات بين ذراعي جاك.
واشارت الى الفراش اشارة لها مغزاها ، فارتد جيليوم مصعوقا أمام قسوة زوجته . وتمتمت هذه الأخيرة تقول بعد لحظة : انني أعرف هذه الغرفة جيدا .
ومضت الى منتصف الغرفة في بطء . وهناك ، راحت تردد البصر حولها وتقول : انني اتذكر كل شيء هنا .. كل شيء .. آه . يا لهذا الصداع الذي أحس به !.. لكأن راسي ستنفجر . يجب أن تصفح عني ياجيليوم ، فان الكلمات تخرج من بين شفتي رغما عني. أريد أن أردها ، ولكنها تغلبني على أمري . ما افظع الذاكرة! هل لك أن تقتل افكاري ياجيليوم .. اقتلها رحمة بي .
وارتفع صوتها الى حد الصياح تقريبا . ومدت يديها اليه في توسل وقالت: أود الا افكر وان اموت . واذاكان ولابد انأعيش فانني افضل ان افقد عقلي والا استطيع التفكير . ما اجمل ان افقد الذاكرة ، ولكنني لا استطيع !.. راسي .. ان الذكريات والأفكار تجرى في راسي كالدم الذي يسري في عروقي وتعذبني . اغفر لي يا جيليوم . يجب ان اتكلم .. لا استطيع ان اسكت .

وتقدمت بضع خطوات فى شرود ، وبحيث حسبها زوجها جنت حقا ، فبسط يديه وحاول ان يوقفها وهو يقول متوسلا: مادلين.
قالت : نعم . اضربنى .. أريد ان تضربنى .
وانفجرت باكية . وهدات الدموع ثورتها . كانت تشعر ، منذ بداية هذا الكابوس الذى أحيا الماضي بأن بحلقها بحرا من الدموع .
وما كانت لتتكلم لو انها استطاعت ان تبكى كما تريد ، ولكنها الآن وقد تحولت أشجانها وهمومها الى دموع ساخنة فقد ردت الى نفسها شيئا فشيئا ، واحست بأن كيانها بدأ يسترخى، وأدركت قسوة تمردها وثورتها . خيل اليها انها تخرج من كابوس تكلمت فيه عن كل المناظر المخيفة الفظيعة التى امتلأ بها ذهنها. وانتابتها الدهشة واتهمت نفسها بالكلمات التىافلتت من بين شفتيها ، ومهما فعلت فانها لن تستطيع الآن ابدا أن تسترد هذه الكلمات ثانية ، وسوف تقف ذكريات هذه الغرفة حائلا بينها وبينه كحقيقة حية لحلقة من غرامياتها مع جاك
وما كان لها الا أن تلوم نفسها على ذلك . فانها هى التىاعترفت بكل شيء دون ان يطلب جيليوم منها هذا الاعتراف . ومضتاليه باسطة ذراعيها ، متوسلة . وكان قد تهالك فوق مقعد ودفن راسه بين يديه وتمتمت :
— انك تتعذب . اننى قلت لك أشياء أدمت قلبك .. كنت مجنونة ومع ذلك فأنا لست شريرة .. ولك أن تتذكر أيامنا الحلوة .. اننى كنت قد نسيت وحسبت اننى جديرة بك. آه. شد ماكنت أحبك ياجيليوم !.. واننى مازلت أحبك . لا أستطيع ان أجرؤ ، واقسم لك اننى أحبك دائما ، لاننى أشعر تماما انك لن تصدقنى. ومع ذلك فهذه هى الحقيقة .. ان ذكريات هذه الغرفة أثقلت على ، ولو انى لم اتكلم لاختنقت .
ولم يقل جيليوم شيئا ، وبقى مستغرقا فى يأسه العميق فعادت تقول : اننى أفهم الآن . لقد انتهي كل مابيننا .. وما على الا ان اختفى . لاريب ان الموت جميل ! ..
رفع جيليوم عينيه الزائغتين وقال فى اكتئاب : الموت .. كلا ، كلا .. لايمكن ان يكون كل مابيننا قد انتهى .
ونظر الى زوجته وقد تأثر لمجرد تصوره أن يراها ميتة ، فى حين عادت هى تقول وهى تستعيد لهجتها القاسية :
— كن صريحا ولا تخش أن تقسو على فاننى لم أرحمك . ان

بيننا الآن رجلا .. هل تجرؤ ان تضمنى اليك بعد الآن يا جيليوم ؟
وساد بينهما الصمت فاستطردت تقول : هانت لاترد. ان الهرب مستحيل ، فلا اريد ان اتعرض بعد اليوم الى اية مهانة. لااريد ان انزل باى فندق قد تنبعث فيه الأيام الماضية من جديد .
وراحت تمشى فى خطوات مهتزة وهى تبحث حولها عن وسيلة للانتحار ، وراح جيليوم يتابعها بعينيه وهو لايستطيع ان يجد ما يقول ، ولو انها انتحرت فى هذه اللحظة لتركها تفعل ، ولكنها توقفت فجاة ، وقد مثلت امام عينيها صورة ابنتها . ولم تشأ ان تعترف لزوجها بسبب وقوفها واكتفت بان قالت :
ـ اصغ الى . عدنى الا تحاول منعى عن الانتحار فى اليوم الذى تصبح فيه حياتنا لا تطاق . هل تعدنى بذلك ؟
وعدها بما تريد بايماءة من راسه ثم نهض ووضع قبعته على راسه فسالته : الا تريد البقاء فى هذه الغرفة حتى صباح الغد ؟
اجاب وهو يرتجف : كلا . سوف نرحل الآن .
وبعد ان جمعا حوائجهما القيا نظرة اخيرة على الغرفة ... كانت النار قد بدات تخبو ، وغادرا الغرفة وهما يفكران انهما قدما اليها يحدوهما الأمل ، وغادراها وملؤهما الياس . وما ان خرجا الى الممر حتى اخذا يمشيان فى سكون وحذر حتى لايسمعهما جاك وعندما بلغا آخر الممر التفتت مادلين الى الخلف فى حركة غريزية .
وعندما هبطا الى الفناء كان لابد لهما من ايقاظ الموظف. وصحا هذا الأخير وهو يتذمر ، فقد بلغت الساعة الثانية صباحا ، وبدا له رحيلهما المفاجىء غريبا . ثم لم يلبث ان خطر له ان الرجلين ربما تشاجرا بسبب الغيرة ، فنسى تذمره . وعندما استقل الزوجان المركبة قال : مع السلامة .. الى الملتقى يامدام مادلين .
بكت المراة الشابة فى صمت . واطلق جيليوم العنان للجواد الذى بدا يسير من تلقاء نفسه ، ولم يعد اى منهما يفكر فى المضى الى باريس ، فقد آثرا ان يذهبا ويضمدا جراحهما فى هدوء وصمت الى قصر نوارود . وعادا من نفس الطريق الذى قدما منه كبهيمتين اعياهما الضرب ، وراحا يجران نفسيهما فوق الأرض لكى يموتا فى هدوء . وكانت هذه العودة حزينة ، فقد امتدت الحقول امامهما اشد اكتئابا تحت ضوء القمر الحزين .

الفصل الحادى عشر

واستعاد الزوجان حياتهما الميتة فى نوارود ، واعتكفا من جديد فى ظل غرفة الطعام الكبيرة . ولكنهما لم يعرفا فى وحدتهما هذه الهدوء والأمان الباسمين السابقين ، فقد كانت وحدة كئيبة كلها يأس وقنوط . كانا منـذ ايام قلائل يقضيان لياليهما أمام المدفأة لايتكلمان ، مكتفيين بتبادل البسمات السعيدة ، أما اليوم ، فقد ثقل عليهما صمتهما واحسا بضجر مميت وبذعر غامض ، مع انه لم يبد ان شيئا قد تغير فى حياتهما ، فقد كانا يعيشان فى نفس الهدوء ، ونفس النظام ، ونفس الرتابة والسكون . ولكن قلبهما بقى مغلقا ، ولم تعد نظراتهما تتلاقى فى رقة وحنو كسابق عهدهما. وكان هذا وحده كافيا لالقاء الجليد بينهما . وبدت لهما الغرفة الكبيرة السوداء مميتة الآن . وراحا يعيشان فيهما وهما يرتعدان باستمرار، يحزنهما يوم الشتاء القذر ، ويعتقدان انهما على حافة خندق . وكانا ينهضان أحيانا ويمضيان الى النافذة ويلقيان نظرة حزينة الى الأشجار الجرداء بالحديقة ، ثم يعودان وهما يرتجفان، ويعرضان أيديهما المقرورة الى اللهب .

لم يتعرضا أبدا الى المأساة التى حطمتهما ، والكلمات النادرة التى تبادلاها بقيت تافهة وفارغة من اى معنى ، واستولى عليهما الملل ، ولم يجدا من نفسيهما القوة للتحدث عن آلامهما ، وبدا أن الأزمة التى هزتهما فى فندق الغزال الأبيض قد اذهلتهما واصابتهما بالدهشة والجبن ، وخرجا منها وذهنهما متألم ، واعضاؤهما متعبة . واستسلما للخمود فى الهدوء الأسود الذى يحيط بهما. وعندما كانت تأتى ذكرى جارحة تمزق كيانهما الموجع فجأة ، كانا يقولان ان أمامهما شهرا ، فقد منحهما جاك ثلاثين يوما من السلام ، وفى مقدورهما أن يغفوا حتى عودته ، ويعودان الى الرقاد عندئذ، ويتبلد ذهنهما ، ويحلم كل منهما من الصباح الى المساء فى أمور صبيانية .. فى النار التى خبت ، وفى الطقس .. وماذا يأكلان ؟ ..

واستغرقا فى الحياة الحيوانية ، وكان أن تحسنت صحتهما ، وسمنت مادلين واصيبت بالنهم ، وراحت تتناول أطايب الأطعمة

واشهاها ، واستسلم جيليوم ، مثلها ، للكسل والألم ، وراح يمضي ساعات طويلة أمام النار، يغذي المدفأة بالحطب كلما بدأت النار تخبو.

وبدا لهما ان مهلة الشهر التى منحهما جاك اياها لاتريد ان تنتهى أبدا . وما كانا ليرفضا ان تنتهى حياتهمـــا فى البله الذى أصيبا به . وقد استمتعا فى الأيام الأولى بالذات بهدوء كبير. ولكن هذا السبات ما كان ليدوم ، فسرعان ما اعترضته انتفــاضات حادة . كان أقل حدث ينتزعهما من ضناهما ويسبب لهما قلقا شديدا . ولم تلبث جنفييف أن عذبتهما بدورها . وكانت هى أول من ردهما الى أوجاعهما من جديد ، فقد تعرضت لمادلين ، واذلتها بوجودها .

كانت المتعصبة العجوز قوية بحياتها الفاضلة ، وبعملها ، وعاملت الخاطئة بكل قسوة ، وقد أخنقتها فكرة المباهج الشهوانية ، خاصة وانها عاشت فى عذرية خشنة . ولهذا لم تستطع ان تغفر للمراة الشابة حياتها الغراميـــة ، والرعدة المثيرة التى لاتزال تسرى فى جســـــدها . وكانت تراها تنتقل من بين ذراعى جاك الى ذراعى جيليوم . وكان هذا العمل يبدو لها عهرا شيطانيا وفجورا قذرا ، ولم تكن قد أحست بأى ميــل نحو مادلين ، فراحت تــكرهها فى احتقار ممزوج بالهلع . كانت هـــذه المراة الشــابة القوية الشقراء تخيفها كما لو كانت غولة محبة لسفك دماء الشباب . واذا كانت ترهقها بكراهيتها فقد كانت ترتجف أمامها ، وتقف منهــا على حذر خوفا من ان تهجم عليهــــــا وتمسك بتلابيبها . وما كانت لتكره الشيطان بأكثر من كراهيتها لها .

وظلت تعيش معهما وتتنــاول طعــامها معهما ، وتمضى أمسياتها برفقتهما . وكان تصرفها المتوتر والمتوعد احتجاجا مستمرا ، فقد كانت تعاملهما كما لو كانا مذنبين ، وتنظر اليهما نظرة القاضى القاسى الذى لايرحم . وتبدى تقــززها وغضبها من بقائهمــا معا ، وكانت تحاول بوجه خاص ، ان تحمل مادلين على ان تحس بمدى احتقارها لها ، فاذا مامست المراة الشابة شيئا تجنبت اســتخدامه كما لو كانت تريد ان تقول لها بذلك انها قد دنسته . وكانت تجلس فى كل مساء وترتل مزامير التوراة ، وكان جيليوم قد طلب منها مرة ان تمضى الى غرفتها وتقرا توراتهــا ، ولــكنها ردت عليه وقالت ان تلاواتها المقدسة تطهر غرفة الطعام وتطرد منها الشيطان . واصرت على البقـــــاء مكانها حتى موعد النوم ، وهى تملأ أرجاء الغرفة بصوتها المدوى .

ولكن مادلين لم تكن لتقبل هذه الكوابيس دون تمرد . فقدكانت تنور أحيانا اذ تراها تقسو عليها هكذا ، وتقصى عنها الخبز الذى قطعته . وعندما تلتقى عيناها بعينيها القاسيتين الصارمتين اللتين تطاردها كان ينتهى بها الأمر الى أن يستولى عليها غضب لا حد له ، فتقول لها عندئذ انها هى سيدة البيت وتصيح بها قائلة :

ــ اننى اطردك . غادرى هذا البيت حالا... لا أريد مجنونة فى بيتى .

واذ يطرق جيليوم براسه وهو لايجرؤ على النطق بكلمة ، كانت تتحول اليه وتقول فى عنف : هل أنت جبان ؟ الا يمكنك أن تحملها على احترام زوجتك ؟ خلصنى من هذه المجنونة ، اذ كنت تحبنى .

وكانت جنفييف تبتسم عندئذ ابتسامة غريبة ، وتنهض واقفة ، فتبدو طويلة القامة ، وتحدق فى مادلين بعينيها المستديرتين المضطرمتين، وتقول بصوتها الجاف : انه ليس مجنونا . انه يعرف تماما اننى لااهين احد . لماذا تثورين فى حين ان الله هو الذى يتكلم .

وتحتدم مادلين غيظا عندئذ وتصرخ قائلة : سوف تغادرين هذا البيت . هل انا السيدة هنا ام لا ؟.. انه ليكون امرا مضحكا لو اضطررت الى ترك بيتى لخادمة .

وترد جنفييف عليها فى هدوء فتقول : كلا. لن اغادر البيت. ان الله اقامنى فى هذا البيت لكى أسهر على ابنى جيليوم ، ولكى اعاقبك عن خطاياك . سأبقى هنا حتى اليوم الذى يتخلص فيه من بين ذراعيك ، وحتى أراك ممزقة تحت غضب الله .

هذا الاصرار، وهذا الصوت الحاد من المراة العجوزكانا يحطمان ارادة مادلين . وكان يتملكها الضعف ولا تجرؤ على الامساك بخناق صاحبة المائة عام ، ولا تدرى فى نفس الوقت كيف تتخلص منها .

وكانت تتهالك جالسة وتكرر فى صوت مؤثر :

ــ شد ما أتألم ... الا تفهمين انك تقتليننى ببطء باضطهادك هذا ؟ هل تظنين اننى لا أحس ببرودة نظراتك ؟.. انك حين تعرئين كل ليلة ، كأنك تخاطبيننى انا وحدى ... هل تريدين أن اتوب ؟

ــ لاجدوى من التوبة فان الله لا يغفر جرائم الجسد .

ــ دعينى اذن فى سلام ولا تحدثينى عن شيطانك والهك . ابعدى كوابيسك عنى ، فانها تجعلنى الهث طوال الليل . يمكنك ان تبقى فهذا لايهمنى فى شيء ، ولكننى لا أريد ان اراك . انك تكلمت بالأمس عن الجحيم فى قسوة مخيفة ، وقد قضيت ليلة رهيبة .

وراحت ترتجف . ونظرت جنفييف اليها في سرور غريب وقالت:
— لست انا التي اطلق عليك هذه الكوابيس،واذا كنت لاتستطيعين النوم ، فذلك لأن الشيطان يسكن جسدك ، ولأنه يعذبك بمجرد ان تطفئي النور .

ولم تجد المرأةالشابة بدا من الاستسلام ، ورضخت للأمرالواقع، ورضيت بوجود الخادمة العجوز، فقد كانت كل مشاجراتهما تنتهي على هذه الصورة . وكانت مادلين تخرج منها وقد امتلأت رعبا ، وكانت في حدة فزعها تخلط بين جاك الذي لاتزال تحس به في احشائها وبين الشيطان الذي تزعم المتزمتة انه يسكن جسدها . واغرقها ازدراء المتزمتة لها ، والذعر الذي يبدو انها تحس بها عندما تراها في احلام مريرة ، وكانت تقول : هل انا كريهة الى هذا الحد، بحيث ترفض هذه المرأة أن تلمس الأشياء التي استخدمها ، وترتعد لرؤيتي كما لو كانت ترى شخصا بشعا . انها لتهرس رأسي بقدمها طواعية . لابد انني مخلوقة بائسة حقا .

وكان جيليوم يرتعد بشدة ولا يفكر في تخليصها من يدي جنفييف، فقد كانت هذه الأخيرة تهيمن عليها بصورة غريبة بكبر سنها وبحماسها الديني. وكان الشاب يود لوان يجد الجرأة لكي يرسلها للسكنى في الكوخ الكائن في آخر الحديقة ، ولكنه لم يستطع ان يرغمها على ذلك ، فهي قد ربت أباه ، وربته هو نفسه ، ولم يكن بوسعه ان يطردها من البيت حقا . وعندما كانت تتشاجر مع مادلين كان يتضاءل ، ويحاول الا يتحطم بين هاتين المرأتين الغاضبتين. ولكنه ، رغم كل شيء ، كانت تأتي عليه لحظة تمزقه كل من المرأتين، فكانت مادلين تعتب عليه احتماله حرية المرأة العجوز وسلاطة لسانها ، وكانت هذه الأخيرة تتهمه بأنه يدمر نفسه طواعية اذ يعيش في كنف الخطيئة . ولاحقته المرأتان ، كل منهما من ناحية ، ولما كان ضعيف الارادة فقد راح يتوسل اليهما ان تلتزما الصمت والا تكدرا حياته بهذه القسوة . وما ان يراهما ، الواحدة امام الأخرى حتى يتملكه الخوف من ان يسمعهما وهما تتشاجران ، ويستبد به القلق . واذا ما حدث وتبادلتا بعض الكلمات النابية فانه ينهض ويمضي الى النافذة وينقر بأصابعه على الواحها الزجاجية في قلق ، ويحس بالعاصفة تدوي في أذنيه .

وكانت لوسي سببا آخر من أسباب كدرهما ، بوجهها الشبيه بوجه جاك حين تكشر أو تتهجم أساريرها . وكانت مرضعتها قد

التحقت بخدمة احد أثرياء فيتوى بحيث أصبح من الضرورى ان تقيم الطفلة مع أبويها فى نواروود . ولم يجرؤ جيليوم على الاعتراف بأنها تخيفه وانه يجب ارسالها الى مكان بعيد ، وانما حاول ان يتناساها أثناء الأيام الطوال التى تقضيها بجواره . وكانت تجلس على الأرض ، ساكتة ، صامتة ، كما لو كانت شخصا كبيرا يفكر . كانت تدرك بتلك الغريزة التى يتمتع بها الأطفال ان اباها ينكرها . ولم تكن قد بلغت أكثر من الثالثة والنصف من عمرها ، فلم يكن فى مقدورها ان تفهم سلوك أبيها . ولكنها احست ان حنانه الذى كان يبديه نحوها قد تغير . واحزنها انه لم يعد يلاطفها ويداعبها كما كان يفعل . واذ رات مادلين ان لهو الطفلة الصاخب يعذب اباها اخذت تنهرها من وقت لآخر وتأمرها بالتزام الهدوء بلهجة قاسية بحيث استولى الذعر والخجل على الطفلة المسكينة، وراحت تمشى فى سكون متجنبة صدور أية حركة منها . واختفى مرحها الصاخب وحل محله نوع من الانطواء والخوف . وكان أحب وضع لديها هو أن تجلس القرفصاء امام النار، وتمسك قدميها الصغيرتين بيديها وتتأرجح على عجزها فى بطء لمدة ساعات طوال ثم تعود الى جمودها التام وتحملق فى اللهب . ولاريب انها كانت تفكر فى ذلك البرد الذى أخذ يجمد اطرافها ، ولاريب كذلك ان عقلها الصغير كان يشرد فى الأحزان الكبيرة التى لا تستحقها . وكانت تخرج من احلامها فجأة وترفع رأسها وتنظر الى جيليوم ، فتزم شفتيها وتقطب جبينها وتحدق فى ابيها كما لو كانت تحاول أن تقرأ فى وجهه سبب لومه لها . وكان يخيل للشاب عندئذ انه يرى جاك أمامه فينهض من مكانه ويذرع أرض الغرفة جيئة وذهابا كالمحموم .

وفى بعض الأحيان راح ذهن جيليوم يوسوس له بأشياء غريبة فى الأيام الأخيرة ، فقد لاحظ ذات يوم أن زوجته اتت بحركة من يدها طالما رآها تصدر قبل ذلك من جاك ، فقد كان هذا الأخير يحرك يده الى الأمام كلما تكلم . واخذ يراقب زوجته ويفحص كل حركة من حركاتها وكل تغيير يطرأ على صوتها ، ولم يلبث أن اقتنع انها احتفظت بشىء من حركات عشيقها السابق ، وكان أن أصابه هذا الاكتشاف بصدمة عنيفة .

ولم يكن بالحالم ، فقد كانت لمادلين فى بعض الأوقات وجه شبه مع جاك ، فانها شاركت حياة الشاب فيما سبق ، وعاشرته ، واكتسبت طباعه وعاداته طوال السنة التى عاشتها معه ، وراحت

تكرر الكلمات التي ينطق بها عادة ، وتقوم على غير وعى منها بكل حركاته العادية وتقلد طريقته فى الحديث . وهـذا ميـل طبيعى للتقليد والمحاكاة يمنح المرأة بعد بعض الوقت قرابة فىعادات وطباع الرجل الذى تعيش بين ذراعيه ، ويحملها على تغيير بعض عاداتها وطباعها هىبالذات .

وفيما بعد ، بعد أن هجرها جاك نسيت هذه الطباع والعادات وان بقيت زوجته وقريبته الى الأبد . ثم جاءت قبلات جيليوم ومحت من وجهها سمات جاك تقريبا . ومضت خمس سنوات منالنسيان والهدوء ارقدت فى كيانها دم ذلك الرجل . ولكن ما ان عاد حتى استيقظ هذا الدم ، وعاشت مادلين بعد ذلك وهى تفكر وتخشى عشيقها الأول ، وتستعيد رغما عنها طباعه وعاداته السابقة .

وكان جيليوم يرتجف احيانا وهو يسمعها تنطق بكلمة ما ويرفع راسه فى هلع وينظر أمامه كما لو كان يتوقع أن يرى صديقه فلا يرى غير زوجته التى تذكره تعبيرات وجهها بوجه الجراح ، فقد كانت تتحرك وتلوى عنقها وتهز كتفيها كما لو كان جاك يفعل تماما. وكانت تنطق من وقت لآخر بكلمات تهزه هزا وتتسبب فى ايلامه حين يتذكر انه سمعها من بين شفتى جاك . ولم تكن تفتح شفتيها الآن أو تبدى حركة ما الا ويجد هذه الحركة تنطق بحبها الأول . ولو انها أرادت أن تنكر امتلاك جاك لجسدها كله فان جسـدها نفسه كان ينطق بأنها غدت عبدة لجاك وجارية له ، فهى لم تكن تفكر فيه فحسب ، وانما كانت تعيش معه وبين ذراعيه حقيقة . ولو أن جيليوم اخذها بين ذراعيه عندئذ لأقر بانه مذنب برغبة بشعة. وعندما تأكد أن مادلين عادت واصبحت الزوجة الطائعة لجاك قضى وقته فى دراسة هـذا التحول المجيب . وقـد فعل هذا رغمـا عنه لأن هذه الدراسة كانت تسبب له آلاما مبرحة ، وشاهد يقظة الحب القديم ملاحظا كل شبه يتكشف له . وأوشكت اكتشافاته هذه ان تصيبه بالجنون . فان ابنته لم تكن وحدها صورة من هذا الرجل الرجل الذى تحرقه ذكراه ، وانما كان لابد لزوجته أن تحدثه عنه بصوته وحركاته .

ولم تكن مادلين لتستطيع ان تفسر شيئا مما يحدث لها. وانما كانت تتألم فحسب من امتلاك جاك لها ومن عدم استطاعتها طرده من اعضائها ، فهى لم تعد تحب ذلك الرجل ، وكانت تود لو أن تقصيه عن صدرها ، ولكنها كانت تشعر بأنه يضمها الى صـدره ويسيطر عليها . كان الأمر معه كما لو كان يغتصبها باستمرار ،

وهو اغتصاب كان ذهنها يثور عليه ، وجسدها يرضى به ويتقبله على الرغم مما تبذله من جهد لكي تتخلص منه الى الأبد . وكان هذا النضال القائم بين جسدها الأسير ورغباتها في أن تبقى ملكا خالصا لجيليوم سببا دائما لذعرها واضطرابها . وعندما بذلت كل طاقاتها وحسبت انها تخلصت من ذكرى عشيقها ، وسمعت في اللحظة التى اعتقدت فيها انها استطاعت أخيرا أن تبذل نفسها لقبلات زوجها هذه الذكرى تصرخ فيها بصوت أشد عتوا وجبروتا ، واستولى عليها يأس لا حد له ، وكفت عن كل مقاومة ، وتركت الماضي يعهرها في الحاضر. واذ رأت نفسها باستمرار تحت تصرف رجل لم تعد تشعر نحوه بأى حب ، مع يقينها بأنها تحب جيليوم وانها تخونه في كل ساعة رغما منها دفعها كل ذلك الى ان تشمئز من نفسها كل الاشمئزاز. لم تجد تفسيرا للنكبات الفسيولوجية التى تسلب جسدها من ارادتها ، ولم تدرك ذلك العمل الخفى لدمها واعصابها الذى جعل منها زوجة لجاك طوال حياتها . وعندما كانت تحاول ان تفهم السبب في غرابة مشاعرها كان ينتهي بها الأمر الى أن تتهم نفسها بميول بشعة وهى ترى نفسها عاجزة عن نسيان عشيقها الأول وعن حب زوجها ... وما دامت تكره أحدهما وتحب الآخر فلماذا تشعر بذلك السرور العظيم في ملاطفات جاك ومداعباته الخيالية ، ولماذا لاتستطيع اظهار عواطفها لجيليوم بكل صراحة ؟ عندما كانت تلقى على نفسها هذا السؤال العويص الذى يشتمل على تعاسة حياتها ، وهى الحالة الخاصة التى تتألم منها ، كانت تتوهم انها فريسة مرض عضال رهيب مجهول وتقول لنفسها ان جنفييف على حق وان هناك نار جهنم تكمن في أحشائها .

وذات ليلة سمع جيليوم مادلين تئن وتتوجع فحسبها مريضة ، وجلس في الفراش وراح ينظر الى وجهها تحت ضوء القنديل . وكان الزوجان يرقدان وحدهما حينئذ ، فقد نقل فراش لوسى الى غرفة مجاورة ، وكفت مادلين عن التوجع. ونظر زوجها الى وجهها في قلق . وكان ، عندما جلس ، قد انحسرت عنه الأغطية وكشفت عن كتفى زوجته . ورأى على شفتيها ابتسامة رقيقة ، على الرغم من انها كانت غارقة في نوم عميق . وفجأة راحت تهتز في انفعال وتتوجع من جديد ولكن في رفق وتأثر . وارتفع الدم الى عنقها وتمتمت وهى تكاد تختنق : جاك !.. جاك !.. في صوت خافت تصحبه تنهدات غامضة .

وامتقع وجه جيليوم وتجمدت اطرافه ، ووثب من الفراش وهو حافى القدمين واتكأ بيديه على حافته . وانحنى وراح ينظر الى مادلين وهى تتقلب كما لو كان ينظر الى مشهد رهيب سمره فى مكانه . ووقف وقد فغر فمه مايقرب من دقيقتين وهو لايستطيع ان يحول عينيه ، وسمع رغما عنه همسات المرأة الشابة. وكانت قد طرحت عنها الغطاء ومدت ذراعيها وراحت تقول وهى لاتزال محتفظة بابتسامتها : جاك .. جاك .. فى صوت رقيق خافت .

وثار جيليوم اخيرا . ومرت به لحظة أحس فيها بحاجته الى ان يخنق هذه المخلوقة التى تنطق شفتاها باسم رجل آخر وتهتز لفرط اللذة . والقى يده على احدى كتفيها العاريتين وهزها فى غلظة قائلا : مادلين .. مادلين .. استيقظى .

واستيقظت مفزوعة لاهثة ، وهى تتفصد عرقا ، وتمتمت تقول وهى تجلس وتنظر حولها فى هلع : ما الخبر ؟

ثم رأت نفسها نصف عارية ، وابصرت زوجها واقفا فوق السجادة . واخبرتها نظراته التى استقرت على صدرها العارى بكل شىء فانفجرت باكية .

ولم يتبادلا كلمة واحدة . وماذا عساهما يقولان ؟ كان جيليوم يحس برغبة جنونية فى أن يعامل زوجته كما لو كانت اتعس المخلوقات ، وكما لو كانت بغيا تدنس فراشهما كل ليلة ، ولكنه تمالك نفسه وادرك انه لا يستطيع أن يتهمها بأحلامها . أما مادلين فقد كانت تود لو ان تضرب نفسها ولو ان تدافع عن نفسها عن الاخطاء التى اذنب بها رقادها وحده . بيد انها لم تجد الكلمات المناسبة ، وادركت الا شىء يمكن ان يطهرها فى عينيه على الرغم من براءتها ، واستولى عليها غيظ ويأس حقيقيان ، وعادت الى ذهنها كل نقاط كابوسها ، وسمعت نفسها تدعو جاك وهى نائمة ، وتذكرت انها توجعت وتنهدت أوجاع وتنهدات الحب ، وزوجها متمدد بجوارها يسمعها وينظر اليها .. يا للخزى ويا للعار .

وفى مساء اليوم التالى نام كل من الزوجين فى فراشين منفصلين باتفاق فصم بينهما . ومنذ ذلك اليوم وقع بينهما طلاق ، فقد دمر حادث الليلة الماضية زواجهما. ومنذ ان بعث جاك الى الحياة وكل شىء يدفعهما الى هذا الانفصال . وفشلت كل مخاولة منهما لاقصاء ذلك الرجل من ذهنهما ، واقرا بالهزيمة ازاء استحالة مقاومتهما اكثر من ذلك . وجاءهما طلاقهما ببعض العزاء . والغريب

ان كلا منهما كان لايزال يحب الآخر حبا عميقا. ويتوجع ويشتهي الآخر. وحتى الهوة التي حفرهاالقدر بينهما لم تفرق بينهما الا بدنيا ، وبقيا على حافتها وكل منهما يهيم بالآخر من بعيد . وكان غضبهما واشمئزازهما حافلين بحنان ضعيف واه . كانا يعرفان انهما انفصلا الى الأبد ، ولكن اذا كان قد تولاهما اليأس من الوصال ومن استعادة حياتهما الغرامية الهادئة فانهما كانا لايزالان يشعران بنوع من السرور المرير لأنهما يعيشان تحت سقف واحد.

وراحا يتفاديان الحديث عما يجب أن يفعلاه عندما يعود جاك . كانا في بداية الأمر قد أجلا اتخاذ قرار في هذا الموضوع الى الغد. وكانا يؤجلان هذا القراركل يوم الى اليوم الذي يليه ، فان صعوبة اختيار قرار حكيم ، والعذاب الذي يسببه لهما الخوض في هذا الموضوع كان يخيفهما ويدفعهما الى التأجيل الى ما لانهاية . وكلما مرت الأسابيع كلما احسا بأنهما اكثر جبنا وأشد عجزا من اتخاذ قرار صريح . وعند نهاية الشهر الأول قضيا أياما فظيعة وهما يتصوران دون انقطاع ان جاك يدق جرس الباب . ولم يكن كل منهما يشعر بالشجاعة الكافية لكي يتكلم عن مخاوفهما ، ولكي يهدىء كل منهما الآخر بالتحدث عما يفزعهما ، واكتفيا بأن راحا يمتقعان ويتبادلان نظرات وجلة مذعورة كلما دق الجرس. وأخيرا تلقى جيليوم ، في أواخر فبراير، رسالة من الجراح السابق يقص فيها الاحتضار الطويل لصديقه المسكين في مستشفى طولون ، ثم انتقل بعد ذلك الى موضوع آخر فقال في مرح انه التقى بسيدة شابة في الميناء وانه تبعها بعد ذلك الى نيس ، وانها منعته من التعجيل بالعودة الى باريس كما كان يريد ، وانه سيبقى في نيس خمسة عشر يوما اخرى وربما شهرا . وناول جيليوم الرسالة الى مادلين في صمت وهو ينظر الى وجهها لكي يراقب انفعالاتها وهي تقراه . ولكنها بقيت جامدة ولم تزد عن أن زمت شفتيها. وهكذا افلت الزوجان من خطر عاجل . وقال كل منهما ان الوقت لايزال أمامه لذلك أجلا اتخاذ أي قرار الى اجل غير معلوم . وكان الشهران الزاخران بالقلق واللذان انقضيا قد عادا بهما الى عزلتهما التي لا تطاق . والآن ، بعد ان امهلهما جاك ثلاثة أو اربعة أسابيع اخرى فقد رأيا استخدامها في النسيان وفي البحث عن أية فرصة سعيدة ، وما أن تحسنت صحة لوسى ، في منتصف شهر مارس ، حتى غادرا قصر نوارود ورحلا عن فيتوى .

الفصل الثانى عشر

بقى بيت شارع بولونيا شاغرا نحو خمس سنوات تقريبا ، فان جيليوم لم يشأ ان يؤجره لأنه كان ينوى دائما قضاء بضعة شهور من فصل الشتاء فيه . وفى بداية زواجهما اكتفى بأن أرسل اليه خادما كهلا من نوارود لكى يقوم بحراسته . وكان الخادم يقيم فى كوخ صغير مبنى بالطوب الأحمر بجوار الباب العمومي للبيت ، وكان عمله يقتصر على فتح النوافذ مرة كل أسبوع لتهوية المكان . وكان هذا العمل بمثابة احالة الى المعاش لذلك الخادم الشيخ بعد خدمة سنين طوال .

وكان الشىء الوحيد الذى أثار جزع جيليوم هو أنه ما أن دخل غرفة النوم حتى رأى صورة جاك معلقة لصق الحائط . ولا ريب أن البواب وجدها فى مكان ما فعلقها ، وأسرع جيليوم وانتزعها من مكانها والقى بها فى أحد ادراج الدولاب قبل أن تنضم مادلين اليه .

على انه لم يكن فى نية الزوجين الاعتكاف في البيت الصغير ، فان تلك الغرفة المقفلة وذلك العش الهادىء الذى وقع اختيارهما عليه فيما سبق لكى يهدهدا فيه حبهما الوسيد بدا لهما الآن أضيق من أن يسعهما معا . ومنذ اليوم التالى لقدومهما الى باريس ذهبا لزيارة آل دى ريو ، وكان قصرهم يقع على مقربة ، ولكنهما لم يجدا أحدا منهم بالبيت . غير ان آل دى ريو ردوا لهما الزيارة فى مساء اليوم .

اقبل الزوج والزوجة والعشيق كالعادة . وكانت هيلين تتأبط ذراع تيبورس ، والزوج يسير خلفهما . وكان مسيو دى ريو يبدو مريضا ، فقد كان يشكو من كبده منذ وقت طويل ،ولكن وجهه المصفر والمتوتر لفرط الهه كان محتفظا بازدرائه المترفع ، كما كانت الابتسامة الساخرة ترتسم فى عينيه . وكان تيبورس يبدو ، بعد ان تخلص من أدران القرية ، ضجرا ، ملولا ، ساخطا كالرجل الذى كلف بعمل مسخر على الرغم منه ، ولا يحاول أن يخفى نوعا من الحنق وحاجة ملحة خفية تدعوه الى القسوة . اما هيلين فقد تغيرت كلية بحيث ان الزوجين الشابين لم يسعهما الا ابداء دهشتهما ، فقد تخلت عن حرصها ولم تعد تهتم بصبغ شعرها او بالعناية بزينتها كما كانت تفعل . ولم تعد تبدو كتلك الدمية التى أصابتها الشيخوخة

بوجنتيها الصارختين بالأحمر وابتساماتها الصبيانية ، وانما غدت امرأة مسكينة ينطق شعرها الأشيب ووجهها المتغضن بحزن مخجل .

وعندما دخل تيبورس أراد أن يندفع نحو جيليوم فى تدفقه لاظهار صداقته الكاذبة التي يبديها نحوه عادة ، ولكنه رأى ان هيلين لم تسرع فى افساح الطريق أمامه فدفعها فى غلظة ، وداس على ثوبها وهو يرميها بنظرة غاضبة . وكانت هيلين تنحنى امام مادلين فى تلك اللحظة لتحيتها فارتطمت بالحائط فى شيء من الفزع ونسيت ان تكمل تحيتها ، وبدا الذهول على وجهها . ورأى مسيو دى ريو هذا المشهد السريع ، كما رأى فزع زوجته ، ولكنه بقى مغمض العينين .

وجلس الجميع . وبعد بضع دقائق ، دار أثناءها الحديث بصورة عادية عن الطقس وجو الشتاء الكئيب ، وعن ملاهى باريس ، اقترح جيليوم على تيبورس ان ينتقلا الى غرفة مجاورة لتدخين السيجار . وكان منظر هيلين قد أثار اشمئزازه . وعندما وجدت السيدتان انهما أصبحتا وحدهما أمام مسيو دى ريو لم يجدا ما يتحدثان به . وكان الشيخ جالسا ويداه فوق حجره محدقا الى الأمام كما يفعل الرجل الأصم الذى لا يزعجه أى صوت . وبدا انه لا يدرى اين هو ، ولكن جفنيه كانا ينخفضان فى بعض الأحيان ، وكان يبدو فى عينيه نظرة سريعة سافرة وهما تفتشان فى وجه المراتين .

وساد الصمت لحظات ثم تكلمت هيلين رغما عنها عن تيبورس ، فلم يكن فى مقدورها أن تتكلم عن ذلك الشاب الذى يسيطر عليها سيطرة تامة . وكانت بعد أن تستنفد كل المواضيع المختلفة تعود دائما الى ذلك الموضوع الذى يشغلهما ، والى اللذة والخوف اللذين تعيش فيهما الى جوار عشيقها . وكانت فى شهوتها الجسدية قد فقدت الاحترام والاحتشام شيئا فشيئا ، ولم تعد تشعر بأى خزى أو خجل وهى تعترف بمخازيها علنا ، وانما كانت تجد لذة وهى تعرض غرامها ، وكانت تبوح بأسرارها لكل من تلتقى بهم . حتى اذا كانت لا تعرفهم ، ولا تدرى بمدى انحطاطها ، وانما كانت تشعر بارتياح كبير لاظهار اهتمامها بذلك الذى أصبح كل شيء فى حياتها .

وحدثت مادلين بكل شيء واستطردت تقول دون أى خجل : أواه أيتها السيدة العزيزة . لقد لقيت جزائي ، وهو من الجزاء ، فان هذا الرجل كان رقيقا وظريفا معى ، اماالآن فقد تغير وأصبح قاسيا لا يرحم ... انه يضربني ، واننى أعلم ان من العار أن اعترف بذلك ، ولكننى جد تعيسة . اننى بحاجة الى العزاء والسلوى

... ما اسـعدك انت ! ... فانت لم ترتكب اى اثم او معصية وتعيشين فى امان . اما انا فانني احتمل عذابا لا يطاق . انك رأيت الآن كيف دفعني تيبورس منذ لحظات . وسوف يقتلني ذات يوم .

وعلى الرغم من انها كانت تتكلم فى صوت خافت فان مادلين ابدت خوفها من أن يسمعها مسيو دى ريو ، ونظرت الى الشيخ فى قلق . ولكن هيلين اسرعت تقول فى صوت واضح وفى استخفاف تام :

ــ أوه ... لا تخافي . ان زوجي لا يسمعني . انني احق منه بالرثاء ، فانه لا يدرى بشيء مما انا فيه ولا يرى دموعي التى اخفيها عنه فى حرص كبير . انني ابتسم امامه . وتيبورس يحسن معاملتي امامه هو الآخر . انه صفعني بالأمس فى غرفة الصالون لأنني عاتبته لجريه خلف الفتيات . وقد مزقت صفعته خدى . وكان مسيو دى ريو منحنيا أمام المرفأ ، ولم ينظر الى على الرغم من أن وجهى كان شديد الاحمرار . اننا نستطيع أن نتكلم دون خوف .

والواقع ان مسيو دى ريو كان يبدو نائما ولكن نظراته الحادة كانت تمر دائما بين جفنيه النصف مطبقتين ، ولو ان عينا فاحصة رأت توتر اصابعه لأدركت انه يستمتع بالانصات الى حديث المرأتين كل الاستمتاع . وانه كان يقرأ قصة الصفعة على شفتي زوجته .

وكان جيليوم وتيبورس قد انتقلا أثناء ذلك الى غرفة مجاورة للتدخين . وكان جيليوم متلهفا للحديث فسأل زميله القديم فى الدراسة هل هو راض عن اقامته فى باريس .. وما كان هذا ليهمه فى شيء ، فقد كان يبغض الشاب ، ولكن سره أن تواجد معه لكى يشغل نفسه . وأجابه تيبورس فى صوت غاضب بأنه لم يلق أى نجاح . وقد اصابه السؤال البريء الذى القاه عليه الشاب جراحه فى الصميم .

وراح تيبورس يدخن فى عصبية ، ثم ارضى العنان لغضبه بعد صمت قصير ، فتكلم فى غلظة وفظاظة ، كما يفعل الرجال عادة عندما يتحدثون عن البقايا ، فقال ان هذه المراة استغلت شبابه ، وانه لا يريد أن يحطم حياته بسبب حب سخيف ، وانه عقد النية على أن ينتزع نفسه من بين ذراعي هذه المراة الشرسة التى تثير قبلاته تقززه واشمئزازه . ولكن الشيء الذى لم يعترف به هو غضبه بخيبة أمله ، ولأن تقززه انما يرجع الى أنه لم يستفد حتى الآن من هذه القبلات . ولو ان هيلين استطاعت أن تعينه مندوبا بمجلس الدولة او ملحقا باحدى السفارات لأطنب فى مدحها ولحاول أن يقف بجوارها .

ومع ذلك فلم يكن يجهل ان المراة المسكينة بذلت ما وسعها فى سبيل مرضاته ، فقد كانت تريد أن تخدمه حقا ، ولكن القدر كان لها بالمرصاد ، فكلما حصلت على وعد صريح من احد ذوى النفوذ بتعيين تيبورس فى وظيفة كبيرة بادر مسيو دى ريو وبذل جهده لكى لا يفى الرجل بوعده . ولم تكن زوجته تدرى شيئا من مساعى زوجها . وكان هذا الأخير يحرص على الا تقف على شىء من مساعيه وهو يمنى نفسه بأن يدب الخلاف بينه وبين زوجته وعشيقها وان يمتع عينيه بمنظرهما وهما يتشاجران .

وبدأ تيبورس يعتقد ان عشيقته لا تستطيع شيئا وانها لا يمكن ان تفيده بشىء. وقسا فى معاملته لها عندئذ ولم يعد فى راسه غير فكرة ان ينتقم منها نظير السنوات الأربع التى قضاها معها دون جدوى .

وراح جيليوم يصغى الى حديث تيبورس الغاضب وهو يرثى لحاله . كان مشمئزا من غرامياته ولكنه راح يصغى اليه وهو يتحسر .

واذ فرغا من تدخين سيجاريهما وحديثهما عادا الى الصالون ، وقطعا بذلك الحديث على مدام دى ريو ، فقد امسكت هذه الأخيرة عن الكلام مرة واحدة ، ونظرت الى عشيقها فى خوف كما لو كانت تخشى أن يضربها لأنها جرؤت على الشكوى . وبقيت على ارتباكها وهى تنطق من وقت لآخر بكلمة . كان الشاب ينتقدها بشدة ويقاطعها مظهرا بذلك أنها لا تفهم شيئا مما تقول ، دون أن يحاول اخفاء غضبه عن الباقين ، كما لو كان يريد ان يبين لجيليوم الى أى حد أصبح لا يحفل بهـا . وانتهت السهرة بهدوء . وعند انصراف الزوجين والعشيق راح مسيو دى ريو يثنى على الشاب كل الثناء فقال أنه شاب شهم أمين لا يشبه هؤلاء الشبان المغفلين الذين يسعون وراء ملذاتهم وشهواتهم ، وانه يحب الشيخوخة ويحترمهـا . وانتهى الزوج بأن طلب منه أن يمضى لكى يبحث عن عربة . وكان يستخدمه عادة كما لو كان خادما . وكان المطر يهطل . وعاد تيبورس وهو مبتل من راسه الى قدميه . وركب مسيو دى ريو العربة وهو يحتمى بذراعه من المطر ثم تحول الى الشاب وارسله لكى يأتى بزوجته ، ولولا الملامة لطلب منه الجلوس بجوار السائق .

وادرك جيليوم ومادلين ان مثل هذه الزيارات لن تكفى لتلهيهما من مشاغلهما . ولم يكن فى وسعهما التفكير فى استقبال زوار فى بيتهما الصغير لضيق غرفه . ولهذا فكرا فى تمضية سهراتهما فى الخارج ، فى تلك الصالونات الكبيرة التى يجتمع فيهـا عشرات

الضيوف الذين لا يعرف بعضهم بعضا والذين يتبادلون الابتسام من الساعة التاسعة حتى منتصف الليل . وعرفهما مسيو دي ريو بسبع أو بثمان أسر أسرع أصحابها في الترحيب بمسيو دي فيارج .
وقضى الزوجان جميع ليالى الأسبوع في زيارات مختلفة ، فكانا يخرجان عند هبوط الليل يتناولان العشاء في الخارج ، كما لو كانا غريبين . ولا يعودان كل ليلة الا لكي يأويا الى فراشيهما .
وعاش الزوجان على هذه الوتيرة شهرا ، وحاول كل منهما أن يفهم الزواج على طريقة اناس المجتمع الذين يتزوجون بدافع المصلحة لمضاعفة ثرواتهم واحياء أسمائهم ، فان الشاب يدعم موقفه في حين تحصل الفتاة على حريتها ، فبعد ليلة يقضيانها في مخدع واحد يعيش كل منهما فيغرفة منفصلة ويتبادلان التحية اكثر مما يتخاطبان ، ويستعيد الرجل حياته الماجنة التى كان يحياها وهو أعزب ، وتبدأ الزوجة حياتها الزوجية في خيانة زوجها . وكثيرا ما تنقطع بينهما كل صلة .
وذات يوم ، وفي احدى ساعات الغضب خطرت لجيليوم ومادلين نفس الفكرة في وقت واحد ، فقد قال كل منهما انه يجب أن يلتمس الحب في مكان آخر . ولكن كيانهما تمرد عند أول محاولة . وكانت مادلين عندئذ في ذروة جمالها ، وكان الشباب يحيطون بها في كل مكان تذهب اليه ، وراحوا يغازلونها في جد ومثابرة ، ولكنهما لم تجد فيهم غير دمى سخيفة . أما جيليوم فقد اصطحبه بعض الأصدقاء الى وليمة ، وتآمروا فيما بينهم لايجاد عشيقة له ، ولكنه خرج من تلك الوليمة متقززا من منظر الفتيات اللاتى كن يغمسن أصابعهن في الصلصة ويعاملن عشاقهن كما لو كانوا خدما لهن . كان الزوجان مرتبطين ارتباطا وثيقة برباط الألم بحيث لم يكن باستطاعتهما تمزيق هذا الرباط الى الأبد . واذا كان تمرد أعصابهما لم يعد يسمح لهما أن يعرب كل منهما عن حبه للآخر فان آلامهما لم تكن لتسمح لهما هي الأخرى بأن ينسى كل منهما الآخر كل النسيان ، وبقيا أحدهما امام الآخر لا يقويان على الملامسة ، وان بقيا قريبين الى الأبد . أما الجهود التى كانا يبذلانها لكي يقع بينهما انفصال عنيف فلم تفلح الا في فرض آلام أشد ايلاما وأكثر حدة .
وبعد بضعة أيام من القـــــرار الذى اتخذاه بعدم الاختلاط الى الصالونات لعدم جدواها ، أحسا بالوحدة في شارع بولونيا . ولذلك قررا العودة الى نوارود لتغيير المكان اكثر منه فرارا من جاك ،

وأحال القلق الذهنى الذى يعيشان فيه حياتهما فى هذه العزلة الى جحيم لا يطاق ، مع ان هذه العزلة بالذات كانت تغرقهما فى السعادة والهناء . واغرتهما فكرة السفر والانتقال السريعة ، ثم انهما كانا فى منتصف أبريل وبدأ جو المدينة الحار يثقل عليهما ، وفكرا فى العودة لعذابهما والهما فى صمت الريف وهدوئه .

وفى الليلة السابقة لسفرهما قاما بزيارة آل دى ريو لتوديعهم . وكان قد مر بهما وقت طويل لم يلتقيا بهم . وعرفا فى القصر أن مسيو دى ريو قد مات فى صباح ذلك اليوم ، ولكنه قبل أن يموت قام بتنفيذ فكرة جهنمية . فقد كتب وصيته كلها لتيبورس شرط أن يتزوج من هيلين . والمتابع لمسيو دى ريو يعرف أنه احتفظ بسخريته هذه حتى اواخر لحظاته . وفى احتضاره ، كان يصفع مرة أخرى ، فى لذة مريرة ، هذه الدنيا الحافلة بالبؤس والعار . واستخدم كل لحظاته الأخيرة فى ابتكار العـــذاب الذى يحكم به على هيلين وتيبورس ووضعه موضع التنفيذ . كان قد أفلح حتى اللحظة الأخيرة فى اغاظة هذا الأخير بمنعه من الحصول على الوظيفة التى ينشدها بحيث انتهى الشاب بقطع صلته بهيلين بعد مشادة أوسعها فيها ضربا بكل خسة ودناءة . وقد احزن هذا الانفصال مسيو دى ريو اذ راى انتقامه يفلت منه ، وراى انه تمادى ، وكان لابد من مصالحة العاشقين . وخطرت له عندئذ فكرة وهى أن يجمع بين ارملته وتيبورس بالزواج . وبهذه الصورة لا يترك الشاب الثروة تفلت من بين يديه على الرغم من نفوره وتقززه من عشيقته ، ولن تكون هيلين من الحرص ابدا لكى تفكر فى رفض الزواج من الرجل الذى أصبحت اسيرة له وجارية ذليلة ، وسوف يتزوجان ، ويجرح كل منهما الآخر دون انقطاع . كان المحتضر يرى تيبورس يغلله القيد بامراة لها ضعف سنه يثقله الخزى والقبح الى الأبد كما كان يرى هيلين وقد كبرت وشاخت فى الفجر والعهر ، تلتمس قبلاته فى ذلة خادمة تخضع للضرب والسب ليلا ونهارا ، وينتقم زوجهـــا منها فى حياتهما الخصوصية لابتسامات السخرية والازدراء التى ستتسبب له فيها فى الخارج . وحياة مثل هذين الزوجين ستكون جحيما ونكالا وخصاما فى كل ساعة وفى كل دقيقة . واذ تصور مسيو دى ريو هذه الحياة القــذرة امتـــلأت نفســه سخرية من هذين العاشقين .

حضر جيليوم ومادلين المشهد النهائى فى قلق متزايد . وادراكا ان خاتمة مهزلة بشعة تمت أمامهما . وقد شاهدا هيلين متكومة

فى مقعدها وقد استولى عليها الذهول ، ولم تنهض وكان تيبورس هو الذى رافقهمـــا حتى الردهة . وفيما هم يهبطون السلم قال يخاطب جيليوم فجأة : انني التقيت بأحد زملاء المدرسة القدامى .

وامتقع وجه مادلين فى حين قال جيليوم فى ارتباك : اى زميل ؟

أجاب تيبورس : جاك برتييه . انك تعرفه .. ذلك الشاب الطويل الذي كان يذود عنك . انكما كنتما لا تفترقان . يبدو انه أصاب ثروة كبيرة الآن . انه عاد من الجنوب منذ ثمانية أو عشرة أيام .

لزم الزوجان الصمت . وكانت الردهة التى دار فيها هـــذا الحديث معتمة فلم يستطع الشاب ان يتبين ما طرا على ملامحهما من تغيير .. واستطرد يقول : أوه . انه شاب لا بأس به . أقسم انه سيبدد ميراث عمه . انه اصطحبنى الى بيته ، فى شارع تيبو .

وضحك ضحكة صغيرة ... ضحكة رجل قوى لا يمكن ان يفكر فى الاقدام على اية هفوة . وبسط جيليوم يده له لكى ينصرف . ولكن تيبورس استطرد يقول : اننا تحدثنا عنده . وقد ذكرت له عنوانكما فى باريس . وسوف يذهب لزيارتكما مساء الغد .

فتح جيليوم الباب الخارجي للبيت وقال للشاب فى انفعال وهو يضغط على يده : وداعا .

وتركه وسار بضع خطوات فوق الافريز . وبقيت مادلين وحدها مع الشاب فسألته فى صوت واضح سريع عن رقم البيت الذى يقيم مسيو جاك برتييه فيه بشارع تيبو فذكره لها . وعندما لحقت بزوجها تأبطت ذراعه . وقطعا الطريق القصير الذى يفصلهما عن شارع بولونيا فى صمت . وعندما بلغا بيتهما وجدا رسالة من جنفييف ، وكانت رسالة وجيزة وعاجلة أخبرتهما فيها ان لوسى الصغيرة قد انتكست ، وتدعوهما الى اسراع فى العـــودة . كان كل شيء يدعوهمـــا الى التعجيل بمغادرة باريس . وما كان هنـــاك أي شيء يرغمهما على البقاء فيها . ولم يغمض لمادلين جفن طوال الليل ، وفى صباح اليوم التالى ، حين همت بركوب القطار تظاهرت بانها نسيت شيئا ، وابدت استياءها الشديد لذلك . ورغم ان جيليوم أكد لها ان البواب سوف يرسل لهما ما تريد فقد بقيت جامدة الحركة مترددة . وعرض عليها عندئذ ان يعود الى البيت ولكنها رفضت ذلك أيضا . وعندما دق الجرس معلنا انطلاق القطار دفعته الى الركوب وهى تقول له انهـــا ستكون اكثر اطمئنانا اذا عرفت انه موجود بجوار لوسى ، ووعدته

بأنها ستعود بعد بضع ساعات . وعندما الفت نفسها وحدها أسرعت بالخروج من المحطة ، وبدلا من أن تمضى الى البيت بشارع بولونيا مضت نحو البوليفار سيرا على قدميهـــا . وكان الطقس جميلا ، فراحت تمشي في بطء وهي تفكر . كانت نيتها قد استقرت منذ الأمس .. عادت اليها كل طاقتها أمام خطر زيارة جاك ، فحين سالت تيبورس عن عنوان الشاب كانت تفكر : سأدع جيليوم يرحل غدا ثم أمضي بعد ذلك لزيارة جاك وسأقول له كل شيء . سأتوسل اليه ان يترفق بنا ، واذا هو أقسم لى أنه لن يحاول أن يرانا فيخيل لى انني سأحسبه قد مات من جديد ، ولن يعرف زوجي بهذه الخطوة أبدا ، وسوف يتصور فيما بعد أن الصدفة هي التي صانتنا ، وسوف يهدأ مثلي . وراحت هذه الخطة تدور في راسها طوال الليل ، وتبدل فيها وتغير ما بين لحظة واخرى ، مترفقة فى اختيار الكلمات التي سوف تعترف له بها ، فقد أرهقها الذعر ، وأمضها الألم ، وأرادت أن تفرغ من هذا الأمر . وايقظ الخطر فيها الفتاة الجافة الشكسة .

واذا رات ان المارة بداوا ينظرون اليها فى فضول رات أن تسرع بالمسير . وعندما بلغت الساعة الثانية عشرة الا الربع مضت الى شارع تيبو وراحت تتقدم كمـــا لو ان القـــدر هو الذى يدفعها . وعندما بلغت البيت كانت مضطربة متوردة الوجنتين ، ضيقة الصدر. ولكنها ارتقت السلم دون أى تردد . وكان جاك هو الذى فتح لها ، واذ رآها صاح يقول وهو يطلق صيحة دهشة :

ــ انت ؟ .. انت .. ما كنت أتوقع أن أراك اليوم يا فتاتى ..

واغلق الباب وتقدمها فى غرف كثيرة صغيرة انيقة المفروشات . وتبعته صامتة . وعندما أدخلها آخر غرفة ، وهي غرفة النوم ، تحول اليها واخذ يديها فى مرح وقال :

ــ اننا لسنا متخاصمين اذن ؟ .. هل تعرفين انك لم تــكونى ظريفة أبدا فى مانت ؟ أظن انك اتيت لمصالحتي ، اليس كذلك ؟

وراحت تنظر اليه فى صمت . وكان يرتدى القميص دون السترة . ويدخن غليونه وذكرتها هيئته وهو كذلك بصورته التى تسببت فى بكائها ذات ليلة . وكان قميصه مفتوحا يكشف عن صدره العارى .

وجلس جاك على حافة الفراش ، وكان الغطاء متدليا حتي الأرض. وكان لا يزال ممسكا بيديها وهى واقفة امامه . وعاد يقول :

ــ كيف عرفت عنوانى بحق الشيطان ؟ .. أما زلت تحبينني ؟ .. هل رايتني وتبعتني ؟ .. ولكن لنتصالح قبل كل شيء .

وجذبها اليه فجاة ، وقبلها في عنقها . واستسلمت له ولم تحاول المقاومة ، وتهاوت على ركبتيه ، وبقيت جالسة فوقهما فى ذهول ، وعلى الرغم من أنها لم تصعد غير بضع درجات فانها كانت مبهورة الأنفاس . وأحست بأنها سكرى . وراح كل شيء يدور حولهـا . ورات فوق المدفأة باقة ورد ذابلة ، فابتسمت وهى تتذكر ميدان المارلين ثم تذكرت أنها اتت لـكى تطلع جاك على زواجها بجيليوم ، فتحولت أليه محتفظة دون أن تدرى بالابتسامة على شفتيها . وكان الشاب قد طوقها بذراعيه فقال وهو يضحك ضحكة كبيرة :

ـ أى فتاتى . صــــدقيني اذا شئت ، ولكن منذ أن رفضت مصافحتى وأنا أفكر فيك كل ليلة ، قولى لى ... هل تتذكرين غرفتنا الصغيرة بشارع سوفلو ؟ .

وخفت صوته ، وبدا متأججا ، وراحت أصابعه تعبث بها ، وسرت فى بدنه رعشة تحت احساس الشهوة العارمة .. ولو ان مادلين جاءته فى وقت آخر لما جذبها الى صدره هكذا فجأة . أما هى ، فمنذ أن تهاوت فوق ركبتيه وقد أحست بالخوار ، وجاءها من هذا الرجل عطر لاذع مزعج . وسرت السخونة فى أعطافها ، وامتلأت اذناها بصخب مبهم ، وبحاجة ملحــة الى النوم اضطرتها الى أن تغمض عينيها . وكانت لا تزال تفكر وتقول : اننى صعدت لكى أقول له كل شيء ، وسأقول له كل شيء . ولكن هذه الفكرة ماتت فى أعماق ذهنها ، كما لو كانت صوتا راح يبتعد ويضعف ، وانتهى بأن لم تعد تسمعه .

وكانت هى التى استسلم جسدها لعنـــاقه ، والتصقت به . وانقادت لضمته كالجواد الذى يعرف ركبتى سيده القويتين . وفى اللحظة التى أسلمت له نفسها فيها ، شـاحبة ، مطبقة العينين ، يجرفها دوار منعهـــا عن التنفس ، خيل لها أنها تهوى من ارتفـاع شاهق ، فى بطء وقد امتلأ كيانها كله بشهوة كبيرة واحست تماما أنها سوف تتحطم فوق الأرض . ولكنها أحست مع ذلك بمتعة كبيرة وهى تتقلب وتهتز هكذا فى الفضاء ، واختفى كل ما يحيط بها . وفى غموض سقطتها واغماء وعيها سمعت الساعة تدق معلنة الثانية عشرة . وبدا لها أن هذه الدقات الاثنتى عشرة قد دامت دهرا .

وعندما ردت الى وعيها رات جاك يمشى فى الغرفة جيئة وذهابا . ونهضت ورددت البصر حولها وهى تحاول أن تفهم السبب فى رقادها فوق فراش هذا الرجل ، ثم تذكرت . وعندئذ أصلحت من هندامها

في بطء واقتربت من المرآة وعقصت شعرها الذى كان قد تهدل فوق كتفيها . وكانت مرهقة متبلدة الذهن .

وقال جاك : سوف تقضين اليوم معى . وسنتناول الغداء معا .

ولكنها هزت راسها رافضة ولبست قبعتها فقال : اتنصرفين ؟ ..

اجابت فى لهجة غريبة : انني على عجل ... فهناك من ينتظرني .

أخذ جاك يضحك وقال وهو يقبلها : اذا تمكنت من الهرب لكى تأتى لزيارتى في يوم آخر فحاولى البقاء معى طوال اليوم ..

حدقت فيه كما لو ان كلماته قد صفعتها . وانفرجت شفتاها لحظة ثم أتت بحركة جنونية . وافلتت منه من غير ان ترد وهبطت السلم مسرعة . كانت قد بقيت معه نحو عشرين دقيقة على الأكثر .

وعندما رأت نفسها في الشارع ، اخذت تمشي في انفعال وقد خفضت راسها ، لا تدرى اين تذهب ، يدفعها المارة بالمناكب . وضاع صخب الشارع والحركة التىتدور حولها فىاضطراب احاسيسها وفي الافكار التى راحت تعصف بكيانها . وتوقفت مرتين او ثلاث مرات أمام الفترينات تنظر اليها دون أن ترى المعروضات التى بها ، وكانت تعاود السير فى كل مرة فى خطوات مهتزة . كانت مذهولة ، وسمعها الناس تتكلم فى صوت خافت ... كانت تقول « اية امراة انا ؟ .. انني ذهبت الي هذا الرجل لكى ارتفع واسمو فى عينيه فاذا بى أقع بين ذراعيه كفتاة من فتيات الهوى . ما كاد يلمسني بطرف اصبعه حتى تهاويت بين ذراعيه دون ان اتمرد أو ان اثور ، واحسست بمتعة بشعة وانا استسلم له ... وكانت تسكت وتسرع الخطا ثم تعود فتقول فى عنف « ومع ذلك ، كنت قوية هذا الصباح ، وقد أعددت العدة لكل شيء . وكنت اعرف ماذا سأقول له ، ولكنني ملعونة ، كما تقول جنفييف ... ان جسدى يفيض ، ويا لها من قذارة » . وكانت تصدر منها حركات تدل على التقزز وتمشي بمحاذاة البيوت كالمجنونة، وتخفض عينيها اذا ما نظر الناس اليها كما لو كانت تحسب أنهم يعلمون بالعار الذى اقدمت عليه . وقادتها قدماها الى ميدان المارلين، ثم مضت الى المحطة ، واستقلت القطار المنطلق الى مانت وهناك ركبت عربة أقلتها الى فيتوى . وكانت تحدث نفسها طوال الطريق قائلة : سوف انتحر فى قصر نوارود ، بعد ان اثبت لجيليوم ضرورة موتى .

وبلغت قصر نوارود مع الغسق وفيما هى تدفع الباب الخارجي رأت نورا يتلألأ فى نافذة المعمل ويبدو فى غموض واجهة القصر المظلمة، ولم تر النافذة مضاءة قبل اليوم . وسبب لها هذا احساسا مفزعا .

الفصل الثالث عشر

وكان القدر يدخر لها ضربة اخرى فى نواروود ، فقد ماتت لوسى اثناء النهار .

عندما وصل جيليوم راى الطفلة تحتضر . وكانت قد انتكست فجاة واصابتها حمى شديدة ، وراحت تخرج يديها الصغيرتين من تحت الغطاء ، وتتولاها ازمات من الهذيان تجعلهاتقاوم أشياءغيرمنظورة كان يبدو انها تحدق فيها بعينين فارغتين ثابتتين . وعندما دخل ابوها لم تعرفه ، وانحنى فوق الفراش ، وراح ينظر اليها فى حزن ، واحس بقلبه ينفطر وبكيانه يتمزق مع كل حشرجة من حشرجاتها ، ويقول لنفسه انها اصبحت ملكة الآن . واحس بندم شديد لأنه اقصاها عنه ، ودفعه هذا الندم الى أن ينحنى فوقها ويأخذها بين ذراعيه ويضمها فى قوة ليمنع عنها الموت .

ولكن لوسى كانت تموت . وقد جاءت لحظة انتهى فيها هذيانها ، وابتسمت ابتسامة جميلة لطفلة مكشرة ، ثم نظرت حولها كما لو كانت تستيقظ ، وبدا انها تتذكر وانها تعرف كل شيء . وبسطت يديها الى ابيها وهى تقول عبارتها المألوفة : خذنى ... احملنى .

وانحنى جيليوم وهو يكاد يجن وقد حسب انها نجت ، ولكنه عندما اراد أن يحملها احس بجسدها الصغير يطقطق ويهتز بين يديه فجاة ... فقد ماتت . وعندما ارقدها فوق الفراش ، انحنى فوقها فى صمت وهو لا يستطيع البكاء . ولكنه لم يجرؤ على أن يتاملها ، فان الموت زم شفتيها ، وبدت على فمها تكشيرة جاك المعروفة ، واخافه توتر الموت الذى اتسم به على وجه الطفلة شيئا فشيئا وجعله يبدو اشبه بوجه ذلك الرجل ، وحاول ان يصلى على روحها باذلا جهده لكى لا ينظر الا الى يديها المعقودتين فوق صدرها ، ولكنه كان يعود فينظر رغما عنه الى وجهها من جديد . وانتهى اخيرا بأن غادر الغرفة تاركا جنفييف وحدها معها .

وعندما دخلت مادلين الردهة استشعرت المصاب ، فقد كانت غرفة الطعام باردة ومظلمة ، وبدا البيت مقفرا ، وسمعت ترتيل المراة العجوز فى الدور الأول . وبلغت الغرفة التى ترقد فيها جثة

لوسى ، حيث كانت جنفييف ترتل صلواتها بجوارها . ووقفت جامدة لا تتحرك أمام المنظر البشع الذى طالعها . وأدركت الحقيقة من نظرة واحدة ، ثم تقدمت في بطء . كانت قد أقصت ابنتها عن ذهنها منذ الصباح ، وأحست الآن بشيء من الفرح وهى ترى انها ماتت لأنه اصبح في مقدورها ان تنتحر دون خوف من أن تترك خلفها مخلوقة مسكينة يكرسها مولدها للموت . واذ دنت من الفراش لم تدرف دمعة واحدة وقالت لنفسها انها هى الآخرى ستكون مثلها بعد بضع ساعات ، متوترة وباردة . ولولا انها كانت تنوى أن تموت لألقت بنفسها فوق جثة ابنتها ولأخذت تنتحب فى صوت يقطع نياط القلوب . ولكن يقينها من أنها لن تكون بين الأحياء فى وقت وشيك منعها من الاحساس بفقدان ابنتها . واحست بالرغبة فى أن تقبلها مرة أخيرة . ولكنها عندما انحنت فوقها ، خيل لها أنها ترى جاك أمامها ، وبدا لها ان للوسى شفتى الشاب ... هاتان الشفتان اللتان قبلتهما فى شهوة واستمتاع صباح اليوم بالذات ، واتت بحركة تدل على الذعر وارتدت الى الخلف .

وكانت جنفييف قد قطعت صلواتها ورات هذه الحركة المذعورة. . ونظرت الى مادلين فى حدة وقالت فى قسوة دون أن تفارقها بعينيها.

ــ هكذا يجد أولاد الخطاة قصاصهم . أن الله يعاقب العصاة فى نسلهم دائما .

وأحست مادلين بنوبة من الغضب من هذه المراة التى تلتقى بها فى كل خطوة من خطواتها ، وفى كل مصاب جديد ، والتى تلقى فى وجهها باعتقاداتها البشعة . وصاحت :

ــ لماذا تنظرى الى هكذا ؟ .. هل منظرى غريب ؟ .. كنت قد نسيت امرك ، ونسيت انك سوف تسبيننى . كان يجب أن اتذكر اننى سأجدك هنا حتى الساعة الأخيرة ، ترفعين ذراعيك فى غير رحمة كالقدر .. انك أنت القدر ... انت العقاب ..

ومضت عينا المتعصبة وقالت فى صوت خشن : لقد حانت الساعة ... حانت الساعة .

وعادت مادلين تقول فى حدة : أوه ، اننى اتألم بما فيه الكفاية . اننى راضية بالعقاب ، وسوف أعاقب نفسى ، ولكن لست انت التى تحكمين على . انك لم تأثمى ولم تعرفى الحياة ولن تفهميها ..

أجابت البروتستانتية : كلا . يجب أن تسيل دموعك ، وأن تشكرى اليد التى تعاقبك .

ـ هل يمكنك أن تعيدى الى حب جيليوم ، وأن أجد السلام ؟ .. هل يمكنك أن تعدينى بأننى سوف اتألم وحدي ؟ .

ـ كلا . واذا كان جيليوم يتألم فذلك لأنه مذنب . ان الله يعرف أين يوجه ضرباته .

رفعت مادلين راسـها فى كبرياء وصاحت : حسنا . اذا كان لا يمكنك شيئا فماذا تفعلين هنا ؟ .. ولماذا تعذبينني . انني لست بحاجة الي مواعظك . انني أدنت نفسي وارتضيت العقاب .

وابتعدت عنها منهوكة . وفيما هي تخفض راسها رات جثة ابنتها ، وكان يبدو أنها تنصت اليها . ففغرت شفتيها وخجلت لغضبها الذى راح يمر بدونه فوق الجسد الصغير المسجى امامها . وحطمها مشهد العدم ، وبدا كأن الموت يدعوها لكى تتذوقه ، وتحولت الى جنفييف وسألتها : متى ماتت ؟ ..

اجابتها المراة العجوز : ظهر اليوم .

ووقع هذا الرد الوجيز على رأس مادلين وقع الصاعقة . اتكون جنفييف على حق ؟ أتكون زلتها هى التى قتلت ابنتها ؟ انها كانت ظهر اليوم بين ذراعي جاك . وقد ماتت لوسى فى الظهر . بدت لها هذه المصادفة فظيعة فى حتميتها . وسمعت أنات حبهـا تمتزج باحتضار ابنتها . وكادت تجن وهى تقارن بين مشهد الشهوة ومشهد الموت . وبقيت محطمة متبلدة الذهن لبضع لحظات ثم تساءلت ماذا تفعل فى هذا المكان ، وما الذى جاءت تبحث عنه فى نواروود . ولم تعد تعرف فقد خوت راسها وراحت تتساءل فى قلق « لماذا اسرعت من باريس هكذا فجاة ؟ كنت أنوى على شيء ... وبذلت جهدا كبيرا لكى تتذكر . ثم عادت اليها الذاكرة فجاة وقالت : اننى أعرف . اريد ان اموت ... أريد ان انتحر ».

قالت تسأل جنفييف .: أين جيليوم ؟ ..

اتت المراة العجوز بحركة من يدها تدل على انها لا تعرف دون ان تتوقف عن صلواتها . وتذكرت مادلين عندئذ ذلك الوميض الأحمر الذى راته وهى بالباب والذى أضـاء نافذة المعمل بتلك الصـورة الغريبة . ودفعتها الغريزة فغادرت الغرفة وصعدت السلم بسرعة .

كان جيليوم موجودا فى غرفة المعمل فعلا ، فعندما هرب من الغرفة التى ماتت فيها لوسى ، أسرع الى الحديقة وراح يتمشى فيها وقد أصابه الألم بالجنون . وعندما هبط الليـل كالرماد الرقيق وكسا الريف بكساء رمادى من الحزن المؤلم أحس بارهاق لا حد له ، وود

ان يدفن نفسه في حفرة كئيبة لكي يرضي هذا الارهاق ، واحس عندئذ بقوة غريبة تدفعه الى ان يمضي الى الدرج الذى اخفى فيه مفتاح الغرفة التى انتحر مسيو دى فيارج فيها ، وكان لم يطأ بقدميه منذ ذلك الوقت . ولم يستطع أن يفهم تلك القوة التى تدفعه الى الصعود اليها . كان الأمر يبدو كظمأ فظيع ورغبة ملحة فى أن يستنفد كل رعب وكل ألم . وعندما دخل الغرفة الكبيرة التى لا يكاد نور الشمعة يبدد ظلماتها بدت له اكثر قذارة واكثر رمادا عن ذى قبل . وكانت لا تزال بها بعض الشظايا والبقايا . ولم يكن احد قد لمس شيئا طوال هذه المدة ، وغطت طبقة سميكة من الغبار الذى ظل يتراكم مدة خمس سنوات كل شيء فى الغرفة . وغزلت العناكب خيوطا تدلت حتى الأرض فبدت كالخرق السوداء . وعبق الهواء الذى ظل حبيسا برائحة العفن بصـــورة مقززة . والقى جيليوم الشمعدان فوق المنضدة ، ووقف يحدق امامه . واحس بالقشعريرة حين رأى تحت قدميـــه الأثر الذى تخلف عن دم أبيه . ثم أرهف اذنيه . خامره احساس بأن ضربة جديدة سوف تلم به وسط هـذه القـذارات . وبدت له هذه الغرفة التى لم يطأها أحد منذ ان انتحر أبوه هادئة مشئومة ، كأنها تنتظره منذ خمس سنوات قضاها فى أحلام كاذبة ، وانها انفتحت الآن واجتذبته كفريسة تنتظرها منذ وقت طويل .

كان قد مضت به نصف ساعة وهو يرهف السمع ، وقد انذره صوت داخلى بأن شخصا سوف يأتى ويضربه الضربة القاضية عندما سمع وقع خطـــوات فى الطرقة . وظهرت مادلين بالعتبة ، وكانت لا تزال متدثرة بشالها ، ولم تكن قد وجدت الوقت لكى تخلع قفازها وقبعتها . وشملت ، بنظرة سريعة ، المعمل كله ، وكانت لم تدخله قبل اليوم . وكانت قد سمعت عنه فى أحيان كثيرة ، وتعرف قصته المحزنة . وعندما رأت قذاراته المخجلة ارتسمت على شفتيها ابتسامة غريبة ، فقد كان خليقا بها أن تموت وسط هذه القذارات ، وفى هذا المكان المحزن . وبدا لها كما بدا بجيليوم ان هذه الغرفة تنتظرها .

وتقدمت الى زوجها وقالت : اننى أتيت لكى اتحدث معك ياجيليوم تكلمت فى صوت واضح جاف ، وقد تلاشت كل انفعالاتها وأمحت . وكانت رافعة الرأس وفى عينيها عزم واصرار كالقـــاضى الذى يهم باصدار حكمه .

وعادت تقول : منذ بضعة شهور طلبت منك منة ونحن نغادر حانة مانت ... سألتك ان تتركنى أموت فى اليوم الذى تصبح فيه حياة

العذاب التي نحياها لا تطاق . وقد اتيتك الآن لكي اذكرك بهذا الوعد الذي قطعته لي .

لم يجب جيليوم ، فقد ضمن الأسباب التي ستذكرها زوجته له ، وكان ينتظرها وهو على استعداد لتقبلها ، ولم يعد يفكر في أن يدافع عنها ضد نفسها .

واستطردت مادلين تقول : ارايت الى اين بلغنا ؟ لقد حوصرنا نحن الاثنان وطوردنا حتى أخذنا نفقد جزءا من المكان كل يوم ، وأحسسنا بدائرة الحديد التي تطوقنا تزداد ضغطا وتضيق حولنا ، ونبذنا كل الاماكن نبذ النواة ، ولم نستطع السكنى فيها ... بيتنا الصغير المجاور ، وبيتنا في باريس ، وحتى غرفة الطعام في القصر ، بل حتى الغرفة التي ماتت فيها ابنتنا ، واصبحنا الآن حبيسين في هذه الغرفة المشئومة ، ملاذنا الأخير الجدير بجنوننا . واذا نحن خرجنا منها معا فذلك لكي نهوى الى أسفل ، ولكي نحيا حياة أكثر خسة واكثر جبنا . اليس لذلك . :جاب جيليوم : هذا صحيح .

ــ ها نحن الآن وجها لوجه ، لا نتبادل كلمة ولا نظرة من غير أن يجرح احدنا الآخر . انني لم أعد ملكا لك وانما للذكريات التي تأتي ليلا وتهزني بكوابيسها البشعة . انك تعرف كل شيء ، وقد ايقظتني مرة بينما كنت أستسلم في أحضان حلم ، ولهذا لم تعد تجرؤ على ان تضمني بين ذراعيك ، اليس كذلك ياجيليوم ؟ انني ممتلئة برجل آخر كل امتلاء ، واظنك غيورا ، واحسبك يائسا مغيظا مثلي .. اليس هذا بصحيح ؟

ــ هذا صحيح .

ــ ان حبنا ليكون خسيسا في هذه الساعة اذن . ومهما تمادينا فسوف أرى في بعض الأحيان اشمئزازك وتقززك ، وسوف تقرأ انت افكاري وشهواتي المخجلة ، ولن نستطيع العيش معا بعد ذلك . أليس هذا بصحيح .

ــ هذا صحيح .

كان جيليوم يردد هاتين الكلمتين كالصدى ، وكانت كل كلمة منهما تدوى في وضوح كالقنبلة . وأيقظت فيه هيئة زوجته المترفعة الهادئة كل اباء دمه ، ولم يعد يشعر بأى وهن . اراد أن يكفر عن ضعفه السابق بتقبله بكل شجاعة النهاية الحتمية التي كان ينتظرها .

واستطردت مادلين تقول في مرارة : ذلك الا اذا كنت تريد أن تعيش منفصلا عني ، انت في غرفة ، وانا في أخرى ، كبعض الأزواج الذين

يرتضون هذه الحياة أمام الناس انقاذا للظواهر . وقد راينا بعض هؤلاء في باريس ، فهل تريد ان نجرب هذه المعيشة ؟
صاح جيليوم : كلا ، فانني مازلت أحبك يا مادلين . اننا متحابان ، وحبنا هو الذي يقتلنا. واذا احتفظت بحبك فانني أريد أن ابقى زوجك وعشيقك ، وانت نفسك ، رايت في باريس اننا لا نستطيع أن نخضع لهذه المعيشة التي تقوم على الأنانية . يجب أن يعيش كل منا في أحضان الآخر أو لا نعيش على الاطلاق .
ـ حسنا . لنتكلم بالمنطق الآن . لقد انتهى كل شيء ، وانت نفسك قلت ذلك . ان حبنا هو الذي يقتلنا . ولو أننا كنا غير متحابين لعشنا في هدوء وسلام ، ولكننا لا نستطيع أن نتحاب وان ندنس حبنا في نفس الوقت . ولا أستطيع ان المسك بأطراف اناملي وان اقضي ليالي بجوارك وانا على صدر رجل آخر ، في حين انني ابذل دمي لكي اضمك الى ... هذا هو الذي سيصيبنا بالجنون ... لقد انتهى كل شيء .
كرر جيليوم في بطء : نعم . انتهى كل شيء .
وساد صمت قصير ، تبادل الزوجان النظر أثناءه في هدوء .
وقالت مادلين أخيرا :
ـ اننا لا نفعل شيئا لا يقره العقل . تذكر الحقائق . أردت ان اموت في ذلك الفندق . ثم هناك شيء لم أعترف لك به ... فان فكرة ابنتي أوقفتني ... أما اليوم فقد ماتت لوسي ، واستطيع ان اموت ، ولدي وعدك بذلك .
اجاب جيليوم : نعم . سوف نموت معا .
نظرت اليه في دهشة وذعر وصاحت : ماذا تقول ؟ ... لا يجب ان تموت انت يا جيليوم . لا اريد أن تموت ، فان موتك ليكون جريمة لا جدوى منها .
اتي الشاب بحركة احتجاج يائس وقال : لا احسبك توقعت ان أبقى لكي أتعذب وحدي .
قالت في ازدراء : ومن الذي يحدثك عن العــــذاب . ايعود اليك ضعفك ؟ هل تخاف البكاء ... لو ان الامر اقتصر على الالم لبقيت ، ولقاومت . بيد اني انا شرك وجرحك الدامي . انني ذاهبة لأنني اضـــايقك .
ـ لن تموتي وحدك .
ـ أرجوك ياجيليوم أن توفر علي والا تزيد معصيتي . اذا جررتك معي في سقطتي ، فسوف أكون أكثر جرما وسأموت وانا اكثر يأسا .

ان جسدى ملعون ويصيب كل ما يحيط به بالمرارة ، وسوف تشعر بالهدوء عندما اموت ، وسيكون فى مقدورك عندئذ ان تجد السعادة .
فقد جيليوم هدوءه البارد وعذبته فكرة بقائه يتعذب وحده وصاح :
ــ وماذا تريدين منى أن أفعل من غيرك . ليس امامى الا الموت . ثم اننى أريد أن أعاقب نفسى لضعفى الذى لم يعرف كيف ينقذك . انك لست مذنبة وحدك ، وانت تعرفين ذلك يا مادلين . اننى فتى عصبى ، يجب أن تضميه بين ذراعيك ، اذا كنت لا تريدين أن تتركيه لهجران جبان .
احست مادلين بصدق كلماته ، ولكنها لم تحتمل مجرد فكرة القضاء على زوجها بقضائها على نفسها . ولم تجبه راجية أن يهدأ حماس الشباب وأن تتمكن من اخضاعه الى رغباتها . وقال الشاب :
ــ لنبحث عن وسيلة اخرى ... رحمة بى .
ــ لماذا تنطق شفتاك بهذه الكلمات الجوفاء ؟ .. لا جدوى من البحث ، فاننا لن نستطيع البدء وانت تعرف ذلك . وتتكلم لكى تسكر ذهنك الذى يصرخ بالحقيقة .
راح جيليوم يلوى يديه وهو يقول : كلا . ابدا . لا يمكن ان تموتى هكذا . اننى احبك ، ولن ادعك تنتحرين امامى .
قالت بلهجة الجد : ليس هذا انتحارا وانما هو تنفيذ حكم بالاعدام . اننى حاكمت نفسى وأدنتها ، فدعنى أقتص من نفسى .
وكان جيليوم قد جلس على حافة المنضـــدة وهو خائر القوى ، وارادت مادلين أن تفرغ من هذا الامر ، فقد احست بالأعياء وتعجلت الراحة فى الموت . حملها سر انانى على أن تترك زوجها ليأسه . والآن وقد بذلت قصارى جهدها لانقاذه فسوف تموت مستريحة البال .
وقالت وهى تردد البصر حولها : لا تتخبط هكذا . يجب أن أموت . لا تقل شيئا ، ودعنى أفعل .
وكانت قد رأت الدولاب الصغير الذى وضع فيه مسيو دى فيارج الأب قنانى السموم الجـــديدة التى كان قد اكتشفها . وكانت قد صعدت السلم منذ لحظات وهى تقول لنفسها انها سوف تلقى بنفسها من نافذة الدور الثالث وانهـا ستتحطم فوق الارض ، ولـكن كلمة « سم » التى كان مسيو دى فيارج قد كتبها بحرفين كبيرين فــوق احد الالواح الزجاجية جعلها تفكر فى طريقة اخرى للانتحار ، فأتت بحركة وأسرعت نحو الدولاب الصغير ، فى حين صاح جيليوم ملعورا :
ــ مادلين ... مادلين ...

ولـكن المرأة الشابة كانت قد كسرت لوحا بقبضة يدها ، وقطـع الزجاج أصبعها قطعا كبيرا . وأخذت أول قنينة لمستها يدها . وعندما اندفع زوجها اليها وأمسك بيدها يحول بينها وبين أن ترفع الزجاجة الى شفتيها ، أحس وهو يفعل ذلك بالدم يلوث يديه . وقال :

ــ انني سأحطم أصابعك ، ولا اتركك تجرعين هذا السم . يجب أن تعيشي .

اجابت : ولكنك تعرف جيدا ان هذا محال .

وكانت تقاوم مقاومة عنيفة ، وتأتي بحركات مفـاجئة لكي تحرر يديها . ولكن زوجها كان ممسكا بها بشدة . وراح يلهث وهو يقول :

ــ اعطيني هذه الزجاجة . . . اعطيني اياها .

وأجابته المرأة في صوت أجش : ولكن . . . لا تكن طفلا . . . دعني .

لم يجب . وراح يحاول ابعاد أصابعها الواحد عن الآخر لكي تترك القنينة . وكانت يداها كلها حمراء ، واذ أحست بأن قواها تخور بدا انها اتخذت قرارا حاسما لأنها قالت :

ــ ألم يثبت لك كل ما ذكرت لك انني بحـاجة الى الموت وان من القسوة أن تأباه علي .

ولكنه لزم الصمت مرة أخرى ولم يجب ، فاستطردت تقول في لهجة أشد عنفا :

ــ الا تتذكر غرفة الفندق التي أقمت فيها مع عشيقي ؟ . . الا تتذكر تلك المائدة التي كتبت عليها « أحب جاك » وتلك الستائر الزرقاء التي كنت أرفعها أيام الصيف الخانقة .

سرت الرعشة في بدن جيليوم عنـد سماعه اسم جاك ، ولـكنه اشتد عنفا في محاولته الاستيلاء على الزجاجة . وقالت المرأة الشابة عندئذ :

ــ ويحك ! . . . أردت أن أوفر عليك عذابا أخيرا ، ولكنك ترغمني على أن اقسو معك . . . انني كذبت هذا الصباح ، فانني لم أنس شيئا . واذا كنت قد بقيت في باريس فذلك لكي أذهب لزيارة جاك . أردت أن أقصيه عنا ، ولكنني تهاويت على صدره كالعاهرة . هل تسمع يا جيليوم ؟ . . انني خرجت الآن من بين ذراعي جاك .

ترك جيليوم يدي مادلين تحت وقع هذا الاعتراف المفاجيء ، وتدلت يداه ، وحدقت عيناه في زوجته في غباء . وارتد الى الخلف في بطء . وقالت وهي تبتسم ابتسامة انتصار غريبة :

ــ آه . . . أرأيت الآن انك ترتضي موتي .

واستمر يرتد الى الخلف . واذ بلغ الجدار ، اعتمد عليه أن يكف عن النظر اليها . واضناه قلق بالغ لكي يتابع كل حركة من حركاتها .
ورفعت القنينة ، وأرته اياها ، وعادت تقول :

ـ انني ساشرب يا جيليوم ... انك تسمح لي بذلك الآن ، اليس كذلك ؟ ..

ولكنه لزم الصمت ، وعيناه تكادان تخرجان من محجريهما ، واسنانه تصطك في قوة . واستجمع قواه شيئا ما وهو يتضاءل كما لو لكي يفلت من هذا المنظر البشع الذى يراه أمامه ولا يستطيع ان يحول عينيه عنه .

ورفعت مادلين القنينة فى بطء عندئذ وافرغتها في جوفها مرة واحدة وهي لا تفارق زوجها بعينيها . وكانت جرعة السم كبيرة ، وتأثيرها أكبر . فقد دارت حول نفسها باسطة ذراعيها الى الأمام ووقعت على صدرها . وانتفضت انتفاضة واحدة وتهدل شعرها الكثيف الأشقر على الأرض وبدا كبركة من الدم .

أما جيليوم فقد ازداد تكوما على نفسه وهو يرى زوجته تجرع السم . ولم يلبث أن جلس على عقبيه بجوار الحائط . وعندما وقعت زوجته فى صوت أصم ، كما لو كانت قطعة من الرصاص ، أحس بأن أرض الغرفة تميد تحت قدميه ، وخيل له ان سقطة مادلين ، وهي تدوي في ذهنه ، شرخت نافوخه . ومرت به لحظات نظر فيها الى الجثة بيديه الملوثتين بالدم وينظر الى بقع الدم فى حدة الانفعال المرح . ودار بالغرفة أكثر من مرة وهو يدوس على قطع الزجاج المكسور : ويجمع شظاياه في منتصف الغرفة ، وعلت ضحكاته شيئا فشيئا ، ولم يكن هناك شك في أن هذه اللعبة قد راقت له .

وما هى الا لحظات حتى ظهرت جنفييف على عتبة الباب ، وهي جامدة متصلبة ، أشبه بالقدر ، ودارت بعينيها فى أرجاء الغرفة الفسيحة التى امتلأت بالروائح الكريهة والقذارات والتى لم تستطع شمعة واحدة أن تبدد ظلماتها . وعندما تبينت الجثة الممددة فوق الأرض وحولها ذلك المجنون الذى يضحك ويرقص انتصبت قامتها العالية فى اعتدال وقالت بصوتها الجاف :

ـ ان الله لم يغفر خطيئة الجسد .

« تمت »